

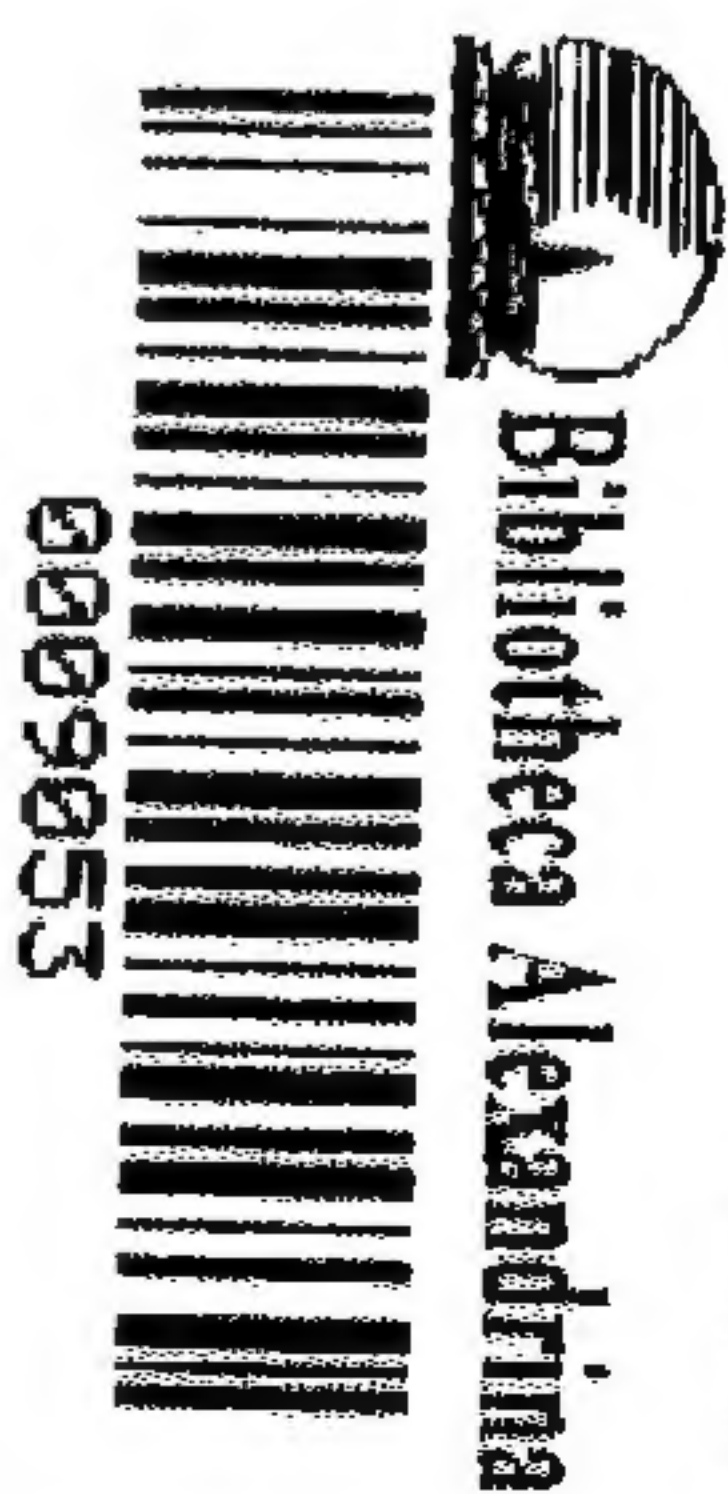


عندما يعتال حكم بوليسي حريات شعب وديمقراطية
حكم فلاحق احرار الامة ورجال الفكر فيها والاخلاق
والبطولة المؤيدة بصحة العقيدة لا ينفى عربيا او عجميا
ان يظهر سلطان احمر او الف سلطان احمر
هذا الكتاب الذي وضعه الصحافي عسان زكريا عن
عبد الحميد السراج (السلطان الاحمر) هو سرور موفقه
صريحة واضحة معززة بالوقائع وبالشهود وبالتواريخ
عن مرحلة من مراحل الزمان الرديء الذي ارتدى فيه الجهل
والعزور وتسهوة السلطة لسياسا عسكريا حمل اسم
العسكري الذي ساعدته مرحلة تسلق الرئيس المصري
جمال عبدالناصر ذروات القوة ليواكبه - مستقيدا -
كشهاب اضاء في السماء السورية - اللبنانية - العراقية -
الاردنية لاربعة خمسة اعوام قبل ان ينطفئ لاجئا الى
القاهرة التي اطعمته وكسوته واسكنته وما زال
وهو كتاب عاصي مخاضا طويلا قبيل صدوره لكنه وهو
الآن في الاسواق سيكون مرجعا للباحث عن الرجل الذي
كان يعيش في الظلام قبيل حكمه وتحكمه واستمر فيه وهو
يحكم وما زال يحاصره الى هذه الايام

الناس

فلسطين زكريا
يتذكر

السلطان الدمع



خاستگان زکرتیا
یتد

السلطان
الله محمد

اراد محمد
لنفسه

THE RED SULTAN

BY

GHASSAN ZAKARIA

**First Published in Great Britain in 1991
Copyright © Arados Publishing Ltd.
Unit F11 Lanterns Court, Millharbour
Docklands, London E14**

British Library Cataloguing in Publication Data:

**Zakaria, Ghassan
The Red Sultan
1. Arab Countries – Politics
ISBN 1 – 85762–000–3**

**All Rights Reserved. No Part Of This Publication May be Reproduced Stored in a
Retrieval System, or Transmitted in any Form or by any Means, Electronic, Mechanical
Photocopying, Recording or otherwise,
Without Prior Permission in Writing of the Publishers**

للہ تعالیٰ

الى روح الامينة الاولى
جوليات المير سعادہ
ویدیے ترفیع الیحدیث

غسان نرکریا

الطبعة الاولى

١٩٩١

لندن

● تقتضي الاشارة الى ان فصولا من هذا الكتاب قد نشرت على حلقات اسبوعية متسلسلة في مجلة «سوراقيا» بين ١٢ من آذار (مارس) ١٩٩٠ و ٢٧ من تموز (يوليو) ١٩٩٠ وقد زيدت في هذا الكتاب ونقحت وحذف منها. وهي في أي حال من الاحوال ملك كاتبها ولا تلزم الآراء الواردة فيها والمواقف دار «ارادوس للنشر».

● حقوق الطبع والاقتباس والترجمة الى لغات أجنبية محفوظة لدار «ارادوس للنشر» - لندن. ولا يجوز لأي مطبوعة أو وسيلة اعلامية أخرى مقروءة أو مسموعة أو مرئية، نقل هذا الكتاب جزئيا أو كليا الا باذن خطي من دار النشر في لندن.

ARADOS PUBLISHING LTD.

UNIT F11 LANTERNS COURT, MILLHARBOUR, DOCKLANDS,
LONDON E14

سكروتيه

لقد أمضيت ثلاثة عقود طويلة من عمري متردداً في كتابة
«السلطان الأحمر» فما شعرت بها، وما كان قرار التفرغ له لولا الزميل
انطوان شكرالله حيدر، الذي جلس إليّ ساعات طويلة على مدى أيام
أطول للاستماع الى تلاوتي وترتيب أفكارى وتنسيق جملي وإعادة
صياغتي.

فليس أمراً سهلاً أن أتذكر أحداثاً جرت قبل ثلاثين عاماً وأكثر،
حول فترة مثيرة ومخيفة، عشت دقائقها وتفصيلها وعانيت منها.
ولا بد لي هنا من أن أتوجه بالشكر الى الذين تعاونوا معي في تحقيق
وتنفيذ هذا الكتاب صفاءً وإخراجاً وخطاً فنياً، بعدما كاد صدوره يتعذر
ويتأخر ويتأرجح أيضاً.

أخص من هؤلاء عبدالله باكير وأدونيس قباني وبهيج عنداري ونديم
الحافظ.

حسبي انني في تذكراتي جانبت الحقيقة وحاذرت الخطأ في الوقائع
والتواريخ، وان كنت سهوت أو أخطأت في زلة هينة للقلم فأملني أن
يأتي من يلفت الى السهو والى الخطأ فأتدارك وأصحح في طبعة مقبلة.

غسان زكريا

لندن - ١٩٩٢

ماذا السلطان هذه الايام؟

لم يكن في مخططي نشر هذا الكتاب، ذلك لأن الكتابة عن عبد الحميد السراج في هذه الايام، تتطلب تفرغاً وأبحاثاً، إضافة الى كونها عملاً يبحث عن حجم وتأثير يأتي - ربما - على قائمة اواسط التسعينات، لاسباب تكونت عندي قناعة بها عندما رتبت ما أتمنى انجازها عندما أقرر أن اعتزل وأتخلى وأتفرع للعمل التاريخي - وهو اختصاصي - والعمل الصحافي - وهو مهنتي - في شكل كتب او كتيبات محدودة التوزيع، بعيدة عن الملاحقة اليومية والتعليق الاسبوعي المباشر على الاحداث العربية - وما اكثرها !! - هذه الايام .

كان عليّ ان افرغ من وضع «كرونولوجي» صحيح للشرق القديم، بعيداً عن تشويهاات التاريخ الاوروبي - الاميركاني . وكان عليّ ان افرغ من تبويب أبحاثي عن «الملوك الذين وحدوا الهلال الخصيب»، ثم يأتي الدور على بعض «شؤون سياسية» بعد التمهيد التاريخي لفهمها كظاهرة او مرحلة في تاريخ كيانات المشرق، ذلك ان عنصراً أساسياً يبرز تحبط أجيال ما بعد العشرينات وحيرتها لما تعرضت لعمليات تجهيل وتعتيم وترهيب وتفريغ مقصودة بها سبقها من قرون استعباد عثماني (تركي) في تاريخ سورية التاريخية وتاريخ العالم العربي، وربما كان هذا «التفريغ» ضرورياً لكي تبرز «المنجزات» .

في اعتقادي ان ذلك التجهيل والتشويه كانا ضروريين حتى امكن سلب رجالات التاريخ المشرقي افضالهم، وحتى يجلس عبد الحميد السراج مثلاً في مقعد صالح العلي او ابراهيم هنانو او سعد الله الجابري او هاشم الاتاسي، فيعتبر ذلك انجازاً ومكسباً شعبياً، وحتى يعتبر الجيل المبتور التاريخ، المسلوب، المشوه، الحاضر، افتتاح مصنع للحليب المجفف (مثلاً) بقرض أجنبي وخبرة سوفياتية وتنفيذ اشتراكي ودون مساهمة شامية تذكر من الناحية التكنولوجية، يعتبر، عملاً خالداً، بطولياً،

عجائبيا، يكفي لمحو كل ما حدث من أخطائه وجرائمه وخطاياها!!
لأنهم لا يعرفون أن صالح العلي - مثلا - قاتل فرنسة وهز وجودها في الساحل،
فيما حاربها إبراهيم هنانو في الداخل، وناورها وداورها الجابري والأتاسي في ظروف
سورية كانت قبل ستين سبعين عاما عملا خارقا، لم يتأت للكبار الكبار، وكانت
نتائج تلك الثورات والحروب والمعارك على جغرافية الشام واقتصاد الشام وإنسان
الشام ما لا سبيل إلى مقارنته بأية أحلام «سراجية» معلقة على أوهام «وحدة» غلبها
الغلاب.!

كان أملي أن يفرج عن التاريخ السوري الرسمي (والوثائق) كما تفعل الدول
الراقيات، حتى يمكن تقويم الحقبة السراجية على ضوء إنجازات السوريين في
الخمسينات، بل كان القصد من تأخير الكتابة عنه والنشر طوال ثلاثين عاما أن تتاح
لي وثائق أكثر، باعتبار أن مصادر تاريخ موطني وأمتي لا تزال في أرشيفات دول
الغرب الكواسر، بل كان ظني - وبعضه إثم!! - أن يبدأ الإفراج عن الوثائق
الأميركانية ابتداء من العام ١٩٥٣ بعدما مرت عليها العقود الثلاثة القانونية، فإذا
- وهي هنا ظرفية شرطية - ما وصلت إلى أواسط التسعينات صار متاحا لي على الأقل
الفترة بين ١٩٥٢ إلى ١٩٦١ وهي كافية جدا، فما حاجتي للوثائق للاقتناع أو
الاكتشاف. فلقد كنت في عصر عبد الحميد السراج شاهد عيان، وما توصلت إليه
من معرفة تؤكد الحقائق كل يوم بل كل ساعة ودقيقة.

وانما احتجت - واحتاج - الوثائق للذين لا يؤمنون ولا يصدقون إلا بعد أن يدسوا
أصابعهم في الجرح أو أدرس إصبعي - وأصابعي - في جراحهم.!

فلم يعد الانتظار ضروريا ولا مجديا، فالتطورات الجارية من حولي وإلى يميني
ويساري لا تبشر بخير قليل أو كثير، والقيود على الوثائق وعلى الفكر التي طالما شكها
منها الأحرار ستزداد وتتضاعف. فلن يتاح للباحثين أن يتعرفوا ليؤرخوا، إلا على
النذر اليسير. . .

لكن أهم الأسباب في نظري لقراري السابق في تأجيل الكتابة والنشر، أن يفعل
عامل الزمان فعله في وفي القارئ معا، فتبرد حدة الأحداث العاصفة وتتحول إلى
تاريخ، له سلبياته الكثيرة فيها إيجابياته أكثر من نادرة. . . ولا يمكن لواحد
مثلي أن يدعي الحياد في الكتابة عن «الحقبة السراجية»، وأنا كمواطن سوري،
عاش أحداثها كاملة، فأثرت في حياتي وعمري وحاضري ومستقبلي الشخصي
والمهني والقومي. . . يستحيل أن يكون محايدا في الحديث عن «حقبة» أعطته أتعس
أيام عمره وأقسى نكسات وطنه.

كيف أدعي الحياد، أزاء محاولات تصفية جسدية وفكرية لحركة رسولية نهضوية،
سعت - وتسعى - لتغيير مجرى التاريخ عبر مسيرة ستين عاما من الكلام والصبر.

الطويل؟ كيف وقد اعطيت احلى سنوات عمري في سبيل انتصارها، أكون محايدا
ازاء ضربها وقمعها ووقف صعودها. !

وقد عشت حتى رأيت عبدالحميد السراج يهزم في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ كما لم
يهزم في الاربعينات يوم كان حارسا على «بحسيتا» حلب!! وما أظن أن فرحة قد
غمرت قلباً مثل فرحتي بقيام نظام «الانفصال» عن مصر مع التسليم باستحالة
انتصاره لزمان، فما بالك، بتحقيق ذلك - واستمراره - منذ صار الى الابد؟!

هل أستطيع أن أنسى «الهزة» الوطنية - القومية التي غمرت القلب والروح والعقل
بإعلان يوم ٢٨ ايلول (سبتمبر) وتصفية المصالح المصرية والثقافة المصرية بين عالمي
وموطني، وتخليصي من «عوضين» و«حسين» وأغنية «السح انبح انبو» التي ابتكرها
عبقري مصري من سلالة حتشبسوت ربما. !

بل كيف اكون محايدا ازاء خروجي من دائرة النفوذ المصري الصرف الى الهيمنة
المصرية المتدثرة بالنفوذ الاميركاني - الاسرائيلي؟

وكيف أكون محايدا وقد كان ثمن «الاستقلال» تقطيع أوصال الهلال الخصيب
وفصل لبنان وفلسطين والعراق والكويت وقبرص عن الشام؟ كيف أكون محايدا وأنا
الذي لو خيرت في بداية حياتي بين بقاء الاحتلال التركي الف عام وقبول فصل هذه
الكيانات، لما اخترت ابدا فصل واحدة منها، وقد كان شعار دمشق يوم ٨ آذار
(مارس) ١٩٢٠ ايام يوسف العظمة «وحدة من طوروس الى العقبة ومن زاغروس
الى البحر» قالها في «المؤتمر السوري الكبير». !

هزمتنا فرنسة في لبنان والشام وطردناها بعد صراع ربع قرن، لكننا تركنا موثي
دايان يقول عن حرب الجولان «من بين السبعين الف عسكري سوري الذين
انطلقوا هائمين على وجوههم صاعدين المرتفعات الصخرية من سهل البطيحة
وشواطىء طبرية، التقطنا خمسة آلاف اسير فقط لكي نبادلهم جميعا بالاسير
الاسرائيلي الوحيد الذي أسره السوريون». !

أهذا جرح يندمل ويشفى؟ لا... بل سيرافقني الى القبر، ولولا انه غسل بالدم
وببرقية غولدا مائير في حرب تشرين (اكتوبر)، «ايقظ هنري كيسنجر الآن، لاننا
نريد المساعدة اليوم، فغدا ربما يكون قد فات الاوان»!! لولا ذلك لانتفض جيل
كامل مجروح للعرض والطول يوم البعث والنشور. !

أيمكن ان أكون محايدا وأنا أكتب عن المجازر التي مارسها عبدالحميد السراج
واعوانه في فئة مؤمنة كل غايتها كانت - ولا زالت - ان تكون المجتمع الاكمل
والاجمل والامثل، الذي فيه كل خير وحق وجمال. الى يوم تستطيع فيه ان تكمل بناء
جيل النصر الآتي!...

أيمكن ان يكون مثلي محايدا وهو من رأى بعينه مساوىء «السلطان» ومثالبه التي لم تترك

ثغرة واحدة يمكن ان ينفذ منها النصر الا واغلقتها ، ولا غلطة يمكن ان يستفيد منها العدو العبراني لم ترتكبها . ؟!

ما بين فرحة «الوحدة» التي صنعتها «جونت» العسكر العشرة (في اوساط الخمسينات) وبين الحسرة والنقيب اكرم الصفدي يعد عناصره بأنه اتفق مع «السلطان» على تخصيص كذا مليون ليرة من ثروة الشوام لدعم «ثورة» صائب سلام وعبدالله يافي و«المقاومة الشعبية» عام ١٩٥٨ في لبنان . ١

وما بين الفرحة بـ «الوحدة» المصنعة وحلاوة الانفصال وانتكاسة استعادة لبنان وتمزق الوطن الى قبائل وعشائر وانحسار الحقبة السورية عن الفعل العربي العام وانحسار دور السوريين . .

ما بين تنشيط الاقتصاد السوري واطلاقه نابضا قويا ، وتدمير هذا الاقتصاد والقضاء على فرصة سورية لبناء الوحدة الهللكسية الاقتصادية (المشرقية) حولها وبقيادتها ، حتى لم يبق في المهاجر والمغتربات الا المغترب السوري والمغترب اللبناني والمغترب الفلسطيني ، وفي دمشق اقيمت اول شركة طيران عربية بأموال القطاع الخاص ، وأول بنك عربي ، وأول مصنع نسيج ، وأول صحيفة سياسية ، وأول مؤتمر لوحدة سورية عربية ، بل ان دمشق كانت عاصمة «القومية» العربية الاولى وبغداد الثانية ، وان ذلك كله حصل بين الـ ١٩٢٠ والـ ١٩٤٩ ودمر في حقبة عبدالحميد السراج الذي حول الحكم الى «مزرعة» سلمها الى عبدالوهاب الخطيب وبرهان ادهم وشوقي دقاق ومروان سباعي وبهجت مسوقي وبقية اخوان الصفا . ١

كيف أكون محايدا وقد حول عبدالحميد السراج سورية في زمانه الى سجن كبير، اختفت فيه كل مظاهر وشكليات الديمقراطية وضرب فيه وعذب وزراء ونوابا واطباء ومحامين وصحافيين ورجال اعمال ومهندسين ونساء ورجال دين ، وهو ما لم يجرؤ الاستعمار الفرنسي على مدى ربع قرن على فعله وهو يحتل الشام ولبنان بمائة الف جندي؟

كيف أكون محايدا والقانون في اجازة؟

ما بين ذكريات «يا ظلام السجن خيم» لنجيب الريس ومحاولات فرنسة استعادة نفوذها في بلاد الشرق - كما كانت تسميها - ونفوذها بين صفوف الذين تدرّبوا في معاهدها قبل ان تجبرهم لمعاهد الولايات المتحدة الاميركية او الاتحاد السوفياتي . وبين تراجع اعلام سورية الى المرتبة الخامسة في دول العالم العربي حتى التي تعلمت القراءة من أبجديتها وعبر اساتذتها ومعلميها ، وبين توارى أحمد عنة ، وكأنه قد حمل كل خطايا اعلامه ودعايته ، بل ان الاخير أصبح رمزا لكل ما هو سيء اعلاميا حتى ان الصحافي الراحل عباس الحامض اطلق على «الرأي العام» صحيفته صفة «مدرسة الخيانة» .

بين هذا وذلك مستحيل ان يدعي الواحد فينا حياداً في الكتابة عن الـ «شرطي» الذي وصل الى السلطة بالارهاب وكل شيء في سوية اكبر منه، وهرب منها - أو هُرب - وهو برأي اعوانه وانصاره اكبر من سورية وكل ما فيها. مستحيل.

لذلك كنت أؤجل . أحاول أن أتسب وقتاً بتأجيل الكتابة، الى ان مرت حوالى ثلاثة عقود طويلة، فرأيت صورة السراج وسط شلة المعارضين السوريين المرهقين المتعبين في بغداد، وسمعت ان الحوار الخاطيء حول من هو الاسوأ: العقيد عبد الحميد السراج او الفريق أمين الحافظ، قد رجح كفة الاول، ونسي المتحاورون ان «السلطان الاحمر» هو الذي أتى بمن جاء بعده، بعد ان تمت تصفية واقصاء كل رجالات سورية ورجال السياسة فيها والفكر والعقيدة والماضي والتاريخ، وان «العسكر» الذين تولوا الامور من بعده كانوا جزءاً لا يتجزأ من القوات المسلحة مفهوماً واسلوباً، وان عبد الكريم نحلاوي وحيدر كزبري ومهيب هندي وفايز رفاعي كانوا أصدقاءه ومقربين منه، بل ان هشام عبدربه الذي القى القبض عليه في دارة روشن بدرخان كان مساعداً رئيساً له، مع الفارق بين نفاق الوارث والدنيا مقبلة، واستجدائه وقد جذبت الموارد وأفلست الخزائن . ا

حاولت أن أجد بعض كتاب عن عبد الحميد السراج ، وهالني ان شخصه «الابسطوري» كان نكرة، وانه مجهول مجهول، لا يمر ذكره، فان قالوا عنه كلمة او كلمتين ربها . ا

ولم أدهش، بل لعلي رأيت ما توقعته، ولو كان غير ذلك لكان للدهشة ما يستوجبها وللحيرة ما يبررها، فالأخ . عبد الحميد كان يحاول ملكاً في بغداد قبل ان تقوم الدنيا ولم تقعد لأجل الكويت وجابر وسعد وصباح . وقررت ان أنشر ما كتبت وان احدث ناس هذا الزمان والناس التي لم تلد بعد عن رجل - ولا كالرجال - استقوى على امرأة كل ذنبها انها كانت زوجة لشهيد . ا عن رجل - ولا كالرجال - قوض ثقافة وقوض حضارة وقوض حركة كادت تغير مجرى التاريخ . ا

ولا أزعج انني سأشيد به، او أدينه، ولا أزعج انني سأهدي جيلاً من الضلال، بل أصبو الى ان أسجل خبرتي ومعرفتي ومعاشتي ومشاهدي للجيل الذي يقرأني هذه الايام، فاذا كان مقدراً لشعب - اي شعب - ان يخوض تجربة «سطحية» جديدة، فعلى الاقل ان يدخلها بوعي هذه المرة، ويفكر ويأين!

تمهید

عندما استحصى تركات التاريخ، سيقى يوم الجمعة ٢٢ من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ يوماً فاصلاً في تاريخ سورية والشرق الأدنى .
ففي ذلك اليوم، حدثت نقلة بالغة الخطورة في حياة السوريين، إذ وجدوا أنفسهم أسارى حكم استخباراتي جائر، يمارس عليهم طقوسه، وعلى رأسه رجل غير مكثرت بكرامات الناس، التفت الى من حوله وحواليه، فاذا عبدة المناصب يلوون ازاءه الرقاب . فاستحكم وحكم وتحكم على مدى سنوات ست طويلة بمرارتها وقساوتها . ذلك الرجل كان اسمه : عبد الحميد السراج .^١

- ١ -

دمشق . بعد ظهر يوم الجمعة ٢٢ من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ .
الملعب البلدي ، يختنق بالناس الذين توزعوا على مدرجاته ، لحضور مباراة في كرة القدم بين منتخب الجيشين السوري والمصري .
على المدخل الرئيس، تعلقت عيون المتفرجين، حيث اصطف الجند تأهباً لاستقبال ضيوف الشرف من عليّة المسؤولين في الدولة والسلك الدبلوماسي .
نشرت أصوات الدراجات النارية هيتها على الحضور، فالآتي خلفها هو رئيس الشعبة الثالثة في القوات المسلحة السورية، ومن أرباب العزم في الدولة .
ما ان وقفت سيارته عند المدخل حتى هلل المذيع من مكبرات الصوت مرحباً به، فتأججت مدرجات الملعب واشتعلت الحناجر بالصراخ .
كان طويل القامة، ممتلئ الجسم، عريض الاكتاف، شديد الشبه بمظهر الضباط الروسين، أول ما يأخذ عينك فيه، هذه الثقة في نبرات الصوت والايحاء . عندما دخل كان محاطاً بعدد من المرافقين، من بينهم يونس عبدالرحيم، وهو رقيب شاب وجهه حاد الملامح، وسيمها، وعيناه ثاقبتان تقدحان شرراً .

ما كاد الضابط يجلس في المقعد المعد له ، حتى هاج بالرقيب الشاب الدم ، فاستل مسدسه وتقدم منه ، وبحركة سريعة صوب فوهة المسدس على رأس الضابط وضغط على الزناد . ويهدوء حول الرقيب فوهة المسدس نحو صدغه و . . . انتحر .

وانتشر الخبر بين الناس : قتلوا عدنان المالكي .
استحكم الذعر بمفاصل دمشق . أخذت شوارعها شكل الموت ، وانتشر المجندون بلباس مدني ، يزنون الاحياء وبدأت موجة الاعتقالات .
لم اكن في الملعب البلدي بين آلاف المتفرجين . كنت على بعد كيلومترات عديدة ، ازور وزوجتي وطفلي زوجة الصديق عبدالقادر عجلاي ، حين دخل علينا زوجها مرددا وقد اهتز حنقا :

- قتلوه . . . قتلوا عدنان المالكي .

فصحت به : متى وأين وكيف ومن ؟ .

أجاب والانفعال ما يزال متشبثاً بملامح وجهه :

- قتله القوميون السوريون في الملعب البلدي !

دهشتي لاغتيال عدنان المالكي ، لم تكن اقل من دهشة وانفعال عبدالقادر عجلاي . فلقد عرفت المالكي عن كثب . فالرجل كان في مطلع الخمسينات يزاحمني على صداقة فتاة اميركانية اسمها فرنسيس سيموبولوس كانت تعمل «سكرتيرة» لـ جيمس موس James Moss سفير الولايات المتحدة لدى دمشق . وكان يحضر بقامته الطويلة ولباسه العسكري الانيق لزيارتها ، فيلقاني جالسا مرتاحاً ، محاطاً بآخرين من أصدقائها ، أخص بالذكر منهم الديبلوماسي السابق نهاد ابراهيم باشا ، والراحل رياض ابو السعود ، والمحامي زهير الشطي ورجل الاعمال أنطون مشاقة وغيرهم من الذين كانوا يجتمعون في اكثر أمسيات الاسبوع للانطلاق من دارتها في بناية صالح الشامي في شارع الجاحظ المقابل لمنزل السفير الاميركاني بمنطقة ابو رمانة ، الى واحدة من علب الليل في فنادق العاصمة الكبرى حيث كان للشباب الدمشقي ، في ذاك الزمان ، حرية مصادقة من يشاء من أفراد الجاليات الاجنبية القاطنة في العاصمة السورية ، من دون ان يتعرضوا لأسئلة أجهزة الأمن ، التي راحت بعد «عسكرة» النظام ترقب مثل هذه «الصداقات» وترمي عليها وحوها الشكوك وتعرض أصحابها الى ألف . . . ألف علامة استفهام .

ليس لمن يعرفه ان يتعجب مما بدا منه . فعندنا المالكى كان طمحا مولعاً بالسلطة . وهو لم يمض عليه كثير وقت حتى أصبح رئيساً للشعبة الثالثة في الجيش . وفي تلك الحقبة كان يمثل في الجيش السوري النخبة العسكرية الدمشقية التي تحاول ان تجد لها مقاما في السياسة السورية ، بعدما أطاحت الانقلابات المتعاقبة بالحياة التشريعية والتنفيذية والقضائية في البلاد ، بدءاً من انقلاب «الزعيم» حسني الزعيم يوم ١٩٤٩/٣/٣٠ بتخطيط من الاستخبارات المركزية الاميركانية C.I.A ، تلاه آخر بتخطيط من الاستخبارات البريطانية ، التي دفعت الى واجهة الاحداث باللواء سامي الحناوي ومعه زمرة من الضباط الذين تمكنوا من انتزاع المبادرة من أيدي ضباط قوميين اجتماعيين ومستقلين ، الذين كانوا قد نجحوا في القضاء على نظام حسني الزعيم ، فأعدموه مع رئيس وزرائه محسن البرازي في آن .

لما خططت الاستخبارات البريطانية للانقلاب على حسني الزعيم ، نجحت في الجمع بين اللواء سامي الحناوي ورشدي الكيخيا الزعيم التاريخي لـ «حزب الشعب» ، الذي كان يدعو بالسر والعلن الى احياء الوحدة أو الاتحاد مع العراق ، فلم تكن بريطانية تجد غضاضة في تلك الوحدة ، ذلك ان نفوذ نوري السعيد في العراق كان يوثق العرى بين العائلة الهاشمية والحكومة البريطانية .

ولقد كان دفاع الحناوي والكيخيا عن مطالبتهما بالاتحاد مع العراق [على الرغم من وجود نوري السعيد في مركز القرار] ينحصر في مقولة ان الافراد مهما استمروا حاكمين أو محكومين فهم الى زوال بينما الاوطان والشعوب باقية أبداً !

البعثيون الاشتراكيون اشاحوا بوجوههم عن تلك المقولة . رفضوها . واخذوا يتصدون لها . عاملين بكل ما أوتوا من قدرة على التغلغل داخل صفوف الجيش واشاعة الانقلابية بين العسكر ، لا يقيمون وزناً لحكم «وحدوي» وهم اصلاً من دعاة «الوحدة» ! وصرفوا بعد ذلك الجهد في الندوة البرلمانية لاشاعة ما قدروا عليه وما تمكنوا منه لمعارضة كل ساع الى التوجه الوحدوي مع العراق . فأصبح البعثيون الاشتراكيون ينظرون الى كل مطالب بالوحدة على انه مغموز النسب ، عدو هاتك ، يستحل الحرام ويزري بالحلال . وقد استباحوا جلسات مجلس النواب للتطاول والقذف بتهم العمالة والخيانة على الذين يعارضونهم ، حتى ان اكرم الحوراني ، أحد قادتهم ، [وقد كان سوريا قومياً اجتماعياً لفترة طويلة في

الاربعينات] لم يتوان في خطبة مجلجلة تحت قبة المجلس من نعت كل من تحدث في شأن الوحدة مع العراق بـ «الجاموسية» وفعل «التجسس»! ولقد ساعد على تمدد هذه الظاهرة المعادية للوحدة مع العراق، وعلى اشاعة الفوضى والبلبلة في الحياة السياسية السورية، تمكن عسكر مصر في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ من الاطاحة بالملك فاروق، والقبض على أعنة الحكم بدعم من واشنطن، التي كانت سفارتها في القاهرة على دراية مسبقة بدقائق الانقلاب ورافقته منذ البداية.

ومع وصول جمال عبدالناصر، على رأس «مجلس قيادة الثورة» بعد اجبار اللواء محمد نجيب على التنحي، وجد البعثيون الاشتراكيون ومن معهم من انتهازيين فرصة سانحة للقضاء نهائيا على فكرة الوحدة او الاتحاد مع العراق.

فبعبدالناصر حاول ان يجد لنفسه مواطىء اقدام على الساحة العربية التي كان يجهلها وتجهله. فأخذ يبحث عن يشد أزره فيها. عن «وكلاء» و«حلفاء» وحتى عن «عملاء» يستطيعون ادخاله الى تلك الساحة. فوجد ضالته المنشودة في شريحة واسعة في المجتمع السوري مدنية وعسكرية، كانت تشربت الوعي القومي والوطني منذ ميسلون [١٩٢٠] وقبلها ثورة صالح العلي والدنادشة [١٩١٩] وبعدهما ثورة سلطان الاطرش [١٩٢٥] التي امتد لهيبها الى ضواحي دمشق الشرقية والجنوبية، والى سفوح جبل الشيخ ووادي التيم وحاصبيا وراشيا في البقاع الغربي.

الرجل المجهول الآتي من وادي النيل، أصبح فجأة «القائد العبقري». فقد نجح البعثيون ومن سار مسراهم في الفكر والنهج في تصوير جمال عبدالناصر بأنه «الملم» والقادر على حمل ارث صلاح الدين وفخر الدين ويوسف العظمة... فأثاروا به حماسة السوريين وكرههم للمستعمرين البريطانيين والفرنسيين والمحتلين العبرانيين.

البعثيون الاشتراكيون يعملون على تنظيم صفوفهم وورصها على الساحتين المدنية والعسكرية، فارتضوا المشاركة في اكثر من حكومة ائتلاف وطني مع خصومهم في احزاب اليمين «الشعب»، و«الوطني»، على الرغم من التناقض السياسي والايدولوجي. اما في الشأن العسكري، فقد عملوا بعزم ومن دون كلل ولا وهن للوصول الى قمة القيادة العسكرية، فتمكنوا من ايصال العقيد عدنان المالكي الى رئاسة الشعبة الثالثة في الجيش، فكان الدور الذي طلب منه

هو القيام بتنقلات داخل الجيش واختيار الضباط المناسب للقطاع المناسب! عدنان المالكي، لم يكن - كما عرفته - بعثيا اشتراكيا بالمعنى الحزبي الضيق. المنتمي الى الحزب كان شقيقه رياض، الذي كان، وقتها، يزاول المحاماة، بينما شوكت شقيقهما الاكبر سناً يعمل في التجارة وبيع الادوات الكهربائية وأجهزة الراديو. الاشقاء الثلاثة وشقيقتهم ثروت هم أفراد عائلة دمشقية عريقة عرفها المحيطون بها خصوصاً والدمشقيون عموماً، أسرة بورجوازية، لا علاقة لها بالاشتراكية وباليسارية المتطرفة لا من بعيد ولا من قريب، ولا علاقة لها ايضاً بالمؤامرات والانقلابات العسكرية.

لقد كان عدنان المالكي استثناء. كان «وطنيا» حتى التطرف. انقلب على حسني الزعيم في الاشهر الاربعة في حكمه القصير. فأودعه سجن المزة العسكري، كما أودع الكثيرين غيره من الضباط الذين ثاروا على حكم الفرد وعلى قمع الحريات وتعميم النهج الديكتاتوري... في وقت كان غيرهم من الضباط القادة الذين كانوا يحسبون على الحركة السورية القومية الاجتماعية ممن ظلوا بعيدين عن عيون أجهزة الاستخبارات العسكرية، يتكتلون ثم ينقضون على حكم حسني الزعيم، بعدما غدر بقائدهم الراحل أنطون سعادة فسلمه الى الحكومة اللبنانية التي كان يرأسها رياض الصلح فأعدمته رمياً بالرصاص في ٨ تموز (يوليو) ١٩٤٩ عبر صفقة شاركت فيها المصالح المصرية والاسرائيلية والاميركانية من أجل تمرير اتفاقية البترول لشركة التابلاين وعقد صلح منفرد مع الدولة العبرية...

- ٣ -

كان من طبع عدنان المالكي اقتناص الفرص. وهو حتى في تكتله مع الضباط البعثيين الاشتراكيين، داخل الجيش كان لا يلتفت الا لنفسه دون سواها ولا يتورع عن محاولة الوصول الى السلطة بعزم وثاب. لقد استفاد من الجسور المشحون بالانقلابية الذي تمخض عنه فجر الثلاثين من آذار (مارس) ١٩٤٩، فبدأ يسعى الى ايجاد تجمعات رافضة داخل الجيش، فوجد في تكتل الضباط البعثيين الاشتراكيين ما كان يصبو ويطمح اليه. بيد ان هذا التقرب أثخن من ولعه الى السلطة. فاستغله للوصول الى المناصب العليا واستغلوه في طريقهم للانقضاض على الحكم.

لم يشر مرة واحدة الى هذا التكتل، على انه تكتل لـ «الضباط الاحرار». فهذا الاصطلاح دخل على قاموس السياسة العربية عن طريق مصر واللواء محمد نجيب ومن بعده المقدم جمال عبدالناصر وصحبه.

فلا حسني الزعيم ومن بعده سامي الحناوي واديب الشيشكلي الذي تلاهما، شكلوا في انقلاباتهم المتتابعة وما تفرع عنها من تحركات لألوية الجيش، تكتلات أطلقت على نفسها تسمية «الضباط الاحرار»، ولا حتى شكل هؤلاء ما صار يسمى فيما بعد «مجلس قيادة الثورة»: حسني الزعيم كان حاكما فردا. سامي الحناوي كان قائدا فردا. اديب الشيشكلي كان رأسا فردا، وكل الذي فعله هذا الاخير، ان الزمن افسح له خطأ الانقلاب على الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كان ينتمي اليه، ليؤسس «حزب التحرير العربي» في سعي لاهث منه لاستقطاب دعم «العروبيين» في بلاد الشام وحكومتها المملكة العربية السعودية ومصر.

لعل التاريخ ينصف، وتنصف الموازين معه، عندما يفتح صفحاته لتدون عليها دقائق هذه المرحلة الحاسمة، فتفرد بعض الصفحات للاخطاء التي مارسها اديب شيشكلي ضد الحزب القومي الاجتماعي ومثلها التي مارسها قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي في تعاملها مع «الرفيق» القومي الاجتماعي اديب الشيشكلي الذي أصبح في النصف الاول من خمسينات هذا القرن رئيسا للجمهورية السورية، وأول قومي اجتماعي يعتلي هذا المنصب الخطير منذ تأسيس الحزب في أواسط الثلاثينات حتى يومنا هذا.

واذكر فيما أذكر، حادثة فريدة من نوعها، قد لا تكون «سياسية» وقد لا تكون «اجتماعية» لكنها بالتأكيد «نظامية». ففي يوم من ايام ايار (مايو) ١٩٥٢ كنت في زيارة لـ «الامينة الاولى» الراحلة جوليات المير [قرينة انطون سعادة] والاستاذ جورج عبدالمسيح [الذي كان وقتها رئيسا للحزب السوري القومي الاجتماعي] في منزلها في حي عين الكرش المتفرع عن شارع بغداد، لما دخل علينا أحد مرافقي جورج عبدالمسيح ليحيطه علما بأن «الرئيس اديب الشيشكلي جاء البيت زائرا». فانتفض عبدالمسيح وصرخ في وجه المرافق بصوته الجهوري: «منذ متى يزور القوميون الاجتماعيون رئيسهم من دون إذن مسبق... قل له ان الرئيس في اجتماع مغلق».

فامثل المرافق، وغاب عن انظارنا وسط دهشة «الامينة الاولى» ومن كان

حولها وحواليها . وسمعنا بعد دقائق هدير الدراجات النارية ، وصوت محرك سيارة المرسيدس السوداء المصفحة ، التي حملت رئيس الجمهورية الى دارة رئيس الحزب ، تنطلق الى حيث لا عودة . . .

قد لا تكون تلك الحادثة سبباً رئيساً لقرار حل الاحزاب السياسية الذي اتخذه اديب الشيشكلي فيما بعد ، ولا عاملاً اساساً في تصديه لمرشحي الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذين كانوا خاضوا غمار معركة الانتخابات النيابية ، فاسقطهم بالتزوير ، وما نجح منهم سوى اثنان بالتزكية ، أحدهما النائب الراحل زكي نظام الدين . . . ولكن تلك الحادثة تصلح لتفسير ما فعله خطأ التعامل مع شخصية مركبة معقدة مثل شخصية أديب الشيشكلي (١)

انتشى اديب الشيشكلي بالسلطة . تمسك بها بأظفاره . كان شعوره يزداد التهاباً وطبعه يزيد حدة ، ومن خوفه ان تفلت السلطة من قبضته حكم بالحديد والنار ، اقام نظاماً بوليسياً قوامه بعض عبدة المناصب المرائين ، الذين شكلوا جهاز أمن زاد في عدد اقبية التعذيب والسراديب العفنة المظلمة الموزعة في غير مكان في العاصمة السورية والمدن الكبرى والصغرى فتساوى الجليل مع الحقير في الميزان . نشر الدعر والخوف والقتل . فما تورع عن اعطاء الاوامر للنقيب عبد الحق شحادة [رئيس شرطته العسكرية] بالصعود الى ذرى جبال العلويين ، وعلى مشارف قرية «جوبة برغال» ، تعرض الى القومي الاجتماعي مجيب المرشد [نجل النائب الراحل سلمان المرشد الذي اعدمته الحكومة السورية في الاربعينات بعد محاكمة علنية نسبت اليه فيها تهماً عدة ، منها التعامل مع فرنسة وبعضها ادعاء اللوهمية] ، وطلب اليه ان يهتف ثلاثاً بحياة اديب الشيشكلي فلما تمنع المرشد رافضاً الامتثال ، اطلق النقيب عبد الحق شحادة النار عليه من رشاش كان معه فخرقتيلاً ، هو الذي كان يحاول ان يمد الى الجبل الاخضر تعاليم نهضة ، لو فعلت لغيرت مجرى تاريخه .

على مثل هذا الجو الارهابي الدموي ، طبع اديب الشيشكلي نظامه ، ولون الحياة السياسية في سورية . ولم يكن غريباً بعد ذلك ان يحاصر عسكره جبل حوران ، ويطوق بالنار عاصمته السويداء ، في محاولة لاقتحامها وتطويع سلطان «باشا» الاطرش [وهي التي عصت على الجنرال الفرنسي سراي ، احد أبطال الحرب العالمية الثانية ، عندما حاول القبض على القائد ، الذي كان هزاً من فرنسة في العشرينات بثورة استمرت سنوات ثلاثاً] بعدما اتهمه والالاف من أبناء بني معروف بالعصيان والتمرد على نظامه . الا ان سلطان الاطرش تمكن من الافلات من قبضة العسكر المهاجم والانسحاب الى الاردن ، بعدما تضرجت صخور الجبل الاسمر بدماء

العديد من شباب آل الاطرش وغيرهم من شباب السويداء .
وبلغت الدماء الثنن . . .

فاحتاج القوم . تحالف الحزبيون والمستقلون للانقضاض على حكم اديب الشيشكلي . قامت في حمص وحلب تكتلات عسكرية ومدنية استنفرت مئات الألوف في الشوارع والشكن يهتفون بسقوط «الطاغية» . . .
كان اديب الشيشكلي شبه محاصر في قصر الرئاسة [الذي صار فيما بعد قصر الضيافة] في شارع «ابو رمانة» . التظاهرات كانت تشل مفاصل دمشق وصوت الناس كان هدارا ، لما استقبل نائب القامشلي زكي نظام الدين منتدبا من قبل مجلس النواب .

جلس نائب القامشلي أمام اديب الشيشكلي وأوما مستأذنا القول ، بجرأة عرف بها ، انه حقنا للدماء فان من الاجدر ان يغادر الرئيس العاصمة قبل ان تتحول شوارع دمشق التي كانت تغلي بالمتظاهرين الى ساح حرب يصول فيها الجنود ويجولون ، وتهدر فيها الدبابات وتذك الدور والمنازل .

لو ان عاصفة سقطت عليه ، لما بهت اديب الشيشكلي بهتته لكلام زكي نظام الدين . جحظت عيناه . وقف وقد اصطكت اسنانه .
- أهذا ما يريد الشعب؟

سأل اديب الشيشكلي ، ثم تقلصت شفتاه وجمد الدم في رقبته .
فما كان من زكي نظام الدين ، الا ان ترك مقعده وفتح نافذة الصالون الكبير الذي يطل على الشارع ، ليُسمع «الرئيس» اصوات عشرات الألوف من المتظاهرين الذين كانوا يهتفون مطالبين برحيله .
همد الشيشكلي ، استحوذ عليه صمت حزين . ثم ردد بصوت خافت : فلتكن مشيئة الشعب . . . سأرحل .

و . . . يغادر اديب الشيشكلي دمشق . يصطحب معه النقيب عبدالحق شحادة الى جانب عدد من الضباط ، بينهم الملازم آصف قباني ، مرافقه العسكري الخاص ، الذي كان الشيشكلي يؤثره بمكانة في نفسه ويدير له الاذن التي يسمع بها .
آصف قباني ، كان موضوعا لمقال طويل نشره سعيد فريجة [فقيه الصحافة اللبنانية] في مجلته «الصياد» ، لما بدا له ان نجم اديب الشيشكلي بات الى أفول ، عنوانه : «سيدي الملازم رئيس الجمهورية» . بينما كان عنوان مقال صاحب «الصياد» و«الجبعة» التاريخي في الشيشكلي يوم كان في عز تألقه ومجده وسطوته : «هذا هو الشيشكلي فليحكم الناس» !

كان يجلس الى جانب السائق . لا يحرك رأسه . يجيب اذا ما سئل ، ويصمت اذا لم يسأل . يفتح باب السيارة لمرووسه في الدخول اليها والخروج منها . يؤدي له التحية . ينحني . يحمل حقائبه . ملفاته . ينتظر على باب مكتبه .

لقد أتقن عبدالحميد السراج ذلك كله وأداه بمهارة وحرفة طوال فترة عمله مرافقا لحسني الزعيم . فقد كان المبصر الاعمى والسامع الاصم والمتحدث الابلعم في آن . وربما كان اتقنائه لفن التنصت والطاعة يعود الى كونه ضابط استطلاع واستخبارات ، أوفد الى فرنسة في بعثة للتخصص في هذين المجالين العسكريين . فآثار هناك في صفوف اترابه من الشغب وحالات التمرد ، ما جعل القيادة العسكرية ، وقتها على استدعائه الى دمشق ، فلم يكمل ما انتدب من أجله الى فرنسة .

وكما كان مع حسني الزعيم مرافقا حريصا على ارضاء مرووسه ، كان مع اديب الشيشكلي . وان كان الامر مع هذا الاخير مختلفا . فحسني الزعيم كان يغوى حفلات العظمة والفخامة والالهة ، وعلى زمنه عرف المجتمع الدمشقي لأول مرة رئيسا للجمهورية ، يرقص وزوجته أمام الناس في حفلات «فندق بلودان الكبير» . فيها كان اديب الشيشكلي من هواة الكأس والطاس والسهر حتى مطالع الفجر ، يتقن الفصل بين حياته الخاصة وحياته العامة . في منزله كان أبا محافظا صارما ، وخارجه كان «صاحب كيف» ، على ما يقول العوام .

الذين ما زالوا يذكرون ليالي نادي مطار المزة ، حيث كانت انغام فرقة «نينو باليرمو» ، تتنسل مع الليل ، وتسيل على اجساد الراقصين المترنحين ، لا بد أن يذكرون اطلالة اديب الشيشكلي شبه الليلية عليهم ، والى جانبه مرافق شاب اسمر وسيم ، ومعهما عصام المحاييري وصبحي فرحات وحسن عطار وعبدالله محسن والراحل رجل الاعمال فؤاد غميان ، صاحب المطعم الانيق ، الذي كان يستضيفهم على مائدته ليليا ، فيسهرون حتى يتعب الليل من السهر .

في احدى ليالي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ ، كنت اسهر هناك ومعى بعض الاصدقاء ، أذكر منهم نائب حارم الراحل عادل الكيخيا وعديله نجيب ميسر . لما أشار اليّ الاستاذ عصام المحاييري بالقدوم الى حيث كان يجلسون ليحدثني . فعلت . صافحت الجالسين فردا فردا . وكنت اعرفهم الا ذلك الشاب الاسمر الوسيم ، فقد مددت له يدي ذاكرة اسمي . فرد علي وهو يتسم ابتسامة غريبة هامسا : عبدالحميد السراج .

في تلك الفترة كانت سورية تتأرجح بين شرق وغرب . بين وحدة مع العراق او اتحاد بمظلة بريطانية أو وحدة واتحاد مع مصر بمظلة اميركانية . وفي زمن كان اديب الشيشكلي يحاول أن يثبت لنفسه موقعا راسخا في السلطة عبر بعض رجالات السياسة المحافظين واليساريين ، الى ان استتب له الامر فأخذ يشعر انه قد تمكن من الاستقلال بالمنصب والقرار، فحزب يمينا ويسارا مطيحاً بالاحزاب السياسية فنفي الراحلين ميشال عفلق وصالح الدين البيطار والسياسي الاشتراكي اكرم الحوراني، الى لبنان، حيث لاحقهم بعناصر استخباراته ، فاضطروهم للفرار الى رومة ، وما عادوا الى دمشق الا بعدما غادرها اديب الشيشكلي ، وبعدها تسلم الدكتور مأمون الكزبري منصب رئاسة الجمهورية لبضعة ايام في حين امسك اللواء شوكت شقير بقيادة الجيش ردحا من الزمن .

عدنان المالكي وعبد الحميد السراج ، كانا يرقبان الاحداث : كل من موقعه ، بعيون نسر يتحين الفرصة للانقضاض على طريدته .

وفي حين كان المالكي يطمح الى تسلم السلطة عبر العلاقة الحميمة التي كانت تربطه بالبعثيين الاشتراكيين ، كان السراج يخطط لاقامة نظام بوليسي ، بعدما امضى فترة طويلة يتأمل في حلول ما كان يسميه «مشكلات الجمهورية» خصوصا الاجتماعية منها ، نتيجة لنشأته في بيئة محافظة ومعدمة في مدينة حماه ، وشعوره بالحق الذي لازمه وما يزال على كل ثري او من أصبح ثريا .

في يوم لاهب من ايام آب (اغسطس) عام ١٩٦١ ، بعد عودتنا من تشييع جثمان شقيقه البكر، وقف السراج معي على شرفة «فندق ابي الفداء» في مدينة حماه . ثالثا كان الراحل توفيق الحبوباتي ، صاحب «نادي الشرق» المشهور . عبد الحميد السراج وجه كلامه الى الحبوباتي وهو يشير باصبعه الى عدد من الاولاد يسبحون في مياه نهر العاصي الموحلة بقرب ناعورة المياه التاريخية :

.. تأمل يا أبا محمد كم حظ هؤلاء الاطفال كبيرا؟

جال توفيق الحبوباتي بنظره في وجه السراج ، واقترب ثغره عن ابتسامة معروفة عنه في أوساط الدمشقيين وقال هادئا :

ولو يا أبا فراس أتخسد هؤلاء الاولاد على المياه العكرة الموحلة المليئة بالجراثيم

قطب السراج وقال : كان ممنوعا علي عندما كنت في سنهم ان افعل مثلهم ، لأن اولاد البرازي والعظم والكيلاني والشيشكلي وبقية عائلات هذه المدينة الاقطاعية ، كانوا يمنعون عنا حتى السباحة في هذه المياه العكرة ، وان خالفنا وعصينا كانوا

يطلقون النار علينا او في أقله رجمونا بالحجارة .

للحظات وانا استمع لما يقوله ، مر أمامي شريط السنوات الست من حياة الرجل ، وبدأت تزول امام عيني ، علامات الاستفهام الكثيرة التي راودتني طوال فترة تسلطه و سطوته على البلاد والعباد ، والتي لا تفسير لها سوى الحقد الاجتماعي والمادي الذي غلف كل تصرفات عبدالحميد السراج وافعاله منذ صعوده الى موقع المسؤولية في نيسان (ابريل) ١٩٥٥ حتى أفول نجمه عن المسرح السوري في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ .

★ ★ ★

الذين عرفوا عدنان المالكي لا ينكرون عليه نظرتة الثابتة والمعمقة في الامور . فهو عسكري ميسر ، معتد بـ «القومية» العربية . مثقف ، يتقن الفرنسية بطلاقة وتعلم الانكليزية على كبر .

ولا ريب في ان عدنان المالكي ، الذي كان ضابط ركن ، يتحلى بخصائل القادة . جرىء . مقدم . لا تعوزه الحجة في الاقناع ولا ينقصه المنطق في طرح القضايا . جارى اترابه في حلم القومية العربية الرومانسي ، وعرف كيف يستفيد من المؤسسة العسكرية ، التي كانت القوة المادية الوحيدة المؤثرة في السياسة السورية . فالاحزاب والتنظيمات الشعبية لم تكن تملك ادوات التغيير في البلاد ، واقصى ما كانت تستطيعه هو تنظيم تظاهرات وتوقيع عرائض احتجاج ، واضعف الايمان اصدار صحيفة تنادي بسقوط مسؤول او بحياة آخر .

منذ البداية ، عرف عدنان المالكي ان الجيش وحده هو القوة الضاربة القادرة على اعلان حال الطوارئ والاحكام العرفية وفتح المعتقلات والسجون ، وتشكيل المحاكم الاستثنائية لاسباب امنية اذا افتقدتها قيادته ابتكرتها .

كما عرف أن الجيش كان وما يزال ، وحده القادر على التجسس والاستخبار ، لا عن اعداء الامة والوطن بل عن المواطنين الذين وقفوا على مدى ربع قرن بين هزيمة ميسلون وفرحة الجلاء يقارعون فرنسة بالحجارة اذا اعوزهم السلاح ، وبالصدور العارية اذا افتقدوا الدروع ، فما ان جاء الجيش ليحمي الارض والشعب ، حتى استنفره حسني الزعيم ضد مواطنيه ، وأمره ان يدير مدافعه باتجاه دمشق بعدما سحبها من الجبهة الغربية على أرض الجولان .

لم يكن عدنان المالكي يسكت على ضيم . ولما استفحل الامر ولم يعد يطاق في خواتيم عهد اديب الشيشكلي انتفض المالكي عليه . فسرّح من الجيش . ولما خلع «الديكتاتور» ورحل عاد المالكي اليه . بوعي آخر وبنضوج سياسي جعله يحالف

الحيايين والاشتراكيين والشيوعيين في الندوة البرلمانية وفي الشارع .
كان معارضا لكل نفوذ غربي [اميركاني . فرنسي . بريطاني] في الشرق القديم .
وفي الوقت نفسه معارضا جريئا ومغاندا للوحدة او الاتحاد مع العراق . ولقد اتكأ في
معارضته تلك على رفضه حلف بغداد . فجارى في ذلك رأي غيره من العسكريين
والساسة الذين لم يفهموا ، وقتها ، الفارق بين سياسة الافراد وسياسة الاوطان .
فنوري السعيد زائل اما الوحدة فهي الباقية وحدها . . .

وقد أدت به معارضته الحادة لفكرة الوحدة مع العراق الى أن ألقى بثقله
العسكري في الانتخابات النيابية عام ١٩٥٤ الى جانب ثلاثي يميني اشتراكي
أركانه خالد العظم ، صبري العسلي ، واکرم الحورني ، لاسقاط حكومة الراحل
فارس الخوري ، التي كانت تتبنى دعوة الاتحاد مع العراق . حتى انه في تلك الايام
قيل ان عدنان المالكي كان يستعد للقيام بانقلاب عسكري على فارس الخوري لو
لم يقدم هذا الاخير استقالته ، يسانده في خطته «حزب البعث العربي الاشتراكي»
بجناحيه المدني والعسكري !

وبعدما تخلص من فارس الخوري وهمدت أصوات دعاة الوحدة مع العراق ، بدأ
المالكي يضغط في اتجاه توقيع اتفاقية دفاع مشترك مع مصر . فتم ذلك في شهر آذار
(مارس) ١٩٥٥ أي قبل مصرعه . بحوالى الشهر .

عبد الحميد السراج ، كان من طينة ومعدن مختلفين .
لم يؤمن يوما بأن للشعب عليه حقوقاً ، وان للمواطنين كرامة . بنى لنفسه
«سلطنة» تعمل على مدار الساعة لكتم أنفاس الناس ورصد حركاتهم وتلفيق التهم
بحقهم واعتقالهم ورميهم في سرايب التعذيب رهن «التحقيق» الذي كان ينتهي
أحيانا بموت «المتهم» تحت سياط الجلادين . فان اعوزته المؤامرات والدسائس ،
ابتكر وباع واشترى بلا كلل ولا ملل ولا رحمة ، وان تعب من سورية نقل مؤامراته
ودسائسه الى لبنان والعراق والاردن ، كما سيمر معنا . . .

ولقد كان عبد الحميد السراج يعرف موقع عدنان المالكي واهميته في استقطاب
اعداد كبيرة من القطع والألوية والقيادات العسكرية . وكان يعرف جيدا القاعدة
المدنية التي كان المالكي يتكئ عليها ويستغلها للوصول الى السلطة . فوجد ان
خياره الوحيد لتحقيق مآربه وما يطمح اليه هو الاعتماد على جهاز الاستخبارات
الذي وضعته الظروف على رأسه ، بعدما دفع به بعض النافذين المتنفذين المتمرسين
من خلف وهج الانقلاب المصري [١٩٥٢] حيث انتدب لتوطيد دعايته ووجوده في
دمشق ، الضابط محمود رياض الذي صار سفيرا لدى دمشق [ووزيرا للخارجية

وأمننا لجامعة الدول العربية في زمنها الرديء] معززا بعبد المحسن ابو النور ملحقه العسكري .

لم يكن القادة البعثيون الاشتراكيون ، يرغبون في ان تنغمس بنادق العسكر في السياسة . فهم قد لاقوا الامرين منهم : حسني الزعيم اعتقلهم . سامي الحناوي عزلهم واديب الشيشكلي شردهم .

مرارا وقف اكرم الحوراني في وجه الضباط البعثيين ولم يشجع اي ضابط منهم على القيام بحركة عسكرية خوفاً من ان يتحول هؤلاء الضباط الى قوة سياسية تضع القيادات المدنية في الحزب في قبضتها . . . بيد ان البعثيين هؤلاء ، وجدوا ان لا مناص من التعاون مع العسكر لتثبيت مواقع اقدام لهم على صعيد القرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، وقد وجدوا في عدنان المالكي ضالتهم المنشودة . فقد نجح شقيقه المحامي رياض المالكي ، «بتسويقه» لقادة الحزب على انه «الرجل القادر على كل اصلاح» .

لهذا كان اغتيال عدنان المالكي صدمة كبرى للبعثيين خصوصاً ، ولليساريين عموماً . فقاتله في الملعب البلدي سوري قومي اجتماعي وفكره كان آنذاك طرحاً مخالفاً لهدير الجناهير . عبد الحميد السراج من موقعه كرئيس للاستخبارات [المكتب الثاني] وجد في الدم المراق على مدرجات الملعب البلدي فرصته الذهبية للانقضاض على السلطة . . . ففعل .

(أ) يتساءل عايد خطار في كتاب: قراءة في تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي صفحة ٦٨ [الطبعة الاولى آذار (مارس) ١٩٨٩] عما اذا كان اديب شيشكلي اقام نظاماً قومياً اجتماعياً ويحبب بالطبع لا . ثم يتساءل ولكن لماذا؟
لان القيادة الحزبية آنذاك توقفت امام شكليات نظامية ، كانت في الحقيقة ، تعبيرا عن عجز فاضح في الاستفادة من الموقع والحادث : فلم . تقدم برنامجاً ولا جهازاً للحكم ، بل أرادت التعاطي في أدنى مستوى كقتل مدرس او توظيف موظف ، ثم عندما انقلب شيشكلي الى طاغية فردي اكتفت بـ «المعارضة الايجابية البناءة» فلا هي حكمت ولا هي عارضت . ا



عبد الحميد السراج
في شبابه

الفصل الأول

حارس "بحسيتا"



- ١ -

لم يكن عبد الحميد السراج من «الحرس القديم» في الجيش السوري . لم يعاصر «جيش الشرق» Troupes Du Levant الذي أنشأته فرنسا في دولتي لبنان وسورية ، بعد نزول بحارتها في بيروت [حزيران (يونيو) ١٩٢٠] واجتياحهم دمشق في تموز (يوليو) ، بعد معركة «ميسلون» ، التي قوضت عرش الملك فيصل الاول ، كما الاستقلال ، كما الوحدة والحرية .

ولا هو كان من الضباط القدامى ، الذين تخرجوا من الكلية العسكرية في حمص بين ١٩٢٠ و ١٩٤٥ ، في مستوى اللواء عبدالله عطفة واللواء توفيق نظام الدين واللواء سامي الحناوي ، ولا حتى العقيد امير شلاش او «الزعيم» حسني الزعيم او العقيد اديب الشيشكلي . . . فهؤلاء وغيرهم ، تدرجوا في الرتبة والراتب من المعهد الثانوي الى التخرج من الكلية العسكرية ، فتشربوا تقاليد عسكرية «فرنسية» صارمة ، علمتهم ان مهمة الجندي هي الدفاع عن حياض الوطن ، ومساعدة الشعب في التضدي للغزاة والمعتدين ، وليست الجندي الاستهانة بكرامات الناس ، وحبك الدسائس والمؤامرات وتحويل الشكن الى معتقلات تعذيب وقتل .

وعندما كان اولئك الضباط [وغيرهم من الذين أصبحوا من أرباب العزم في الجيش والدولة] يحملون رتبا عالية كان عبد الحميد السراج في مدينة حلب دركيا بسيطا يحرس سوقها العمومية .

★ ★ ★

على مدخل «بحسيتا» ، سوق مدينة حلب العمومية ، خلف «باب الفرج» كوخ خشبي يستعير العوام لوصفه الكلمة التركية «كولبه» ويستجير منه المتسللون خلسة الى مضاجع بنات الهوى ، وهم دون سن الرشد . وكثيراً ما كان هؤلاء يغافلون الدركي القابع في الكوخ يحصي الداخلين والخارجين ، . يسألهم عن تذكرة الهوية ، ثم يمر بيديه على ملابسهم بحثاً عن المخدرات أو السلاح ، فيندسون عنوة ، ومتى

أصبح واحدهم في أحد البيوت العتيقة المرصوفة على جانبي الشارع، أيقن أنه أصبح في حمة سيدة البيت وفي أمان من الدركي المتربص بعيونه المسنونة بالمارة. على الرغم من حدة قسّات وجهه، كان الخفر يتمسك بها. وخلف الجسد القوي الممتلئ، الذي كان يشي بأن صاحبه من هواة الرياضة، يختبئ رجل خجول، بالكاد يسمع صوته الذين كان يعترضهم سائلا عن تذكرة الهوية أو عنها في جيوبهم. ففي نبراته الهادئة حتى الهمس بالكلام، خفر ووداعة وضعة في آن معاً. ولم يدخل في روع الذين كانوا يترددون على «بحسيتا» من لبنانيين وسوريين أن الدركي عبدالحميد السراج، حارس السوق، سيحكم ويتحكم. وأنه كان ذئباً أو نعجة استأذبت.

كان يكفي الداخل الى سلك الدرك [شرطة الريف] ان يعرف القراءة ويتقن الكتابة. أما معرفة القوانين العامة وكتابة المحاضر فقد كان الدركي يحصل عليها عبر التدرج في الخدمة.

وفي حين كان سلك الدرك لكثيرين «مهنة» تقيهم البطالة والفاقة والعوز، كان بالنسبة الى عبدالحميد السراج، الآتي من محيط معدم، محطة لم يجعل طموحه يقف عندها. فانكب على متابعة تحصيله العلمي، فكان يصرف الوقت في كوخ «بحسيتا» في التحضير لامتحانات «البكالوريا» [الشهادة الثانوية]، يحدوه أمل الالتساب الى الكلية العسكرية... فدخلها عام ١٩٤٧.

كان الحس الوطني، عامذاك، ينتشر بين طلبة الكلية العسكرية مع قيام «جيش الانقاذ» بقيادة طه «باشا» الهاشمي في دمشق وفوزي القاوقجي في سهول ومسالك فلسطين، يقاتل عصابات «الهاغانا» و«الارغون» و«شتيرن». فدبت الحمية والنخوة في الشباب ومن يقدر على حمل السلاح للالتحاق بفصائل المتطوعين، التي كانت تتدفق من العراق والشام ولبنان والاردن وبعض البلدان العربية الأخرى... في حماة، تقدم عبدالحميد السراج بطلب الانضمام الى مقاتلي «جيش الانقاذ»، الا ان قادة فرق المتطوعين الحمويين، ومنهم اديب الشيشكلي واکرم الحوراني، رفضوا طلب السراج، بدعوى انه لم يكن يملك الخبرة العسكرية الكافية في قتال الغوار، ولم يقنع الشيشكلي خلال حديثها انه من عينة العسكريين الاكفاء الذين يقتحمون المعامع بشموخ واستبسال.

لقد كان رفض قادة حماه له، صدمة تركت أثراً بليغاً في حياة السراج. فخرج من لدهم كئيباً، وفي أعماقه يغلي حقد مخص. وقوي عنده وازع الطبقية في نفسه، فعقد العزم ساعتها على «الانتقام». فلقد اعتبر ان تصنيفه من أبناء عائلات حماه الدنيا،

هو الذي أبعده عن الانضمام الى صفوف المتطوعين للقتال في فلسطين . . .
ففي ساعة صفاء في شهر تموز (يوليو) ١٩٦١ وعلى شرفة منزله الصيفي في بلد
وقف السراج بقمبازه الحموي ، تنهد بعمق وقال لي :
«لقد حرموني حتى من حق القتال في فلسطين . . . أتعرف لماذا؟» .
رمقني بنظرة تجمع فيها كل حقد الدنيا ، وقبل أن أحرك لساني في فمي باء
منفعلا ، كما لم أره من قبل :
«لأنني لم أكن ابن عائلة وحسب ونسب يعود الى عائلات البرازي أو العظ
الكيلافي والشيشكلي ومرهيج» .

- ٢ -

كان من موقعه ، يرصد تقرب البعثيين الاشتراكيين والشيوعيين من عدد
المالكي . وقد تيقن عبد الحميد السراج بدهاء عرف فيه ، أن هؤلاء يجعلون رثي
الشعبة الثالثة في الجيش مطية لهم للانقضاض على السلطة . فلم يكن غريبا
كرهم وفرهم ودسائسهم وخططهم ومؤامرتهم .
ولكن الرصاصات التي أطلقها يونس عبدالرحيم في ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٥٥
لم تقتل عدنان المالكي وحسب ، بل قتلت حريات المواطنين وديموقراطية
النسبية ، التي كانوا يتمتعون بها منذ رحيل فرنسة عن بلاد الشام عام ١٩٤٥
ذلك اليوم الذي سقط فيه الضابط الكبير صريعا . . .
وكان مدبرا دبر ، فلم تمض نصف ساعة على الجريمة في الملعب البلدي ، ح
كان «التعميم» على عناصر المكتب الثاني [الاستخبارات] ان تمضي لاعتقال
تشاء من السوريين القوميين الاجتماعيين ، وسوقهم مخفورين الى مركز الشر
العسكرية في منطقة «البرامكة» المقابل لجامعة دمشق ، قبل نقلهم جماعات ووحيد
الى سجن «المزة» العسكري . فيما سارع البعثيون الاشتراكيون والشيوعيون و
ساندهم وتكافل معهم من رجالات الشارع الدمشقي ، الى الهجوم على مرا
القوميين الاجتماعيين في احياء دمشق وتحطيمها . كذلك لم تنقض ساعة على مق
المالكي حتى احرقت مطابع «الجيل الجديد» ، وهي كانت للحزب ، في حي سو
ساروجة الشعبي ، وأعقب ذلك اذاعة خبر التهمة الموجهة الى القوميين الاجتماعيين
قبل أي تحقيق قضائي أو قانوني .

هذا الخروج المفضوح على القانون ، كشف النوايا المبيتة والاصابع التي كان
تخطط في العتمة لقلب الاوضاع في الشام . فلم تعرف البلاد من قبل مثل تد

التصرفات والخروقات والتطاول على القانون . فعندما اغتيل الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، في اربعينات هذا القرن، في عيادته في شارع «الشعلان»، انتظر القاضي الفرنسي ومعاونيه النائب العام السوري، اكثر من أربعة ايام، قبل ادانة أحمد عصاصة واعوانه بجريمة القتل وقبل اطلاق حملات التشكيك التي حامت فوق رؤوس جميل مردم بك وشكري القوتلي ولطفي الحفار وغيرهم . . . من رجالات «الكتلة الوطنية» ، الذين فروا الى بغداد خوفا من الملاحقات فيما بقيت مكاتبهم وممتلكاتهم ومنازلهم وعائلاتهم بمنأى عن ردود الفعل «الشعبية» و«الرسمية» ، فما دوهمت ولا أحرقت ولا تم اعتقال من يكن الى هؤلاء بصلة القربى أو التبعية .

في ذلك اليوم، سقطت الشام في التجربة . غير عبدالحميد السراج ملامح حياتها السياسية والاجتماعية . انتهت مرحلة العمل بالدستور والقانون والنظام، وبدأت مرحلة العمل بقانون الطوارئ وبالأحكام العرفية، الذي كان أصدره الرئيس هاشم الاتاسي بضغط من عبدالحميد السراج، وقد وجد فيه الرئيس وقتها أهون الشرين .

كان الرئيس هاشم الاتاسي، على عتبة الثمانين . جليلاً، مقتدراً، خبير السياسة واختبرته، عاركها وعاركته طوال سنوات في المسؤوليات التي تقلب عليها وصولاً الى رئاسة الدولة . كان يرقب التطورات المتسارعة بقلق المسؤول، لا يقوى حيالها وقد أفلت الامر أو كاد من يديه . دخل عليه عبدالحميد السراج في مكتبه في قصر المهاجرين، محاطاً بمجموعة من الضباط البعثيين والشيوعيين بينهم مصطفى حمدون، عبدالغني قنوت، برهان قصاب حسن، محمد زلقو، عفيف البزري، جادو عزالدين واحمد الحنيدي . . . فجعلوا من قميص عدنان المالكي المنخورة بالرصاص، قميص عثمان ليحكموا سيطرتهم على البلاد، وأخذوا يطالبون الاتاسي بتعليق الدستور واعلان الاحكام العرفية وأنشاء مجلس عدلي يحاكم المتهمين بقتل عدنان المالكي . وظنوا أنهم بذلك يستقرون على الرجل المسن، فزينوا له أنهم يمثلون نفرا مهما في الجيش، وانهم يحملون اليه ما يجيش ويعتمر في صفوف العسكر في البلاد.

فرد الرئيس هاشم الاتاسي عليهم بنبرة الواثق المتيقن :
«كيف لي أن أعلن ما جئتم تطلبونه مني وليس هناك من داع لذلك . . . فأي محكمة عادية في قصر العدل، يمكنها ان تحكم على القاتل اذا ما جرمته بعقوبة

السجن المؤبد او الاعدام شنقا!

فاستشاط الاتاسي غضبا وانعددت على وجهه حبات العرق وصاح بالسراج :
«إغرب عن وجهي . . . الله يغضب عليك يا ابن السراج».

من بين الجمع طلع صوت عبد الحميد السراج مهدداً:
«ان كنت يا فخامة الرئيس لا تعلن الاحكام العرفية فلن أستطيع ضمان حياة
المعتقلين».

- ٣ -

خرج عبد الحميد السراج من قصر المهاجرين حائقا، مهانا، ليزرع الجمهورية
السورية عنفا وارهابا. فبين جبال طوروس، في شمال سورية، ونحفر الرمثة، على
الحدود الاردنية، ومن موقع الجديدة في الغرب، الى موقع ابو الشامات، في أقصى
الشرق، بث الجواسيس والعناصر التي كانت تترصد الطرقات. توقف. تفتش.
تعتقل. . وتسوق قوافل القوميين الاجتماعيين [او من اشتبه انه ينتمي اليهم] الى
المعتقلات والسجون. دهم رجاله البيوت. استباحوا المحرمات. نكلوا. نهبوا.
نشروا الرعب. حتى ان دمشق التي كانت، حتى ذاك التاريخ، تسهر في الليل
وتغازل القمر، باتت تتقي شر عبد الحميد السراج وتنام باكرا. وفي العشايا تعقد
حلقات السمر في المنازل، والحديث يطول، تروى فيه حكايا المداهمات
والاعتقالات التي حصدت عشرات الالوف، وما قام به رجال السراج من أصناف
تعذيب المعتقلين.

كان عبد الحميد السراج في هاتيك الايام، عازبا، يسكن شقة صغيرة في احدى
زوارب منطقة عين الكرش، المتفرعة عن شارع «٢٩ أيار». كان يراه الناس كل
يوم، لا بل كل ساعة في جيئة ورواح، في سيارات مختلفة. فهو كان يبدل سياراته
ليس غواية بالسيارات، انما زيادة في الحيلة والتمويه والتضليل، ليقينه بأن الذين
قتلوا عدنان المالكي قادرون على قتله. فكان يوماً يستعمل على سياراته لوحة حمراء
[وهي للسيارات العمومية] ومرة لوحة سوداء [وهي للسيارات الخصوصية] وثالثة
لوحة خاصة بالجيش ورابعة بالسلك الدبلوماسي. مدخلا على نظام الامن الذي
كان يرأسه اساليب لم يعهدها من قبل حتى على زمن الفرنسيين.

لقد اخبرني والدي مرة، وهو كان عاصر عقدين في فترة الحكم العثماني، انه لم
يسمع بارهاب حكومي منظم مثل نظام وأسلوب البطش والدس والتضليل الذي
اتبعه السراج.

احدى سيارات السراج ، كانت من طراز «فورد» [التي لم تكن قد وضعت على القائمة السوداء] صاحبها كان نائب القامشلي زكي نظام الدين [شقيق اللواء توفيق نظام الدين الذي صار فيما بعد رئيسا لاركان حرب الجيش السوري] كان قد تركها هدية لجورج عبدالمسيح [رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي] قبل ان يغادر دمشق في مطلع عام ١٩٥٥ في رحلة الى اميركة اللاتينية طاف خلالها على غير دولة ودولة خصوصا البرازيل والارجنتين حيث للحزب هناك وجود ضخم وفاعل .

في حومة الاعتقالات والمطاردات والمداهمات بحثا عن «قتلة» المالكى ، الذين حوكموا قبل ان يحاكموا وادينوا قبل ان يدانوا ، دهم رجال السراج بيت جوليات المير [أرملة انطون سعاده مؤسس وزعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي] بحثا عن جورج عبدالمسيح [وكانت جوليات المير قد اعتقلت يوم مصرع المالكى تاركة خلفها ثلاث بنات اكبرهن كانت في العاشرة] فلم يعثروا عليه ، انما عثروا على مفاتيح سيارة الـ «فورد» مرمية على طاولة في المنزل . فأخذها سامي جمعة [ابو سمير] الذي كان يرأس مفرزة الاعتقالات مع مجموعة من العناصر بينهم الراحل وجيه الانطكلي ، [الذي ساعد الى قصته فيما بعد عندما سأروي عن مسؤوليته في تعذيب وقتل المناضل الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو وتذويبه بالاسيد وانكار الرئيس عبدالناصر للأمر في خطاب ألقاه في ميدان التحرير في القاهرة عندما قامت القيامة بينه وبين نيكيثا خروتشوف بسبب مقتل الحلو] ، فسلم سامي جمعة مفاتيح السيارة الى رئيسه النقيب عبدالحמיד السراج ، فأمر بتغيير لونها فأصبحت بلونين برتقالي غامق وفتح وأخذ يتجول بها بين الحين والآخر . . .

في هذه الاثناء لازمت مسكني وعلمي في «بنك القاهرة» الذي افتتح للمرة الاولى فرعاً له في ساحة يوسف العظمة في منطقة الحريقة . مدير البنك كان المصرفي الفلسطيني عدنان مراد . مساعده كان المرحوم نزار الصباغ ، [نجل العقيد العراقي صلاح الدين الصباغ ، الذي كان ساند حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية ضد حكم نوري السعيد ، فلما فشلت وفشل تسلل عبر ثلوج شمالي العراق الى الجزيرة الشامية ، ومنها الى حلب ، حيث اعتقلته السلطات الفرنسية وسلمته الى البريطانيين في بغداد ، فسلموه الى وصي العرش العراقي عبدالاله ورئيس وزرائه نوري السعيد ، اللذان أعدماه بتهمة التمرد والخيانة العظمى في ساحة الرشيد في بغداد على مرأى من زوجه وولديه] . . . وبين ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ و ٢٥ تموز (يوليو) كانت دمشق وكل دسكرة سورية ، ترتعد كلما قيل لمواطنيها ان «مفرزة ابو سمير»

[سامي جمعة] اقتربت من الدار أو المكتب أو . . . المؤسسة . وأنا كنت من هؤلاء المواطنين . عن خوف أو حيطة ، ذلك لأنني كنت أخشى «المجهول» ، هذا الذي كان يحمله معهم زوار الفجر ، كما كانت تحمله الصحف اللبنانية والعربية وهي تنشر على أعمدها تفاصيل موجة الرعب التي اشاعها عبد الحميد السراج في البلاد . لقد نشر وقيل الكثير عن تلك الفترة الدامية . وربما كان أروع ما نشر ، تلك الاستغاثة التي أطلقها فارس الخوري ، رئيس مجلس النواب السوري ورئيس الحكومة ورئيس مجلس الأمن الدولي ، وهو يصرح لجريدة «صدي لبنان» البيروتية قائلاً :

«استغيث بالعالم من الخطر الأحمر الذي يفتك بسورية» .

فهل كان عبد الحميد السراج شيوعياً ؟

لا . . . لم يكن السراج شيوعياً . لم يكن بعثياً اشتراكياً ولا «قومياً» عربياً . عبد الحميد السراج كان نسيج نفسه . مثل كل المتسلطين ، كان همه السلطة والسلطان .

كذلك لم يخطيء سعيد تقي الدين ، برد الله ثراه ، لما أطلق عليه تسمية : «السلطان الأحمر» .

- ٤ -

طلع الصوت من سماعه الهاتف خشناً :

«الاستاذ عصام [المحاييري] . . . نريد زيارتك لنسألك بعض الاسئلة . . . لقد قتل عدنان المالكي والقاتل أحد اعضاء حزبك !»

بهدهء عُرف به ، وضع عصام المحاييري سماعة الهاتف ، توجس ريبة ، فلم تكن قد مرت ساعة على مقتل المالكي . همد لحظات . تغلب على الظنون بابتسامة مررها على شفثيه ورمائها على وجه أمه يزيل عنه القلق والخوف .

بيته كان في ساحة النجمة . يعرفه الدمشقيون جيداً ، فالرجل كان نائباً سابقاً ، ما رَدَّ باباه في وجه سائل ، ومحامياً ما وهن في الدفاع عن المظلومين ، وصحافياً في قلمه حزة السكين دفاعاً عن الحق والحقيقة .

ما رُوي يوم في ساحة النجمة كان الجند فيه بحركة مثل ذلك اليوم . سبعون جندياً طوقوا المنزل ، يتقدمهم النقيب أكرم ديربي ، الذي كان مساعداً للمقدم ميشال خوري [الضابط القومي الاجتماعي] في الشرطة العسكرية ، أربع سيارات مدججة بالسلاح قطعت كل الطرق المؤدية الى المكان .

علا الدق على باب المنزل.

وما كاد اكرم الديري يدخل ، حتى بادر عصام المحايري ، الذي وقفت الى جانبه والدته وشقيقته سهام :

«أتعرف ان عدنان المالكى قد قتل؟»

فرد عليه المحايري بهدوء أيضاً :

«سمعت الخبر من الاذاعة» . . .

«أنت يا أستاذ مطلوب للتحقيق» .

قال كلامه هذا وأوماً الى أحد الجند ان يسحب عصاما من ذراعه . . . لم يعاند ،

انما نظر الى النقيب الديري وقال بهدوء :

«حضرة النقيب . . . هل معك مذكرة جلب» .

رمى الديري على وجه عصام المحايري نظرة ازدراء وقال بحقنق :

«لست بحاجة الى مذكرات جلب» . . .

ثم وضع اصبعه على النجوم فوق كتفه وتابع :

«أنا في هذه الجريمة القانون» . . .

واشار الى الجندي ، فشد عصام المحايري من ذراعه وخرج به .

كان الديري ، لما وضع اصبعه على النجوم التي تزين كتفه ، يرسم لسورية في تلك الدقائق الحاسمة ، مستقبلاً مجهولاً لا علاقة له بالقانون والنظام . فلما صمم عبدالحميد السراج على انتهاج الطغيان والانتقام سبيلاً للسلطة ، أحاط نفسه بالاتباع الصاغرين وبالأذئاب المتزلفين وعبداء المناصب والمتفعين من اشتراكيين وشيوعيين ورجال عصابات ، فشكل منهم «مافيا» دموية ، حكمت وتحكمت في الشام على مدى سنوات ست طويلة .

في زمرة السراج برز محمد الجراح [المشرد هذه الايام في بغداد] والضابط الشيوعي عفيف البزري ، الذي كان في إدارة المساحة العسكرية ، فاذا به لغاية في نفس موسكو والسراج يتحول الى رئيس للمحكمة العسكرية التي حاكمت السوريين القوميين الاجتماعيين في محاولتهم الثورية عام ١٩٥٦ ، ثم بعد ذلك رئيساً للاركان العامة ، قبل ان تنفيه وحدة الشام مع مصر . ولم يكن الشيوعي الآخر عبدالمجيد جمال الدين اقل اندفاعاً في خدمة السلطان الاحمر ، فلقد كان محققاً عسكرياً وجلاداً في آن معاً . . . الى جانبه النقيب الشيوعي برهان قصاب حسن . أما برهان ادهم [ابو ابراهيم] فكان مساعد عبدالحميد السراج ، فقد ترأس المكتب الخاص

الذي كان يتعامل مع الشأن اللبناني . فكان ادهم يضم الى «بلاطه» عناصر لبنانية ، لاحداث الشغب والقتل في بيروت . رجال أعمال وسياسيين ، ونواب ومحامين ، بدءاً من رئيس المجلس النيابي الراحل صبري حمادة مروراً بصائب سلام وانتهاء بشبلي العريان رجل العشيرة المقيم في دير العشائر على الحدود التي رسمها سايكس وبيكو بين الشام ولبنان في المقلب الغربي لهضبة ميسلون .

أما شوقي دقاق ، فما اكتفى بجلد الاحرار وتعذيب المعتقلين . بنزع أظفارهم ولسعهم بالكهرباء ، بل كان يفتك بالنساء ويدنس الحرمات . كان مركزه في شارع الروضة ، على مقربة من بيت رجل الأعمال الثري محمد الميداني ، حين حاول التطاول على الصبية ناديا ابنته ومعاكستها ، حتى ضج والدها من الأمر ، فجاءني شقيقها المهندس فاروق الميداني ، مرة ، راجياً ان أكلم السراج [وكان زمنها عديلي] لعله يكبح جماح الدقاق فيكف عن مطاردة شقيقته ، لكنني على الرغم من الصداقة التي كانت تربطني بعائلة الميداني ، اعتذرت منه بعدما أفهمته ووالده بأنني لم أكن ذلك العديل المقرب من السراج .

لم يؤثر السراج احداً من المتعاونين معه ، بمكانة في نفسه ، مثلما كان يؤثر عبدالوهاب الخطيب ، الذي صار في مصر عبدالناصر والسادات ومبارك ، رجل أعمال يتاجر بألف صنف وصنف . . . فقد قرب السراج منه وأمن جانبه ووثق به طوال فترة تسلطه وحكمه ، حتى قيل ان قتل فرج الله الحلوة ونشره بالمنشار ثم تدويبه بالاسيد ، تم بأوامر صريحة من عبدالوهاب الخطيب لوجيه الانطكلي بعدما أوحى له بها عبدالحميد السراج .

بهجت مسوتي ، كان شيئاً آخر . محام دمشقي . ابن حي الميدان المحافظ . خريج كلية الحقوق في جامعة دمشق . أوكل السراج اليه التعامل مع المعتقلين الدمشقيين ، وعلى رأسهم عصام المحاييري ، لاقتناعهم في البداية بالحسنى المبطنة بالتهديد والوعيد ، فان أعرضوا ورفضوا او انكروا وتمردوا ، كان بهجت مسوتي يأمر ببطحهم ارضاً وجلدهم بالسياط امامه ، أو لسعهم بالكهرباء أو غمرهم بالمياه الثلجة أو اغراقهم في براميل المازوت حتى يلهب جلدهم فينز منه القيح والدم . مروان السباعي ، جلاد آخر من جلادي عبدالحميد السراج في حمص ، ولا أظن ان ذاكرة أسراه أو معتقليه وضحاياه من الرجال والنساء قد نسيت ما اقترفته يده الملتطخة بدمائهم وعرقهم الى رعبهم وخوفهم . . .

هؤلاء وغيرهم [وعددهم يفوق ما يمكن ان تحصيه الذاكرة] كانوا «المافيا» التي اتكأ عليها السراج للتحكم بالسوريين ، وفيما بعد باللبنانيين والاردنيين والعراقيين ،

الى يوم أصبح فيه ، بنظر جمال عبدالناصر يمثل «العناية الالهية» التي ساقها الله للكشف عن «مؤامرة» الملك الراحل سعود بن عبدالعزيز ، للقضاء على «الوحدة» بين الشام ومصر ، قبيل اعلانها بشكل رسمي في ١٩٥٨/٢/٢٢ والابقاء على تفاصيلها سرية حتى وصول جمال عبدالناصر الى دمشق بعد أسبوع واحد من قيام «الوحدة» ، في اول زيارة له لـ «الاقليم الشمالي» الذي كان يجهله تماما ، حيث كشف عنها بشكل استعراضي جماهيري كان الرئيس المصري الراحل يتقنه جيدا ولم ينافسه عليه اي حاكم عربي . . . حتى الآن . ا

- ٥ -

اقتادوه مكبلا الى مركز الشرطة العسكرية في «البرامكة» . في الطريق ، لم يلجأ الى العنف معه . كان الجند في تلك الايام يخشون تجاوز الحدود التي كان يراها الدستور والنظام والقانون العام .

كان المركز يعج بمئات المعتقلين . سيقوا اليه في الشاحنات ، وسيارات الجيب العسكرية . فأدخلوه الى غرفة كلحت جدرانها من الرطوبة .

بقي واقفا ، قبالة النقيب أكرم الديري الذي جلس خلف طاولة خشبية صغيرة ، سلط عليها ضوء لمبة كهربائية يتدلى شريطها الاسود من السقف . ما لبث ان تحلق حوله عدد من الضباط ، انهالوا عليه بالتهديد والوعيد ، بعدها ، تركوه وحيدا في الغرفة لساعات قبل ان يدخل عليه اكرم الديري مرة ثانية واخرجه الى الشاحنة التي اقلته الى سجن «المزة» العسكري .

على مدى اربع ساعات ، تناوبوا على التحقيق معه . لم يسمحوا له بالجلوس ، اول الامر ، فبقي واقفا ، والذين حققوا معه كانوا ضباط قانون وقضاة تحقيق ، لكنهم كانوا - ايضا - عسكريين برتب مختلفة ، حقنوا بروح البغضاء والكراهية لكل من اعتنق الفكر القومي الاجتماعي اعتبروه عدوا لـ «القومية العربية» ، فيما كان انطون سعادة - واضعه - يدعو الى العروبة الواقعية التي ترى العالم العربي كما هو بيئات ومجتمعات متعددة ، ولكنها تؤمن بأن ما بين هذه البيئات والمجتمعات المتهايزة روابط ومصالح تحتم عليها انشاء جبهة عربية واحدة . أوليس سعادة القائل :

«متى كانت المسألة مسألة مكانة العالم العربي تجاه غيره من العوالم ، فنحن هم

العرب قبل غيرنا، نحن صدر العرب ونحن سيفهم ونحن ترسمهم، ونحن حماة الضاد ومصدر الاشعاع الفكري في العالم العربي».

عصام المحاييري، وهو هذه الأيام رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، [قيادة الطوارئ] ما زال صامتا عن هذه المرحلة، ولا أعتقد انها غابت عن باله وأفكاره ثانية واحدة ولا اعتقد انه نسيها وهو كان من أبرز ضحاياها. أغلب الظن أنه أبقاها في الذكريات والمذكرات لكبر في نفسه ورفضه أن ينشر غسيل الوطن على أسماع الدنيا. لعله ينشرها يوم يتقاعد عن النضال. . .

في سجن «المزة» العسكري، ومن بعده سجن القلعة المدني امضى عصام المحاييري ومئات غيره من المعتقلين ثلاثة عشر عاما، ما كانت مؤلة لاتباع سعادته، كما ألهم اعتقال زوجة مؤسس وزعيم الحزب. فالرجال من المعتقلين، كانوا يحملون المسؤوليات. نذروا أنفسهم لها ولقضية الحزب. . . . زوجة انطون سعادته لم تكن تحمل من مسؤولية الا مسؤولية تربية بناتها الثلاث.

لقد أمر عبد الحميد السراج باعتقال جوليات المير ليلقيها رهينة تضمن له سلامته وتزيح قبضة القوميين عن عنقه وثأرهم منه. . . فكان لا يتوانى عن التهديد بقتل زوجة سعادته كلما جاء من يفتاحه بأمر تسوية أو بطلب اخلاء سبيل. كان السراج يعرف جيدا أن أرملة سعادته بريئة من كل التهم التي ساقها بحقها، وانها لم تقترف ذنبا لتسجن مع المجرمات والفاسقات. لم تكن عضوا في المجلس الاعلى للحزب الذي هو سلطة تشريعية، ولا عضوا في مجلس العمدة الذي هو سلطة تنفيذية. كانت زوجة للزعيم الشهيد وام بناته وامينة على بيته وتراثه فقط. . .

أذكر كيف انني في آذار (مارس) ١٩٦٠ تحدثت الى ملك زوجة عبد الحميد السراج عن أرملة سعادته في منزلها بشارع الجاحظ، الذي كان السراج قد أخذ طابقه العلوي - إن لم أكن مخطئا - من صاحبه البهبهاني، الثري الكويتي المعروف. أما الطابق الثاني فقد نقل منه المصرفي واهف كمال [الذي كان مديرا للبنك العربي في دمشق] بينما الدور الارضي سكنه رجل الاقتصاد السوري وحاكم البنك المركزي عزت الطرابلسي [المهاجر حاليا في فرنسة] هذا المبنى تحول بكامله منذ وصول البعث الى الحكم في الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ الى ادارة للمخابرات العامة و. . ما زال.

قلت لقريئة السراج: «انت أم وزوجك أب، وهناك خلف جدران السجن الرهبة تقبع منذ خمس سنوات ام مثلك، كل ذنبها انها تزوجت رجلا اعدم قبل أحد عشر عاما».

رفعت حاجبيها وأرخت عينيها غير مبالية :
«لكنها مجرمة ويجب ان تحرم من اولادها» . . .
تمالكت نفسي وعدت أسألها :
«ما هو الجرم الذي اقترفته حتى تجوز معاقبتها ورميها بين الفاسقات
والمجرمات؟» .

لم تتركني أكمل فقالت بحدة :
«تزوجت انطون سعادته» .
لم أدع كلامها يضغط على اعصابي فيثيرها ، تمهلث ثم أجبتها :
غريب هذا كلام يصدر عن شيوعية ملتزمة بالحزب الشيوعي وتنفيذ أوامر
«الرفيق» خالد بكداش . . . لقد كنت توزعين مع نادية الجابري رفيقتك في النضال
مناشير الحزب . فهل أصبح انتسابك للحزب الشيوعي وتوزيعك مناشير
بكداش . . . جريمة؟

في ذاك اليوم لم أحصل على جواب . . . جوابها كان صمتاً ، لأن المطلوب منها في
ذلك الزمان ان تصمت . هي التي ضاقت ذرعاً اكثر من مرة بتصرفات زوجها
وبقساوته وحقدته .



كان الليل قد انتصف . افاقني رنين جرس الهاتف . أتاني صوت مَلَك السراج
مذعورا . كانت وهي تجهش بالبكاء تطلب مني ومن زوجتي [شقيقتها] الاسراع
اليها .

كنت أسكن منزلاً قبالة قصر خالد العظم في ساحة ابي العلاء في حي ابو رمانة .
فسارعت مع زوجتي نطوي المسافة الى منزل السراج . ساورتني الظنون ان حادثاً ما
قد وقع ، وانني سأرى البيت مطوقاً بالعسكر .

تبددت الظنون عندما شاهدت الحرس أمام البيت كما في العادة ، لا حركة ولا
جلبة . طوينا درجات السلم بسرعة . دخلنا ، فرأينا عبدالحميد السراج يجلس على
أريكة في صدر الدار ، عابسا واجما وزوجته مَلَك تزيد وترعد ، وما ان شاهدتنا حتى
انفجرت بالصراخ :

«انظروا الى يده . لقد وعدني مرارا ان لا يضرب أحداً . . . ولكنه حنث بوعده
كالعادة . . . لقد مارس التعذيب هذه الليلة وعاد اليّ بيد «مزرقه» سوداء من كثرة
ما أمسك بها السوط وضرب» .



عبدالحمد السراج عندما أصبح مقدما في الجيش

الفصل الثاني

الهروب إلى الحرية

- ١ -

كانت شمس الخامس والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٥ تصب ناراً على بيوت دمشق النعسانة بعد ليلة طويلة من الحر.

علا الدق على الباب بوتيرة عصبية. رميت نظرة عجلى على الساعة في معصمي وأنا أتمطى ، فاذا بعقاربها تشير الى السادسة. توجست شراً: من يكون الطارق في مثل تلك الساعة المبكرة؟

أخذتني رعدة الذعر، تراجعت الافكار في رأسي . . . أتراها أزفت الساعة لأنضم الى قوافل المعتقلين في سراديب التعذيب؟

مددت يدي الى الباب أفتحه، فأحسست برعشة انسكبت في جسدي لم تلبث ان استقرت في مفاصلي، فغالبت جمود يدي. طلع علي وجه مَلَك، شقيقة زوجتي [التي تزوجت السراج فيما بعد] فسكن ارتياكي. رميت نظرة متأملة على وجهها، فاذا بمسحة من الخوف تغشاه، فغيرت ملامحه المتناسقة، عيناها جاحظتان في محجريهما، لهائهما المتقطع كان يحبس الكلمات على رأس لسانها، استبدلتها بالاشارات اولا، الى ان تماكنت نفسها:

«على مدخل المبنى أربعة عناصر من المكتب الثاني [الاستخبارات] يحومون حول المكان، يرصدون المارة بعيون مستفسرة ويسألون الداخل والخارج عما يريد. أحدهم كردي من آل ظاظا، عرفته، وعرفني، فلقد كان يتردد على والدي [والدها علي آغا زلفو من زعماء الاكراد] سألته ماذا تفعلون هنا؟ فقال جئنا لنعتقل غسان زكريا. . . فبادرته على الفور حسنا تفعلون. . . ودخلت مسرعة لا طلب اليك ان ترحل» . . .

جمدت في مكاني. شعرت بدبيب الخدر في رأسي. حاولت ان استجمع افكاري. مر امامي شريط التعذيب، وتناهى الى مسمعي أنين الموجهين بعد حفلات الجلد الطويلة في السراديب المظلمة العفنة التي تفوح منها روائح القيح والدم اليابس على الاجساد.

هزنتي زوجتي فاعادتني الى صوابي .

كنت أسكن في طابق أرضي من مبنى الراحل مفيد الحسيني (مدير وكالة الانباء العربية في دمشق عامئذ) ، يطل من الخلف على حديقة متصلة بشارع ركن الدين . فكان منفذي الوحيد للافلات من قبضة رجال عبدالحميد السراج ، باب المنزل الخلفي . للممت زوجتي باناملها دمعة غدرتها ، فسالت على خدها . ودعتني . فطلبت منها ان تتصل بشقيقها خالد فيقتني أثري الى «بنك القاهرة» ، حيث كنت اعمل .

تسلقت الجدار العالي الفاصل بين البيت والحديقة المتصلة بشارع ركن الدين ، ووليت الادبار . متجها نحو منطقة الحريقة ، حيث كان فرع البنك في ساحة يوسف العظمة .

لم يبطيء زوار الفجر قبل أن يطرقوا الباب ، فتحتهُ مَلَكٌ ، فدهش ابراهيم ظاها لما رآها تستقبله ، انعقدت الكلمات على لسانه برهات ثم بادرها متسائلا : «ماذا تفعلين هنا» ؟ .

فتجمع الحق في صوتها : «ألا تدري ان الذي جئت تطلبه هو صهري زوج أختي» ؟ .

علا وجه الرجل حياء غريب ، وبدأ يتوسل الاعذار . أكد انه لم يكن يعرف ذلك - وكان صادقا - ثم عاد يسألها عني ، فأجابته انني مسافر منذ أربعة ايام ، لذلك جاءت الى شقيقتها لتبقى معها ، فلا تتركها في البيت وحدها أثناء غيابي . . . واتبعت ذلك بأن دعتهُ لتفتش البيت . فأعرض . اعتذر . . . ومشى .

وصلتُ الى البنك وأنا ألهث . طوال الطريق تجنبت السير في وسط الرصيف . سرت بمحاذاة الابنية فزعاً من ان يخطفني من وسط الرصيف من يترصدني لاعتقالي . فلا يترك لي مجالا للهرب الى داخل البنايات او المحلات التجارية الكبرى .

آخر ما كنت أتوقعه وأنا أجلس على مكتبي ، زائغ العينين ، أنظر بين الفينة والفينة الى باب البنك بلهفة ، ثم انقله الى الساعة الكبيرة المسمرة على وسط الجدار امامي ، فبدت كأنها عين مارد يهددني ويعدّ لي الدقائق والثواني لحريتي أو أسري ، ان يطلع عليّ صوت مساعد مدير البنك الراحل نزار الصباغ [الحاقد على الانكليز لانهم سلموا والده الى الوصي على العرش العراقي عبد الإله ورئيس وزرائه نوري السعيد ، فأعدم في ساحة الرشيد بتهمة الخيانة العظمى] مهددا متوعدا ، يكيل لي التهم ويصنفي في عداد المتآمرين على سلامة الدولة ، مؤكدا في شبه يقين علاقة القوميين الاجتماعيين بالغرب ، وان واشنطن ولندن والقوميين قتلة عدنان المالكي . . .

لقد كان نزار الصباغ - رحمه الله - يردد كلاما لا كتبه ألسن العامة ضمن الحملة المسعورة المدبرة والمنظمة التي كتبها الشيوعيون والاشتراكيون في منشوراتهم وتصريحاتهم ضد القوميين الاجتماعيين، فجاهدت النفس ان لا أعيره اهتماما، تركته يغلي ويفور واقحمت عيني في أعمدة جريدة كانت مرمية على المكتب. فقلبتها بسرعة، مصطنعا قراءتها... أتخايل، فاسترق النظر مرة الى الساعة... و... مرات الى باب البنك الرئيس أترقب بصبر دخول خالد ليتشلمي من بين برائن الاسر.

خواطير كالومض مرت مختلطة في رأسي، فتهاككت على الكرسي متعبا بعدها، فما شعرت الا بيد تربت على كتفي. فانتفضت، فاذا بالمرحوم خالد زلفو، شقيق زوجتي. واذا بي أسارع فأتناول حقيبة جلدية صغيرة ألقيتها بطاقة الهوية. لم أستأذن من أحد. لم أودع أحدا... رميت نظرة اخيرة على مكتبي وخرجت يلحق بي شقيق زوجتي. كنت وقتها أهرب من سجن المزة الى... الحرية.

- ٢ -

طريق دمشق - بيروت، كانت مزروعة بالعيون المسنونة. فلقد بث عبد الحميد السراج جواسيسه يترصدون الطرقات، كأنه ما اكتفى بآلاف الذين أودعهم السجون والمعتقلات فأخذ يطلب المزيد.

اقترح عليّ خالد، ان نتسلق جبل الشيخ الى لبنان. خطف كلامه بسرعة. لم يترك لي اي مجالاً للتفكير. أذعنت صاغرا. فكل ما كنت أريده في تلك اللحظات ان أجد من يضيء مقلتي بالأمل للإفلات من قبضة عبد الحميد السراج القاتلة. سارعنا الى مرآب سيارات القنيطرة [قبل سقوطها في قبضة الاحتلال الاسرائيلي بإثني عشر عاماً] لم نجد الا باصا صغيرا. كان شرط سائقه ان ندفع له سبع عشرة ليرة سورية سلفا قبل ان يدير محركه. فما ان ألقم جيبه بالمال حتى مضى بنا باتجاه الجنوب الغربي.

كان الباص يسرع فوق الطرقات السنجابية. الاشجار والبيوت تركض في الاتجاه المضاد لنا. انسياباته انعشت قلبي الكسير، فمددت رأسي من النافذة وتركت الهواء يلطم وجهي. أطلت علينا من بعيد ضاحية «المزة» وسجنها العسكري الرابض على ذروة هضبة فيها، لي خلف جدرانها أحبة تنزل على أجسادهم سياط الجلادين... فمطار دمشق القديم، فالسهول والهضاب المترامية الاطراف، قتل «الكوكب»، حيث نزلت الرؤيا على الضابط الروماني شاوول، الذي أصبح بولس الرسول فيلسوف المسيحية... ومنه مررنا بسعسع، فامتدت امام أنظارنا سهوب

خضر وحصون واستحكامات ومخابىء مرابض المدفعية التي كانت تشكل خطوط دفاع سورية الخلفية . . .

ردني اختناق صوت المحرك الى رشدي . فقد وصلنا الى مزرعة «الحلس» التي كانت بعض املاك علي زلفو [والد زوجتي] الزراعية الواسعة . فدخلنا ، خالد وأنا ، وعر الجولان سيرا على الاقدام . بعد ساعة بلغنا مساكن فلاحي المزرعة الذين تراكضوا الينا مرحبين . بنجل الأغا وصهره . . .

كان النهار قد انتصف ، وعيون الشمس المحمرة تلسعنا بحرارتها . تطوع أحد الفلاحين ، وكان اسمه محمود ، ان يكون دليلنا الى قرية «الدوار» المختبئة في السفح الجنوبي من جبل حرمون [الشيخ] على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر . فقد شرح خالد له ، بانه يريد التسلق الى «الدوار» هربا من ابيه الأغا الغاضب عليه بسبب مشاكساته !

مشيت خلفهما صعدا ، غير مبال بالخصى المتناثر تحت رجلي ، ولا اعطيت بالاً لوعر أو لصخر ، أو لجرح في ركبتي بدأ ينزف لما ارتطمت بصخرة تسلفتها . كان دليلنا محمود ، قصير القامة ، نحيف البنية ، دقيق الساقين ، سريع العدو والتسلق فهو ألف منذ صغره الوعر والصخور وحفظ الدرب الى «الدوار» عن ظهر قلب . فامكنه ان يختصر لنا الدرب ويخفف عنا صعوبة التسلق .

كانت الشمس قد نشرت الوية المغيب لما علقت قلوبنا على مشارف «الدوار» . وقفت ألتقط انفاسي واتفقد الجرح النازف في ركبتي ، فشدني خالد بذراعني نحو بيت المختار ابو عزالدين .

اشرأبت اعناق من في البيت نحو الباب . ووقفت انظارهم علينا . ولم تمض دقيقة على جلوسنا ، حتى سد الباب رجل مربع القامة ، بدين ، عريض الكتفين واسع الصدر ، ضخمة . عرف ابن الأغا ، فلف عباءته وأرخص جفنيه وجنى رأسه :
- يا هلا . . . أهلا . ما وراءك يا سيدنا .

- ما ورائي الا الخير يا مختار .

ما كاد خالد ينهي كلامه ، حتى أوما المختار ، ان احضروا العشاء . فانتصب خالد واقفا منتحلا الاعذار ، بضرورة مغادرتنا بسرعة لانه يخشى ان يتعقبه والده الأغا ، ويلبقة دغدغ شعور المختار فبدا مزدهيا متفاخرا اذ قال له :

- اعرف ان والدي يصطفيك من بين الآخرين ، ولذلك له دالة عليك يا ابا عزالدين ، فلا أريد ان اوقعك في حرج معه . فمشكلتي مع والدي كبيرة . . . فتركنا نتابع سيرنا الى «شبعاء» في المقلب اللبناني من حرمون وهناك نتدبر أمرنا الى بيروت . ولقد تركت لشقيقي الاكبر معن امر تدبير الاشكال وتسويته بيني وبين والدي رافقنا صوت المختار حتى منتصف الدرب ، حتى اختفى ، واختفت معه

«الدوار» خلفنا ، ونحن نتسلق الصخور فيتدحرج الحصى وراء دعساتنا .
أذكر أبدا ، لما مالت الشمس نحو المغيب ، كيف أنها تركت أشعتها المرتجفة وسط
جبال النور، تذهب تلال فلسطين . رحت أسرح نظري فيها . ارتاح مسندا ظهري
المتعب على صخر اجرد . فيقطع صوت خالد عليّ نشوتي بالمنظر فأعود أمد يدي الى
الصخور و... اتسلق .

بدأ البرد يسكب في جسدي ارتعاشات رفيقة . وأخذ الجوع والتعب مني مأخذا .
وكلما كنا نصل الى جبل ترامت امامنا جبال ، وكلما بلغنا قمة اطلت علينا قمم
أخرى . وانتصف الليل بنا ، لا يقلق سكونه سوى هسيس النسيم البارد وصوت
طائر ضلّ مرقده .

تبدى القمر بدرا ، من خلال السحب المنتشرة في اعالي الهضاب المتصلة بجبل
حرمون ، فأرسل انواره تتدحرج ببطء على الصخور ، فتلقي ظلالها القاتمة تؤلف
اشكالا غريبة ، تكبر وتصغر ، تنفرج وتضيق ، تبعا لمرور السحب امام ضوء القمر .
فسمعنا فجأة ، اصواتا بشرية ونهيق حمير وبغال . فكمنّا خلف صخرة كبيرة
نستطلع . خشيت دسيسة دبرها علينا في دمشق اجدهم !

أقامت الشرطة العسكرية السورية لها موقعا في قلعة شيبوب المجاورة لقصر
عنتر . والموقعان فيهما - هذه الايام - قوة نمساوية تابعة للامم المتحدة ، وكانا استعملا
في العهود الوسيطة كمراكز مراقبة واسارة نارية لانذار دمشق من زحف غريب عليها
من سهول فلسطين ، فيما المؤرخون يعيدون القلعة والقصر الى العصر الآرامي
فالكنعاني ، حيث كان يعبد فيهما الاله حدد . فتقوم عذارى كنعان وآرام بتقديم
انفسهن للكهنة في عملية عطاء جنسي تأكيداً لاستمرار الخصب وغسل الذنوب !
بدت لنا في وسط الوادي ، مجموعة من الفلاحين اللبنانيين والسوريين ، كانوا
اوقدوا نارا وأكلوا شواء صيدهم ، فيما دوابهم ترتاح قبل متابعة السير . فاقرب مني
محمود وبصق حنقا وشتم . ومن دون ان أن أسأل قال :

«هؤلاء من قومي . يتعاملون مع اليهود ، يهربون البضائع منهم واليهم ، وهم
الآن اما في طريقهم الى قراهم أو الى فلسطين المحتلة» . . .

انتظرنا فترة ظننتها دهرا . كان هذا الانتظار الممض ، اصعب علي من كل
الارهاب الذي عشته في دمشق والارهاق الذي حل بي وأنا اتسلق كتلة صخرية
يزيد ارتفاعها عن ٢٨٤٠ متراً عن سطح البحر .

كان ما تبقى من الثلج في الجبل يتكوم على شكل دوائر بيضاء مرمية تحت
الصخور . . . لم اعد أقوى على تحمل البرد ينخر عظامي ، وكان قد حل بي الاعياء
فانظرحت على وجهي لا اعي . . . وما استفتت الا وخالد يلطمني على وجنتي
ومحمود يفرك يدي ليدفئهما . . .

تجاوزنا قصر شيبوب التفافاً، بدأنا رحلة الهبوط الى «شبعاء» [التي تحاصرها قوات «اسرائيل» هذه الايام]، فشعرت انني ملكة الحرية. وانني ارتديتها معطفاً يقيني من البرد ودرعا على صدري يحميني من الخوف. حتى ان رفيقي في رحلة التسلق والهبوط ما عادا يلحقان بي، صرت ارمي بنفسي على الصخور والحصى، صرت اتدحرج معها اتنشق هواء الحرية بعيداً عن عنف عبدالحميد السراج وارهابه.

كان الفجر قد بدأ يلقي وشاحه البهي على «شبعاء» دافعا أمامه نسيماً بارداً. فترأى لي من بعيد بستان تفاح، فركضت نحوه والجوع يعتصرني، وبدأت بقطف حبات التفاح غير مبال بالمواد الكيميائية التي كانت رشت عليها. ثم جلست على كعب شجرة... أرتاح. فاذا بصاحب البستان (الذي كان مختاراً للبلدة) يطل علينا مستفسراً عن نكون، ولما عرف فينا ابن الآغا افسح لنا طريق بيته.

ما ان جلس بيننا، يسكب لنا قهوة مرة، من دل بقي يففق على نار هادئة، حتى دخل علينا ثلاثة شبان، قدمنا مختار «شبعاء» اليهم بأننا: «ابن الآغا علي زلفو وصهره ودليلهما»... جلسوا حلقة حولنا، يرمون على وجوهنا نظرات موشاة بالريبة والتوجس. وبعد ان ساد السكوت، حرك اكبر الشبان الثلاثة سنا كتفيه، وكان في العقد الثالث من سنّيه، ورفع رأسه قليلاً وقال مستخرجاً كلامه من كعب الذاكرة:

- ألسنت فلاناً؟!

ثمليت وجهه بسرعة وأجبت:

- نعم أنا هو.

- أنسيتني؟.

للم حيرتي المرتسمة على وجهي وتابع:

- أنا كنت في عداد الذين مكثوا في بيتك في دمشق ثلاثة ايام أثناء الانتخابات

النيابية عام ١٩٥٤.

فجأة بان وجهه اليفا، وعرفته. انه واحد من آل ماضي راح يروي كيف كان بيتي في دمشق عامذاك، مفتوحاً ليل نهار لمئات الآتين من الوطن الكبير لدعم ترشيح عصام المحاييري وعبدالله محسن لمجلس النواب خلال الحقبة الشيشكلية. ولما أنس بي، اخذ يخبرنا ان الشرطة العسكرية السورية اقامت مرصداً على قمة الجبل بين قلعة شيبوب وقصر عنتر لمراقبة المتسللين من الشام الى لبنان. وانه في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) تمكن النقيب فضل الله أبو منصور على صهوة فرسه من ان يعبر ومعه مرافقان اصيبا بجروح من رشاشات أطلقها عليهما الجنود الذين كانوا طاردوهما مع النقيب من سفح الجبل الى ذروته فاعتقل الجريحان «أما فضل الله أبو

منصور فقد نزل الينا وأوصلناه الى مرجعيون ومنها الى صيدا وهو الآن في بيروت» . . .

أحسست بالراحة . واني بين اهلي وعشيرتي . ولم تمض ساعة ، حتى كنا نحن ايضا في الطريق الى مرجعيون ومنها الى صيدا حتى وصلنا بيروت في الخامسة مساء . فتوجهت مباشرة الى مركز الحزب القومي الاجتماعي في مبنى العازارية الضخم ، حيث استقبلني ، جبران جريج ، وكان عميدا للداخلية في الحزب ، فقدمت له تقريرا عن الذي حصل وكيف تسلمت من دمشق الى بيروت . أخبرته بها يفعله السراج وأعوانه بالقوميين ، الذين يذهبون الى السجون ويلاقون اصناف التعذيب ، ضحايا لمؤامرة لم تكشف ابعادها بعد . . .

ودعته لأتدبر أمري ، فاذا بي وجها لوجه مع الراحل سعيد تقي الدين ، الذي فوجيء بمراي في بيروت ، فأمسك بيدي ، وأدخلني الى مكتبه ، حيث كان وكيلًا لعميد الاذاعة ، عصام المحاييري الأسير في سجن المزة العسكري ، يعاني الامرين من جلاده الرقيب أول ماجد شاكر ، الذي كان رئيس الشرطة العسكرية اكرم الديري قد أوكل اليه أمر التفنن في تعذيبه ليل نهار .

كرت اسئلة سعيد تقي الدين : كيف . . . وماذا . . . وأين و . . . متى ؟ يقف مني على أدنى التفاصيل ، يمتص لفافات التبغ الواحدة بعد الاخرى . يرمي اعقابها بعصبية في صحن الدخان .

ذكرت له كل ما أعرف . استمهلني سعيد برهات . خرج من المكتب ويده ورقة عليها افتتاحية لجريدة «صدي لبنان» . عاد . رأي اشبك عشري على رأسي وقد أرخيته على المكتب ونمت . أيقظني لأمضي - وخالد ومحمود - كي نتدبر أمر نومنا وطعامنا . !

- ٣ -

سنة أشهر ، انسلت ايامها الممضة وأنا في بيروت . اضغط على الجرح . كانت أخبار دمشق تصلني متتابعة ، تروي المزيد عن حكايا الرعب والقمع والتعذيب . ولكنني في دوامة المسؤولية التي مارستها ، كنت اشعر وكأنني اسهم ولو جزئيا في معركة الخلاص من عصابة الضباط العشرة الحاكمة في الشام : [اكرم الديري ، جادو عز الدين . طعمة العودالله . احمد الحنيدي . برهان قصاب حسن . عبدالكريم النفوري . جمال الصوفي . عفيف البرزي . حسن حدة] التي وان كان عبدالحميد السراج ليس اعلى من فيها رتبة ، الا انه كان فيها بالتأكيد الاكثر فعلاً وقوة ونفوذاً .

فهو كان على رأس جهاز استخبارات الجيش ، الامر الذي مكّنه من التسلل لا الى المؤسسات ودوائر الدولة وحسب ، انما الى الدور والقصور ، موظفا ومستخدما اتباعا واعوانا ، فعلمهم فن التنصت والمكر والمخادعة ، فلما تمكنوا ، اصبحوا دعائم حكمه وتسلطه ، تملك هيبتهم القلوب فيخشاهم الناس ، فانخفضوا البلاد وحولوا العباد الى ضحايا .

كان عبد الحميد السراج ، في كره وفره مع القوميين الاجتماعيين ، يابى الاستكانة الا بعد القضاء على اثنين : سعيد تقي الدين وغسان جديد . واصبح يتربس سنوح الفرص للاقتصاص منها . فلقد كان يرى فيها خطرا على حياته ووجوده السياسي والمادي في دمشق .

سعيد تقي الدين ، شن حملة كبيرة على عبد الحميد السراج ، وعلى اربابه وقمعه . عراه . نبش له اصوله وجذوره . استعدى عليه الانسباء والاقارب . لم يهدأ . ولم يستكن ولا جف الخبر في قلمه وهو يدبج المقالات تارة في «صدى لبنان» وطورا في «الزوابع» ، وحينما في «النهار» وآخر في النشرات والناشير التي كان يوصل الليل بالنهار وهو يشرف على طباعتها وارسالها على ظهور الحمير والبغال في مناطق الحدود السورية - اللبنانية التي رسمها سايكس وبيكو عام ١٩١٦ ، يقودها شبان قوميون الى منحدرات الهضاب الفاصلة بين مناطق بعبك وسهل الزبداني وسرغايا ، حيث كان يتلقفها في مطالع الفجر رفقاء لهم في المقلب الشامي ، فيقومون بتوزيعها على القرى ، وعلى احياء دمشق وبقية المدن السورية . فكانت تلك النشرات تهتك ستر الاوضاع في دمشق ، تنقل الى السوريين اخبار «السلطان الاحمر» وجوره وعسفه ومؤامراته ، وتشير بالاسماء الى اعوانه وادوارهم في المؤامرات والتشكيل بالناس ، اضافة الى ما يدور داخل الحكم وخارجه . . . في وقت كانت صحف دمشق تبلع ريقها ، والرقيب العسكري يحصي على الصحافيين انفاسهم وحبرهم وورقهم . اما المأجورون منهم - وكانوا كثيرا - فقد أجادوا التسبيح بحمد السلطان الاحمر ، وكما أجادوا الانتظار في السفارة المصرية ليقبضوا من السفير محمود رياض وملحقه العسكري محسن ابو النور وعدلي حشاد (الملحق الصحافي) جعلاتهم الشهرية .

كان تسرب هذه النشرات يقض مضجع عبد الحميد السراج الذي حار كيف يمنع وصولها الى دمشق ، على الرغم من كل التنكيل والقمع . . . فزّين له ، بعدما لم تنفع اساليب التهديد والوعيد مع السلطات اللبنانية ، ان يخطف سعيد تقي الدين الى دمشق ومن ثمة يصفيه تحت التعذيب في سجن المزة العسكري .

واذا كان عبد الحميد السراج يضيق ذرعا بقلم سعيد تقي الدين ، فان اوصاله

كانت ترتعد لمجرد ذكر اسم غسان جديد. فلقد كان هذا الاخير، ضابطا مقداما، يتجسد العزم في قسبات وجهه وتلمع البسالة في عينيه، على صدره و«سام أمية» [وهو اعلى اوسمة العسكر زمنذاك]، لاستبساله في معارك فلسطين عام ١٩٤٨ ولقدراته العسكرية غير المحدودة في التدريب وحرب الغوار. دمث الاخلاق. الصديق سلطان ينزل عند امره. يحاييه الجنود لاقدامه في المعامع على رأسهم. لذلك كله كان السراج يخشاه ويخاف ان يرتد عليه. . . .



اعد السراج العدة. ارسل أحد عناصره وكان حمويا [لم يعد في الذاكرة مطارح لاسمه] اوعز اليه الاتصال بمشهور دندش وغيره من شباب الهرمل [البقاع] في محاولة لاغرائهم بالمال ليساعدوه على خطف سعيد تقي الدين وغسان جديد الى دمشق.

ماشى مشهور دندش وصحبه رسول السراج في خطته. التقوه في مقهى كان يقوم مكان «لاروندا»، على زاوية الطرف الجنوبي من ساحة البرج في بيروت. سمعوا له قوله. ساوموه وساومهم حتى اتفقوا على ان يدعوا مشهور دندش سعيد تقي الدين وغسان جديد الى العشاء في احد مطاعم السمك قرب بلاج «السان ميشال»، فيحضر الحموي الى المطعم ومعه مبلغ خمسين الف ليرة لبنانية [وكان هذا المبلغ يعادل ثروة في هاتيك الايام] يسلمه فيستلم الرجلين المطلوبين. . . .

دخل مشهور دندش المطعم ليلتها، وتوزع من معه، وكانوا اربعين شخصا، على طاولات ركزت في زوايا المطعم الاربعة، فبدوا كأنهم زبائن جالسين الى موائد الطعام، بينما انتقى دندش طاولة في وسط المطعم، فجلس اليها اربعة، كانوا اشتركوا في التفاوض مع رسول السراج.

حسب الموعد المضروب. دخل الحموي الى المطعم. فاقترب من طاولة دندش، رمى السلام، وابتسم فبان كبير الانف، بارز الحاجبين، تغور تحتها عينان واسعتان لاتوحيان بالثقة. أشعث الشعر. لحظات لجق به اثنان، قدمها وجلسا. فدارت العيون على المكان بريية وحذر. مال الحموي على مشهور دندش يسأله هامسا: «وين البضاعة؟».

رسم مشهور دندش على وجهه ابتسامة اوحى للحموي بالاطمئنان وقال: «البضاعة لن تصل الا بعد ان نشرب كأس عرق. . . فالليل ما يزال في أوله». ودارت أقداح العرق تتراقص بين الاصابع، ودارت معها الرؤوس ثملى. فما شعر الحموي ومن معه، الا وقد انتصف الليل وتخفتت الاضواء في المطعم وتوزع

«الزبائن» على بواباته شاهرين مسدساتهم . لم يقوَ الثلاثة على الحراك . استدار الحموي نحو مشهور دندش محاولا استجلاء الامر . فاستل دندش مسدسه من خاصرته ووضعها على الطاولة فارتد الحموي وقد بدا الخوف يتكشمش في ملامح وجهه الدميمة .

فجأة دخل غسان جديد صائحا : «لشرب كأس انطون سعاد» . فانتفض رفيقا الحموي واستدارا نحو الصوت . فاذا بغسان جديد يعرفهما : النقيب راشد قطيني ، نائب السراج في جهاز الاستخبارات والملازم اول عبد الوهاب الخطيب ، ساعد السلطان الاحمر الضاربة وجلاده المفضل .

خارت قوى راشد قطيني وانتابت عبد الوهاب الخطيب رعدة الذعر . وبدأ الاثنان يتوسلان غسان جديد . اما الحموي فقد كان ثملا فبقي جالسا لا يقوى حراكا . صاح غسان جديد بالضابطين ان ينهضا عن الارض . فليست تلك شيم العسكر . وان يرفعا رأسيهما احتراماً على الاقل لرتبتهما العسكرية . ام ان عبد الحميد السراج قد علمهما الخنوع وطأطأة الرأس ؟ .

ثم أوما بيده ، فطوقهما أربعة شاهرين مسدساتهم . وسار الحموي معهما الى سيارة كانت تنتظر امام المطعم . نقلتهم الى مكان قصي في اعالي المتن الشمالي . و... اختفوا .

- ٤ -

وما وصل خبر اختفاء راشد قطيني وعبد الوهاب الخطيب الى دمشق ، حتى كان الغضب يأخذ من السراج شيئا فشيئا . فقد ساءه ان يكشف امر ما نوى عليه قبل نجاحه ، فهتكت السلطات اللبنانية الستر عن تصرفاته ، وتحركات عملائه في بيروت ، وان يؤخذ راشد قطيني نائبه ، بحيلة ويلحق الاذى سمعته .

ما ترك وسيلة الا والتجأ اليها لمعرفة مكان وجود الضابطين المخطوفين ، ولم يعدم حيلة عند عملائه في لبنان . وكانوا كثيرا . الا واعتمدها ولكن . . . من دون جدوى . بعد مضي اربعة ايام ، على خطف الضابطين ، كنت بمعية صديقين في حديقة فندق «اكسيلسيور» في بيروت والى يميننا جلس «الامير» مجيد ارسلان وزير الدفاع الوطني اللبناني ، يحدث نظيره السوري رشاد برمدا والى جانبه جلس عبد الحميد السراج .

كانت تلك ، المرة الاولى التي يزور فيها السراج العاصمة اللبنانية وهو على رأس المكتب الثاني [الاستخبارات] . اما الزيارة الثانية ، فقد كانت عندما هرب من

سجن المزة العسكري بعدما اعتقله هشام عبدربه «تلميذه» وأحد مساعديه الخالص بعد انقلاب ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ الذي انهى وضعاً غير طبيعي وشاذاً لوحدة مصطنعة وغير قابلة للحياة قامت بين سورية ومصر.

كان السراج يتلفت بحذر. عيناه زائغتان كعيني ذئب، تنتقلان بين مدخل الحديقة والناس الذين يرمون باجسادهم في بركة السباحة او يمررها على المستلقين يديرون ظهورهم للشمس . . . او على الجالسين يحسسون الجمعة . كأنه ينتظر قادماً او قادمين، مخبراً او مخبرين.

في يد «الامير» اللبناني اليمنى نربيش عاجي الحلمة يقرقر في نارجيله اسطمبولية بعنق مشرب، وبطربوش لماع يحمي الجمر من سرعة الاحتراق، اما يده اليسرى فتحمل سبحة سوداء الحبوب اغلب الظن انها من اليسر المطعم بالفضة، وبين الحين والآخر كان يمشط شاربيه بابهامه وسبابتة، وينزه نظره في السابحين والسابحات . بينما رشاد برمدا يسهب في الحديث ورسم الاشارات بيديه . . .

حضر وزير الدفاع السوري ورئيس استخباراته الى بيروت لاستعادة الضابطين المخطوفين . سبقتها الى العاصمة اللبنانية، اتصالات لم تكن خالية من التهديد بالويل والثبور وعظائم الامور، ان لم يكشف مكان وجود الضابطين اللذين كان السراج يخاف ان يكونا قد صفيا للنيل منه .

أجرت الحكومة اللبنانية اتصالات مكثفة . استنجدت بسعيد تقي الدين ، الذي وعد من اتصل به من المسؤولين، [وأغلب الظن انه كان رئيس الجمهورية الراحل كميل شمعون] ان يستخبر ويستطلع وان يجيب في غضون ساعات .

بعد سبع ساعات من الانتظار الطويل عشر المارة في حي «الكرنيتا»، في بيروت على ضابطين سوريين يسألان المارة عن الدرب الى بيروت . . .

اما ماذا جرى للضابطين بعد خطفهما، وماذا تم بين السلطات اللبنانية والخاطفين . فذلك للتاريخ . . .

كنا ما نزال جالسين في حديقة فندق «اكسيلسيور» دخل شرطي يعتمر عمرة الجيش السوري، مهرولا . وقف قبالة وزير الدفاع رشاد برمدا، أخذ التحية، ثم انحنى قليلا واسر للوزير ببضع كلمات، فانفجرت أساريره مشيراً الى السراج بهزة من رأسه . ثم وقف الوزير، بينما بقي «الامير» جالسا وقال متنحنحاً بعض الشيء :
فضلت يا عطوفة المير.

أفسح له العسكري المجال فمشى الوزير وخلفه عبدالحميد السراج، تدرجوا الى الشارع ، وانطلقوا بثلاث سيارات وغابوا في شوارع بيروت العتيقة .

من طبعه ، وهو القادر ، ان يسكت على ضيم . كان السراج بعد عودته من بيروت مكلوماً . طويل الصمت ، دائم الفكر . فهو لم يستطع ان ينسى «الهزيمة» التي ألحقها به القوميون بخططهم من كان ارسل من ضباطه المقتدرين ليخطف سعيد تقي الدين وغسان جديد . . . قبلها عانى السراج من اختراق جميل العريان [عمه النائب السابق شبلي العريان المتعامل مع السراج] ، لجهاز أمنه ، الذي كان قد كلفه وقتها بخطط الدكتور سامي الخوري [ابن شفيق فارس الخوري] ، المقيم حالياً في الاردن ، فضحك منه وعليه . فعقد العزم على رد الصاع صاعين . . . فازدادت حملات التعذيب والتجويع في السجون ، وترك العنان لرجال ينف القمع والتعسف . وبدأ يخطط لنقل مطارده وقمعه الى لبنان . . .

في منزل أكرم الخوراني ، التقاها . خلبته . جمالها بهر عينيه . وزادت جراتها في الحديث من ولعه بها . فأخذ يتحين الفرص للقائها . . . فكان له ذلك في منزل خالد بكداش وزوجته وصال . تمهاذبا أطراف الحديث . بثها لواعجه فاسترخت حياله . تعاهدا على الزواج . قال لها انه سيقدم على خطوبتها متى استقرت أحواله المادية ، ففي تلك المرحلة كان عبد الحميد السراج نقيبا يعتاش من مرتبه الشهري فقط . . . اما مصروفاته الاخرى ، فقد كانت مجموعة من المخصصات التي وضعت تحت تصرفه كرئيس للمكتب الثاني [الاستخبارات] .

لقد أبقت مَلَك حبها للسراج سرا . لم تبح به لأحد حتى لاختها [زوجتي] فكانا يتواعدان ويلتقيان بعيداً عن أعين المقربين منها والاصدقاء .

لما تأكد منها ، بدأ يستغلها ويشركها في عمله الاستخباراتي ويدربها عليه . طلب اليها ان تذهب الى بيروت مع شقيقتها [زوجتي] لتلقاني ، علها عن طريقي تستطيع التسلل الى مسؤولين قوميين كباراً ، فتجاورهم وتداورهم وتحدد في الوقت نفسه اماكن تواجدهم وتسجل تحركاتهم اليومية .

أسئلتها الكثيرة . فتحت عيني على ما كانت تضره وتنويه من مجيئها الى بيروت . وكان تناهي اليّ انها تلتقي السراج . سألتها فتمنعت . واكتفت بالقول انها التقت مصادفة في منزل خالد بكداش . . . وليس ما يربط بينهما!

توجست شراً ، فاعلمت جبران جريح بما يساورني وما أظن ان مَلَك جاءت بيروت من أجله . فعمم الامر على المسؤولين وعلى جهات أخرى . . . اذكر ان

الشاعر محمد يوسف حمود وسعيد تقي الدين كتب كل بدوره عن اتصال مَلَكُ بهما،
ما خلاصته :

«جاءتنا صبية دمشقية تفاوضنا على اخراج اسرانا من سجن المزة العسكري ،
مقابل ان نسلّمها معلومات تؤدي الى فلان وفلان وفلان . . . من رفقاءنا . اجبناها،
ونحن نعرف جيداً من أرسلها البناء باننا حريصون على الدفع بمئات بل بالوف من
هؤلاء الى السجن لأنهم بوجودهم هناك يحققون وقفة العز التي تعني وجودنا» . . .

★ ★ ★

لم تكن مَلَكُ المرأة الاولى في حياة عبدالحميد السراج ، وان كانت الاخيرة . . .
فهو لما كان عزيباً ، يحرس مداخل «بحسيتا» حلب وقع في غرام بنت من بنات
«الهوى» فعشقها وعشقه . اعطته جسدها وماها ، فكان يتقي به من العوز ، وهو
الدركي البسيط الآتي من محيط معدم .

ولما علا في الرتبة والراتب واصبح من أرباب العزم في الدولة ، نقلها من «بحسيتا»
الى شقة متواضعة في زقاق صغير متفرع عن شارع الفداء بمنطقة الصالحية في دمشق
بينما سكن هو في عين «الكرش» !

كان يتردد عليها ، يصرف الليل عندها . . . مرات يأتيها وحيداً ، ومرات يصحب
معه بعض الضباط المقربين اليه .

بقي على هذه الحال معها حتى بعد زواجه . لكنه مع الايام وجد انها باتت عبثاً ،
شيئاً من الماضي الذي يريد ان ينساه ، فأسدل الحجب عليه صونا لسمعة وعلو
مركز . وخاف ، هي التي تعلمت صنعة السوق منذ كانت في «بحسيتا» ، ان تقبل
على الوشاة ، ثميل معهم وتسر في آذانهم بما كان من أمره معها . . .

ذات صباح من عام ١٩٥٩ ، على ضفة نهر بانياس المتفرع من بردى ، وجد المارة
جثة امرأة حنى الدم وجهها وانساب على شعرها الاسود الذي تطل منه شعيرات
بيض ، مشى الذبول والكبر الى جماها .

. . . وقتها كان عبدالحميد السراج ينوب عن الرئيس جمال عبدالناصر في رئاسة
الجمهورية .

بعد أحداث دمشق ومقتل عدنان المالكي بأيام جاءني همس ان عندنا همماً مستجداً وينبغي ان نتدبره .
غسان جديد صار في لبنان والواجب هو ان نتدبر مسكنه وحمايته ومعيشته .

تعرفت عليه وشلّتنا كلها معين حمود وجوزف طويل ونقولا نّمار ورياض ابي فاضل وغيرنا فأحببناه وأحبّنا.

البيت تدبره في برج ابي حيدر بقرب بيت واصف البارودي، ثم تدبرت بيوت كثيرة كاحتياط أممي فلا ينام غسان أكثر من يوم يومين في البيت الواحد. الحراسة أخذت جدلاً لأن وجودها العلني والمسرحي قد يضر أكثر من عدمها. لا بد من التسلح ومن مرافقة مسلحة وأمنية، ولكن الحذر وعدم اتباع روتين دائم ظاهر هو الحماية الأفضل. اذن لا تخاف ولا هموجة مراقبين ولا سلحلك. وتحول اسمه الى جورج خوري مع الهوية وكل اللوازم. ولم يعط سيارة واضحة واحدة ولم يترك لوحده. وتسلم عمدة الدفاع في الحزب علناً بعد أن كان يتسلمها سرا في دمشق. وتولى معين حمود وظيفة ناظر التدريب في منفذية بيروت وطحش الشباب الى العمل، وتحول الحزب، كما في الفترات الزاهرة من مسيرته، الى ورشة نشيطة والى قفران متماسكة في لبنان والشام برغم زج الالوف من الرفقاء في سجون سورية. وانتقل المركز الناجي من الاسر الى لبنان وحصل الانشقاق الاول الاكبر ما بين جورج عبدالمسيح وخصومه حول المسؤولية في اغتيال عدنان المالكي وما تلاه من تدمير وتخريب في الحزب. كان هذا الانشقاق ضرباً معنوية اولاً ومادية بشرية ثانياً وقدوة سيئة جداً لتعطيل اللعبة الدستورية وفساد المؤسسات واخضاع النصوص لهوى النفوس ولغاية بعيدة وخفية.

خرج معين حمود من الجيش وعمل مع فوزي غندور في وكالة سفر وسياحة بمكتب في شارع بشارة الخوري قريب من صيدلية ابي عجرم. وبرغم المنع البدني والجرم بحقه لانه تسرح تأديبياً فقد ظلت علاقتي به كما كانت وأقوى. وصرت اتردد الى مكتبه ونتردد معا الى مشغل نقولا نّمار في روف من بناية في شارع الشيخ بشارة ايضاً والى مكتب جوزف الطويل للتجارة في العازارية. التجمع الحقيقي في المشغل، ثم ندلف الى قناطر زيتون. وما قناطر زيتون؟ هي بيت يخص جوزف الطويل واهله في ساحل برج البراجنة، على البحر، وكان البيت الاوحد على طول الساحل منذ الروشة وحتى خلدة. وفي مطلع الخمسينيات. وقد اصبح اليوم مطعم السمكة. في هذا البيت ذي القناطر المطل على البحر والذي يغسل الموج اعتابه امضينا عمراً جميلاً عازباً من أجل مراحل العمر. في هذا البيت سوف ينحطف غسان جديد ومشهور دندش وديب كردية ومعين حمود وجوزف الطويل ورفقاء معهم ضباطاً من المخابرات السورية مكلفين باغتيال غسان أو باعتقاله سرا الى دمشق. خطفوههم اياماً ثم سلمتهم الشعبة الثانية اللبنانية الى زميلتها السورية وتقطعت المشكلة.

الفصل الثالث

نقط نجيب منهل



- ١ -

يحين الليل . يظل نزل «أوغاريت» في ساحة الدباس في بيروت ، سهراناً . اللمة الكهربائية اليتيمة المتدلية من شريط في السقف ، كانت تفرض وجودها على الردهة الصغيرة . ضوءها المتثائب يتراقص فيه دخان السجائر ، التي يشعلها الساهرون يمتصونها ثم يعصرونها في صحن الدخان المتخم بشتى أنواع أعقاب السجائر الوطنية والاجنبية .

فلقد كان نزل «أوغاريت» ، يتحول الى منتدى يلتقي فيه الذين أفلتوا من بطش عبدالحميد السراج ، والى عنوان يقصده كل آتٍ الى بيروت ، يفرغ في آذاننا أخبار الشارع الدمشقي الذي أربوه بالقتل والقمع والارهاب . والجيش الذي ركبه مطية لتحكمهم . ومجلس النواب الذي أخرسوه . ومجلس الوزراء الذي أسلسوه والقصر الجمهوري الذي احتبسوه .

كانت أخبار المداهمات والاعتقالات في حارم وطرطوس وحمص وحماه ، والاغتيالات في دير الزور [كان من ضحاياها الشاعر محمد أمين جمعة الذي طعن بخنجر في وضح النهار] والخطف من قارعة الطريق [كما حدث للضابط عبدالله اليازجي] وحملات التشهير الجائرة التي قادها الوزير البعثي الاشتراكي وهيب الغانم ، بتخطيط من أكرم الحوراني وخالد بكداش [وهما كانا أيضا وراء الحملة الشنيعة على النائب حنا كسواني ، الذي سحبت الحصانة النيابية منه ففضح تأمرهما في بيان مشهور وزعه في دمشق في الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٥٩ وطالب فيه باسقاط حكومة صبري العسلي المتآمرة] . . . كانت كل هذه الاخبار تصلنا تباعاً ، تنزل فينا مثل الصبر السقطري ، فتؤجج الغضب المعتمر في صدورنا ، وتكشف مرة بعد مرة ، كم كانت المؤامرة ، التي حيكت اولى خيوطها مع مقتل عدنان المالكي في الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ ، كبيرة وكيف باتت تستهدف قلب الاوضاع في المنطقة بأسرها . . .

بيروت، وقتها، كانت تهتز حنقا. أفق دمشق المعبأ بالسواد والحقْد، كان يطل منه لسان لسع الرئيس كميل شمعون، فذهب في جريدة القوميين. مرَّغ المأجورون رؤوس أعلامهم بالكذب الاسود، وكتبوا في الصحف المأجورة كلاماً لا ذعاً متجنياً، وتغرغر المذيعون في دمشق والقاهرة، ضمن حملة منظمة ومركزة، بكلام هاجموا فيه شمعون، منكلين به وبحكومته. اتهموه بأنه «يحمي القوميين». وان الذين افلتوا من عبد الحميد السراج، اختبأوا في مزرعة عادل حمدان قرب صيدا، فيجتمع كميل شمعون بهم تحت جناح الظلام، يعد معهم مؤامرة للانقضاض على الحكم في الشام!

فكان رد كميل شمعون، بأن تغاضى «بعض الشيء» عن الهاريين من دمشق وأظهر، نكاية بجمال عبدالناصر وبعبد الحميد السراج وليس أبداً حباً بأنطون سعادته بعض «الود» للقوميين، فما تعرض لنشاطهم وما منع صحفهم من هتك ستر ما يدور في دمشق.

ومهم القول، كي تتصف الموازين، انه لولا غباوة عبد الحميد السراج، وسذاجة محمود رياض في التعاطي مع رجل مثل شمعون، لكان الرئيس اللبناني الراحل، وهو الميكافيلي الطبع والتصرف، قد سلم المظلومين الى دمشق... فلقد كان يكره الحزب القومي ولا يثق بالقوميين... كما كانوا هم أيضاً لا يثقون به.

اذكر، وكنت لما أزل في دمشق، أن رئيس الحكومة السورية صبري العسلي، علق في وقت متأخر من ليل الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٥٥، على زيارة فؤاد عمون [مدير عام وزارة الخارجية اللبنانية] الى دمشق فقال:

«لقد أعلمت السيد عمون بان وحدة المصالح فيما بيننا وبين الجار الشقيق لبنان، تدعو دوماً لأن نكون حريصين على كرامة لبنان وكرامة رئيسه الاول السيد كميل شمعون، الذي يكن له السوريون جميعاً شعباً وحكومة الاحترام والاكبار، وستتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها ان تقف دون أي مساس بهذه الكرامة الغالية. هذا وقد قرر مجلس الوزراء ايفاد شخصية كبيرة للاعتذار من فخامة الرئيس شمعون».

وبدل «الشخصية الكبيرة»، ارسل عبد الحميد السراج الى بيروت منشورا من سبع صفحات بتوقيع يوسف الصيداوي [وهو توقيع مغفل بالطبع] يحمل تهجماً على شمعون وعلى الشخصيات السياسية اللبنانية التي وقفت من حوادث القتل والارهاب في دمشق مواقف نزيهة.



كانت تربطني بنزل «أوغاريت» حاجة واهية تعيدني اليه كل ليلة لأكل فيه و... .

أنا . أو اشترك في استقبال من وفد الينا من الشام .
ضاق بي العيش في بيروت ، انفق مما كان يحمله الى وافد مر بيتنا ، وهو بالكاد
يسد ايجار الغرفة الصغيرة في النزول . كان الشوق يعتصرني لابنتي الطفلة ولعائلي
ووالدي .

ظهر الثلاثاء الثالث عشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ حملت الينا أخبار
دمشق صدور احكام المحكمة العسكرية التي برأت في قرار تلاه رئيسها بدر الدين
علوش ، الحزب من تهمة قتل عدنان المالكي ومن تهمة التعامل مع جهات أجنبية .
لكنها حكمت بالاعدام غيابياً على جورج عبدالمسيح واسكندر شاوي وغسان جديد
وسامي الخوري وعبدالله محسن . وبالسجن ٢٢ عاماً على قرينة سعاد جوليات المير
وعصام المحاييري و١٥ سنة على المجلس القيادي في الحزب .
ظننت أن صدور الاحكام قد يخفف بعض الشيء من التعقبات والمطاركات
فبدأت التفكير بالرجوع الى . . . دمشق .

- ٢ -

تجافى جنبي عن السرير ليلتها .
تعلقت نظراتي في سقف الغرفة . مساحة بيضاء كان يمر عليها شريط صور
ونحواطر مختلطة في رأسي : لم أعد أطيق البعاد وذل الانتظار والجوع والتشرد ، فكيف
اتدبر أمري ؟ ترى . . . ما الذي ينتظرنى متى عدت ؟ . . .
طال الليل . كنت أحسب كل ساعة فيه دهراً ، حاولت أن أزيح من مخيلتي كل
تلك الافكار ، فأقحمت عيني في كتاب تاريخي قديم عن الحضارة السومرية ، كان
مقرراً في برنامج السنة الأخيرة لنيل اجازة التاريخ في الجامعة الاميركانية في بيروت
عام ١٩٥٢ . ومع انني قرأت الكتاب مرات عديدة ، حتى كدت احفظه عن ظهر
قلب ، الا ان الاسطر تلك الليلة كانت تركض أمامي فيعصى علي فهمها . ازداد
ارتباكى . رميت الكتاب ، وعدت الى نافذة الغرفة ، انقل عيني في زوايا الشارع . ثم
ازهق من المشهد الرتيب ، فاعود أرمي بجسدي المتعب على السرير .
ما صدقت ان الشمس نقرت بأشعتها البليدة المتكاسلة زجاج الغرفة ، حتى
انتصبت ، ألقم الحقيبة الجلدية ملابسي . رميت نظرة عجلي على الغرفة ، التي كانت
تضم حريقي ، والملجأ الذي وقاني من جلادي السراج ، أحسست بمزيج من
الحزن والفرح . اقفلت الباب خلفي على ذكريات أشهر ستة ، واستسلمت
للشارع .

بيروت ، تستعد للميلاد والرأس السنة باكراً ، فهي منذ ان يدخل الزمن بها شهر كانون الاول (ديسمبر) ، تبدأ تتزين بالاجراس وشجر الميلاد ، وكل ما كان يأتي به ويستورده تجارها من اوروبا .

الثالث والعشرون من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ . الميلاد يقترب . ومعه تصبح بيروت لا تطاق بزحمة الناس . كانت ضلوع الشوارع قد ييست من البرد ، رذاذالمطر ، يغسلها . رفعت ياقة معطفي واتجهت أقضم المسافات الى حيث كان مكتب «شركة» العلمين العاملة بين بيروت ودمشق . استولت علي رعدة برد رفيقة وانا انتظر دوري ، دسست يدي في جيبه سترقي الداخلية أتحسس بطاقة الهوية ، خفت ان أكون أضعتها . ارتحت لما مسكتها بأصابعي . انتشلي صوت المسؤول عن المرآب :

- يا استاذ . . . يا افندي تفضل على السيارة . . .

كان معي في السيارة ثلاثة طلاب من الجامعة الاميركانية ، عائدون الى ذويهم في دمشق لتمضية عطلة الميلاد ورأس السنة . فخطر لي ان أتجاذب مع الجالس منهم الى جانبي اطراف الحديث ، واصطنع أنني أخفف عنه حمل الكتب الكثيرة ، بأن وضعت بعضها على ركبتني ، وفتحت على عجل كتاباً في علم السياسة بدأت أقرأ فيه عن تاريخ النظم الديمقراطية في العالم . وكان في روعي انه اذا ما اوقفنا على مخفر الجديدة السوري يظنني الخفير طالباً اسوة بالثلاثة الآخرين .

اجتزنا مخفر المصنع اللبناني بهدوء وسلام ، الى مخفر الجديدة السوري . رميت نظرة ، فاذا برجال الاستخبارات والامن العام والجمارك في حركة غير عادية . أطل عنصر مدني وآخر جمركي ، نقل نظره على وجوهنا ، توقف على الكتب فوق ركبتني :
- تلاميذ . . . أخي .

رددنا نحن الاربعة بصوت واحد :

- إي . . . نعم تلاميذ .

شعرت بالعيون المستغربة تتجمع في وجهي . . . ضحكت . ضحكوا . لم يسألنا بعدها العسكري عن هوياتنا . أوماً للسائق بالمرور . تنفست الصعداء . ارخيت رأسي على زجاج شباك السيارة و . . . ونمت .

من مخفر الجديدة حتى شارع السنجقدار ، القريب من سوق الحميدية ، كنت أشعر بأن التلاميذ الثلاثة يرتابون بي . سمعت وأنا مغمض العينين همسا بينهم متقطعاً ورطناً بالانكليزية . ضحكت في سري . . . واصطنعت تجاهلهم .

كان الليل قد سجد ودمشق بدأت تأوي الى فراشها . فما عادت تسهر كعادتها

حتى مطلع الفجر. وقفت في زاوية شارع السنجقدار، اترقب مرور سيارة أجرة. طال انتظاري، وبدأ الذعر يتمسك بمفاصلي لحظات... تكلمت دواليب سيارة بالارض أمامي. تراجعتم الى الوراء. ثم اقتربت على مهل من السائق. تمليته جيداً... ثم أعطيته عنوان بيتي في شارع عبدالرحمن الشهبندر.

- ٣ -

- اتصلت به صباحاً الى النزول... فقالوا لي انه غادر الى دمشق...

□ مجنون... مجنون... مجنون.

- تأخر علينا موهيك؟

□ يمكن عثروا عليه على الحدود. اسمه لا يزال على لوائح المطلوبين.

- لا نستطيع الاتصال بأحد قبل التأكد من انه إعتقل فعلاً... .

□ يا تعتيري... يا تعتيري... كمشوه.

وحدها خالتي راسمة قرينة الصحافي والسياسي ونائب دمشق الاسبغ الراحل نجيب الرئيس، كانت اكثرهن رباطة جأش. تركت زوجتي ووالدي وشقيقتي. يندبن، وبقيت صامته. عين على الساعة وأخرى على الباب.

نقرت على الباب الخلفي، [الذي كنت هربت منه قبل ستة أشهر]، على مهل ثم فتحتة. فأحطن بي. دموعهن على وجناتهن... لقد انتابهن شعور ممزوج بالفرح والخوف، بعودتي والخوف منها...

خالتي، اشارت اليّ بالبقاء بالمنزل، حتى «نسعى لحلحلة أمورك». قالت وذهب تفكيرها الى نسيب العائلة الراحل عبدالكريم الدندشي [توفي في بيروت من أعوام سبعة]، اذكره - عامث - في السلك الدبلوماسي، لما عين ملحقا سياسيا مرة في البرازيل ومرة في الأرجنتين، قبل ان استدعته الخارجية السورية الى الادارة المركزية. فطلبت منه الحضور الى منزلها في شارع نجيب الرئيس في منطقة ابورمانة، وسألته بما له من صلات ان يوفر لي حرية الاقامة والعمل والتجوال.

حول عبدالكريم الدندشي، حيكت اتهامات كثيرة، منها ان القوميين الاجتماعيين في البرازيل والأرجنتين، قد حملوه مالا الى عائلات الأسرى في سجون السراج في دمشق. ولكن هذه الاموال لم تصل، وكان عذر الدندشي في ذلك، انها «طارت»، وهو على ظهر الباخرة التي نقلته من مرفأ جنوا في ايطالية الى مرفأ بيروت! صباح الثامن والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ مرّ عبدالكريم الدندشي. واصطحبني بسيارته الى الاركان العامة.

شعرت وأنا أدخل للمرة الاولى عرين عبدالحميد السراج، بانقباض. غشاوة
بنفسجية مرت على عيني وأنا أمشي خلف عبدالكريم الدندشي، يقرأ على أبواب
المكاتب أسماء الضباط... حتى وصلنا الى آخر الممر. توقف أمام باب دق عليه
برفق. سمعنا صوتاً رخيماً. دخلنا. فاذا بي أمام النقيب راشد قطيني، الذي كان قد
خطفه القوميون في بيروت [كما مر معنا].

انتصب بقامته المديدة. عريض الكتفين والصدر. ممتلئ الجسم. عينان زئبقيتان
توحيان بالذكاء، تدوران في وجه منبسط القسمات، ينقلها بسرعة في أرجاء المكان.
متحفز. متنبه. هادئ النبرات. يتغير صوته تبعاً لتغير الحديث والموقف.
ضغط على يدي. تملائي بسرعة. قطع على عبدالكريم الدندشي توسعه في
الكلام. فقلب بطرف أصابعه أوراقاً كثيرة كانت في ملف أمامه. وبدأ يخاطبني
بصيغة الجمع، ولست أدري ان كانت احتراماً لي أم تقريراً، وأغلب الظن انها
كانت من النوع الأخير:

- أهلاً... أهلاً... متى عدتم من بيروت.

أجبته: من حوالي أسبوع.

- أي طريق سلكتم....

قلت بجديّة: الطريق العادي المصنع - الجديدة.

مرت في عينيه نظرة هزة واستخفاف:

- إذن... هذه المرة لم تتسلقوا جبل الشيخ عائدين إلينا، كما فعلتم يوم هربتم

من دمشق؟

بادلته نظرة الاستخفاف بمثلها وقلت مبتسماً نصف ابتسامة:

- لم نحتاج...

ثم أصلحت التعبير المتهمك:

- لم أحتاج هذه المرة لا للشيخ ولا للجبل.

قطب. صمت هنيهة. قلب الملف الذي تضمن معلومات عني وعن

هروبي... حملها أحد كتبة التقارير الى الاستخبارات.

غير لهجته ونبرات صوته وعاد الى صيغة المفرد:

- علمت انك رب عائلة. فانصرف اليها. مالك وللسياسة، إترك لغيرك ان يعمل

فيها.

ثم علت نبرة صوته المغلفة بالتهديد والوعيد:

- نحن يا استاذ... سنراقبك. فان تحركت يمنية أو يسرة بشكل لا يعجبنا،

استضيفناك في «المزة» وساعتها ذنبك على جنبك .

جمع أوراق الملف . ألقمه درج مكتبه . وقف منها المراقبة . انسحبت وحيداً ، بينما بقي عبدالكريم الدندشي جالسا على كرسیه ، لعلها كانا سيناقشان مهمة ذات شأن ! فلقد قيل الكثير عن صلات الدندشي بجهاز عبدالحميد السراج ، الى أن أزفت ساعته ، فاذا بيوم [أظنه كان في أواخر عام ١٩٥٩] تزورنا فيه زوجته اميمة ومعها بناته غزوة وسحر وابنه محمد ، طالبين من زوجتي ومني تسديد دين عبدالكريم عليّ . فلقد زاره زوار الفجر . اقتاده سامي جمعة [أبو سمير] الى المعتقل الرهيب .

— ٤ —

لم تكن الكتابة عالماً غريباً عني ، فوالدي المهندس الزراعي الراحل وصفي زكريا ترك للمكتبة العربية مؤلفات عدة في العلم الذي وهب حياته له كما في التاريخ وعلم الاجتماع والآثار والزراعة ، . لقد دخل بيتنا أدباء وسياسيون ومفكرون ، كان لهم شأنهم في هاتيك الايام . لكن الصحافة كانت مجالاً لم أختبره ما لبث بعدما تسلمت من نخالتي راسمة الرئيس ادارة جريدة «القبس» ان أصبحت قضيتي ، ومهنتي ، كما صارت الصحافة حرفتي ومهنتي وغرامي وحيي !

ذات صباح سعى اليّ وانا في مكتبي في «القبس» ، المغترب الاميركاني السوري الاصل [جيم] نجيب منهل ، يطلب مني الانضمام الى مؤسسته ، فهو كان عاد الى بلاده للتنقيب عن النفط . فاعتذرت لضيق وقتي وانشغالي المهني على مدار الساعة ، لكنه أصر ، بل توسط زوجتي التي كانت تربطها بزوجته هند صلاح خانكان صداقة حميمة ، بأن أساعده كمستشار صحافي .

وما كنت أعرف ان عبدالحميد السراج [الذي لم يكن وقتها قد صار عديلي] يحاصر هذا الرجل بالريبة والشك والحقق فيندفع الى تحطيمه والقضاء على مؤسسته ويعرقل استثمار النفط في سورية ٣٥ عاماً .

كان نجيب منهل قد تجاوز السبعين من عمره . الروعة لم تسحب منه جميع أذيالها . وقور في حديثه . رصين . تشرب الطبع الاميركاني في حدته الصريحة ، فكان يجاهر بها غير هيّاب بردود فعل محدثه حياها . كان كريهاً ، معطاء وهو القادر . . . على أن أهم تلك الخصال انه كان صادقاً في قصده تحويل ملايينه الى وطنه الام لاستخراج النفط من أرضه ، فيستقوي به ليتسلج ويتذخر لمحاربة «اسرائيل» . فالرجل الذي يملك الملايين من آبار نفطه في تكساس ، ما كان له ان يتكبد كل هذا العناء والجهد والانفاق الهائل من أجل سعي وراء قضية خاصة . ومع ذلك . . .

عانى الامرين منذ ان بدأ يسعى للحصول على رخصة تنقيب واستثمار للذهب الاسود الواصل من استخراجها من منطقة حفریات حقل «قرتشوك» الواقع في أقصى الشمال الشرقي السوري القريب من نهر دجلة.

كان وزير الاشغال العامة والمواصلات في حكومة صبري العسلي، عامئذ، النائب عبد الباقي نظام الدين شقيق النائب زكي واللواء توفيق نظام الدين ذو الخبرة القليلة لذلك وجد في نجيب منهل مجالاً خصباً للمماطلة والمماحكة، فأخذ بالتورية والممانعة وانتحال الاعذار وشدد في الهجوم عليه كلما حاول المغترب العائد الى وطنه الحصول على رخصة لاستثمار النفط اذا تفجر النفط!

قضى نجيب منهل الاشهر الطويلة، يدور من دائرة الى دائرة، يتهالك عليه المتفعون ويحوم حوله الوسطاء كل يعرض عليه خدماته. وكل يضع في جيبه ما قسم له... ويعطي لمنهل ظهره ويمشي...

تراخى على مقعد وثير في منزلي. انتابت نبرات صوته اعياء وهو يقول لي بلكنة عربية مكسرة:

- هل سمعت بضابط في الجيش اسمه عبد الحميد السراج؟

اطفأت السيكارة في صحن الدخان. ورميته بنظرة ارتياب:

- نعم... اسمع بالضابط عبد الحميد السراج...

انفجرت أساريه. تولاني غضب مقيم فقلت له بنبرة حادة:

- مالك وله... لماذا تسأل عنه؟

سوى من جلسته وتكلف الجدية في الكلام:

- قيل لي اليوم... انني اذا توصلت الى عبد الحميد السراج حصلت على رخصة

الاستثمار...

رفعت حاجبي دهشة:

- لكنه ضابط استخبارات و...

وكدت ألحق بهذه الكلمة اشنع النعوت، فتماكت نفسي وتابعت بهدوء:

- يا نجيب... ما دخل ضابط استخبارات مثل السراج بالنفط والتنقيب عنه؟

ضحك نجيب منهل كأنه لمح في وجهي غباوة وقال:

ألا تعرف ما لضباط الاستخبارات من نفوذ في الدوائر السياسية الحاكمة...

«ندنا» في الولايات المتحدة لا البيت الابيض ولا وزارة الخارجية يحكماها. الذي

يحكم هو جهاز C.I.A عبر عناصره في البيت الابيض ووزارة الخارجية...

وانتشی كأنه كسب جولة الحديث. أطلق في المكان ضحكة عالية فرآني مطرق

السمع مندهشا لكلامه ، فتابع :

- ان هذا الضابط الذي اسمه عبد الحميد السراج ، يستطيع بهاتف بسيط للوزير عبد الباقي نظام الدين ان «يأمره» باعطائي رخصة الاستثمار، فاذا مانع ضغط عليه بوساطة رئيس البلاد هاشم الاتاسي ورئيس الحكومة صبري العسلي... وإلا .

- وإلا يختفي في هجيع الليل ، أو يُقال من الوزارة في وضح النهار! سألتني زوجتي بعد ذهابه عن سبب تجمهم وجهي ، وكانت شقيقتها مَلَك قد زارتنا . فأخبرتني ما كان من أمر نجيب منهل وما قاله لي عن عبد الحميد السراج اذكر ان مَلَك كانت مطرقة الى الحديث بانتباه ، وقد لمع في عينيها بريق غريب ، لم أعره اي اهتمام .

في اليوم التالي ، جاءت مَلَك الى مكتبي في «القبس» علي غير عادة منها . سألتني عن مدى علاقتي وثقتي بنجيب منهل ، فأجبتها انه وزوجته - كما تعلمين - صديقين حميمين لي ولزوجتي ، اضافة الى انني اثق به لدرجة انني أعطيه جهدي الصحافي في ترتيب حملات اعلامية لمؤسسته ، واتبعت كلامي بالسؤال :

- لماذا اهتمامك بالامر؟

قالت : أستطيع تدبير الرخصة .
- كيف؟ . سألتها هازئا .

فقلت بنبرة حادة : هذا شغلي مقابل مليون ليرة سورية!

- ٥ -

كان غسان الالشي بين شلة من أربعة ، [يعرفهم الدمشقيون بالظرفاء] أظرفهم واكثرهم دالة على من تبقى من أصحاب العزم في الدولة . . . فهو النجل الثاني لرئيس وزراء سورية الاسبق جميل الالشي الذي حكم مع الرئيس تاج الدين الحسني في ظل الانتداب الفرنسي .

كان بديناً ، قصير القامة يمشي متهدلاً من فرط السمنة . يعاقر الخمر حتى تضجر منه ، وما مد مرة يده الى كأس وراء ستار من التصون والتخفي ، بل لعله استباح لنفسه في سبيلها كل الاماكن والمناسبات . . . التقيته مرارا في منزل صهري تاج الدين الخياط زوج اختي نجوى الراحلة . . . فتوطدت صداقتنا ، على انني كنت أحاذره ، فقد حامت فوق رأسه شبهات كثيرة حول علاقة له بعبد الحميد السراج . واذا بالامر كان لا يتعدى الشبهات والاشاعات ، الا انه في حبه للظهور بمظهر القادر

على حل الامور لدى الضباط اصحاب العزم ، والتحدث امام الناس باسمائهم ، ما كان يؤكد تلك الشبهات والاشاعات ، ولا كان ينفيها!

جاءني غسان الالشي الى «القبس» ذات صباح من صباحات آذار (مارس) ١٩٥٦ وعلى وجهه الدقيق الملامح ما شعرت انه يريد مفاتيحي به .

ما كدت اجيبه عن سؤاله عن حالي ، [وفي اعتقادي انني اتحدث الى «الصديق» لا الى «المخبر» في غسان الالشي] ، بالقول انني اشعر بالضيق ، تحاصرني العيون المسنونة ، ترصدني ، تحصي علي تحركاتي ، كيفما امضى واينما حللت . . . حتى انتفض من مقعده . وكمن كان يخاف ان يكون خلف باب المكتب من يحشر اذنيه فيه ليتنصت علينا ، اخذني بيدي وقال : «تعال نكمل الحديث خارج هذا المكتب» . وأشار الي ونحن ننزل الى الشارع بان نركب سيارته «الفولكسفاغن» الطحينية اللون . فانصعت ولم أكن اعرف ما كان يدبره لي . . .

أغلقت باب السيارة وأدار المحرك . انطلق على طريق بيروت الموازي لنهر بردى . كان يكثر من التطلع في المرأة الصغيرة ، ثم في المرأة الجانية ، كأنه كان يريد ان يوحى الي بأن هناك من يلاحقنا . مسح فمه باصابعه وقال بجدية :

- ما سمعته منك في المكتب يدل على انك لست سعيداً بالبقاء في دمشق . . . فلماذا لا تعود الى بيروت؟

اجبته باستخفاف : «عال . . ماذا تقترح يا استاذ؟» . . .

نشر على وجهه علامات الخذر ، ورمقني ، بعيني ذئب يتحين بسنوح الفرص للانقضاض على فريسته وقال بتمهل :

- بيني وبينك . . العيون محمرة عليك في الاركان العامة . وهذه المرة لن تسلم . . . لكني بحكم صداقتي لك ولصهرك وشقيقتك تدبرت الامر وسعيت جهدي لكي أحصل لك على اجازة تستطيع بها ان تعبر الحدود عائدا الى بيروت .

مد يده الى جيب سترته الداخلية ، واخرج منها ورقة ظلت في يده وتابع :

- بهذه الورقة تأمن جانب الاستخبارات وترتاح من الذين يحصون عليك انفاسك وينتظرون الفرص لالقاء القبض عليك ورميك في المزة طعماً للجلادين .

غلطني كلامه بغشاوة سوداء ، فما عدت ابصرت . . وتصارعت الافكار في رأسي :

هل بدل راشد قطيني موقفه مني وعاد يطلبني الى التحقيق؟

كانت السيارة قد تجاوزت ساحة الاموين ، ورحنا نمر في طريق شارع كيوان قبل ان نصل الى مفترق يذهب بنا مباشرة الى بيروت أو ندور يسارا لتسلك هضبة تصل بنا في النهاية الى سجن المزة العسكري .

عند ذلك المفترق، خنق غسان الالشي صوت المحرك . استدار وتلاني برهة .
بدأ يرجوني ان آخذ كلامه على حمل الجد، فاغادر دمشق الى بيروت . عرض علي
ان يوصلني بسيارته الى الحدود، والا فسيضطر الى الصعود بي تلك الهضبة الى
بوابات سجن المزة الرهيب .

تجمع غضب الدنيا في عيني ، وانتفضت صائحا به :
- خذني الى حيث شئت . اني لن أغادر دمشق ولن أترك عملي .
وانهلت على الاستخبارات والضباط بالنعوت والشتائم . تركني اخرج ما فاض
بي، وقد ذهله انفعالي، فقال وقد تغيرت ملامح وجهه من ذئب شرس الى حمل
وديع :

- ما أشد غباوتك . خفف انفعالك . سأعود الى الاركان العامة . سأتحمل وزر
تدبير الامور . كل شيء بعد أيام سيكون على ما يرام .
لم أعرف كيف صعدت درجات سلم بناية صحيفة «القبس» في شارع بور
سعيد . بقيت ساعات في مكثبي ، انتفض قهرا ومذلة واشمئزا . كان اول ما فعلته
ان اتصلت بخالتي راسمة الرئيس . اخبرتها بما حدث بايجاز ليقيني بأن خطوط
هاتفي مراقبة [وقد عرفت فيما بعد ان كل مكالماتي كانت مسجلة . . . فلم يكن
راشد قطيني يكذب عندما قال لي سنراقبك] فطلبت مني أن أمضي اليها في نهاية
النهار .

مرت بي ساعات النهار، بطيئة، بقيت في حيرة من امري ، كيف اكشف حقيقة
ما قاله لي غسان الالشي ، هل فعلا العيون محمرة علي . . . ؟ فقررت ان اعرف
الحقيقة من مصدرها . لمعت في خاطري فكرة استدراج ملك ، التي كانت تصلني
اشاعات تؤكد ريبتي وشكي بعلاقتها بعبد الحميد السراج ، على الرغم من تمنعها
ونكرانها الامر لي لما جاءت مع شقيقتها [زوجتي] تزورني في بيروت . . .

★ ★ ★

رحت أروي لهم ما حدث . كانوا يصغون الى كلامي وفي وجوههم تدور عيون
مستغربة ، مستفسرة ، حائرة . . . والدي . والدي . زوجتي . شقيقتي . صهري تاج
الدين الخياط ولديه زياد وصفوان . . .

كنت وأنا اروي لهم ما دار بيني وبين غسان الالشي ، اتهمل في حبك الخدعة ،
فاستبدلت عودتي المبكرة من درب كيوان ، ومفترق سجن المزة ، الى القول بانه
اخذني الى مركز الشرطة العسكرية في حي البرامكة ، واني دخلت الى غرفة كان فيها
عبد الحميد السراج ، واكرم الديري وبرهان قصاب حسن . . . فسألوني عن

نشاطاتي وأعمالي . هددوني اذا ما تحركت يمنية او يسرة او مارست نشاطاً ، بأكثر من المزة . . .

قلت كلامي هذا ، وتركت على وجوههم علامات الذعر والخوف والقلق . وانتظرت ردة فعل زوجتي على كلامي المبالغ فيه ، فقامت بسرعة الى الهاتف في الغرفة المقابلة ، سمعناها تتحدث الى شقيقتها ، تدعوها الى الحضور بسرعة . بعد نصف ساعة دخلت مَلَكٌ علينا ، وما كادت تسأل عن أسباب استدعائها ، حتى تولت خالتي شرح تفاصيل ما رويت ، وختمت كلامها قائلة : «هذا السراج ليخاف الله ويترك الناس تعيش بهدوء وامان» . وما خاب ظني . خرجت مَلَكٌ بسرعة ، وكنت باستثناء زوجتي ، الوحيد الذي يعرف الى أين كانت ذاهبة .

★ ★ ★

قبل ان يسكت صهري هدير محرك سيارته الـ «تاونس» الالمانية ، في طريق عودتنا من بيت خالتي في تلك الليلة ، لمحت على بعد خمسين متراً سيارة الفورد البرتقالية اللون [المصادرة من جورج عبدالمسيح ، التي تحولت الى سيارة مفرزة سامي جمعة] ، تقف امام البيت . توجهت شرا . حاولت ان لا أبدي اي انفعال . وما ان توقفت سيارتنا حتى داهمتنا سيارة أخرى قاطعة الطريق علينا . نزل منها سامي جمعة واربعة من عناصره . احاطوا بالسيارة ، بينما تقدم جمعة باتجاهي طالبا مني فتح النافذة :
- ماذا تريدون منا في هذا الوقت من الليل ؟

وصله صوتي حانقاً . ابتسم كأنه يريد ان يزيل توجسي وريبي قائلاً بصوت خفيض :

- المقدم يريد ان يحكي معك كلمتين !

لا هو قال ولا أنا كنت بحاجة الى طويل شرح لأفهم ان المقدم الذي يعنيه كان عبد الحميد السراج .

همست زوجتي في أذني : لا تخف فكل شيء مرتب .

- ٦ -

تمهل سامي جمعة . استدرت لأرى سبب تطلعه المستمر في المرأة الصغيرة ، فوجدت ان سيارة أخرى تلحق بنا وفي مقعدها الامامي ، كان صهري تاج الدين الخياط . وعلى ما يبدو كان «ابو سمير» لا يريد ان تضيعنا السيارة فسائقها لم يكن يعرف الى أين نتجه .

لم يحاول ان يكلمني . كنت اتفرس في وجهه وأردد في بالي : «هذا هو اذن سامي
جمعة [أبو سمير] الذي يرعب الناس ويقض مضاجعهم بلا هوادة» . أحسست بألم
يعتصر معدتي . لكن رحلتنا لم تطل ، فمن شارع عبدالرحمن الشهبندر الى شارع
الروضة . . . رمية حجر . . .

بسرعة اتجه سامي جمعة بالسيارة الى احدى البنايات ، ألصقها بالجدار ساداً
الباب علي . طلب مني النزول منها من الطرف الايسر ، دافعا بي الى اجتياز الشارع
والدخول الى بناية طالما وصلتنا اخبارها الى بيروت ، وقرأت عنها في «صدى لبنان»
و«النهار» ، و«الحياة» للشهرة التي لحقت بأقيبتها ولحفلات التعذيب الطويلة التي
مورست خلف جدرانها .

نزل سامي جمعة امامي . فاذا بقبورين مفتوحين امامنا . مقعدان خشبيان في
وسطهما ، ومنضدة خشبية نخرها السوس في الزاوية . جلسنا [صهري وأنا] على
المقعد الخشبي . بدأت اتفحص المكان بعيني : حيطان عارية ، وسخة ، كلفت من
الرطوبة . يصطدم الضوء الشحيح المنبعث من لمبة كهربائية بخيوط العنكبوت .
تختلط روائح دخان السجائر مع روائح الرطوبة النتنة .

كان السكون يهدم الاعصاب . دقائق الانتظار تمر ممضية . احسست بحبات
عرق بارد ترصع جبينني ، مسحتها بحركة عصبية . لحظات ، سمعنا صراخا
متقطعاً ، ساد بعده صمت بليد . فجلبة . دعسات متسارعة ، واحد نزل مسرعاً
ودخل القبر الايسر . وآخر كان يحمل سوطاً يضربه على جزمته وهو يصعد السلم .
دقائق ودخل سامي جمعة علينا : «تفضلاً» قال بنبرة هادئة .

لحقنا به الى القبر المقابل . كنت الاول في الدخول . صهري خلفي . فاذا بي
وجهاً لوجه ، أمام عبدالحميد السراج الرجل الذي كنت رأيته مرتين : مرة في مطعم
مطار المزة ومرة ثانية في فندق اكسيلسيور في بيروت .

مد لي يده مصافحاً . جلسنا قبالة ، بالكاد نسمع صوته وهو يعتذر لنا على
اسلوب احضارنا . «فظروف عمله ضاغطة» ! ثم نظر اليّ وقال :

- ما هي قصتك مع غسان الالشي ؟

رويتها له ، كما حدثت . ولم آت على ذكر مقابلي له ولاكرم الديري ولبرهان
قصاب حسن في ثكنة الشرطة العسكرية في البرامكة . واعتقد انه فهم عليّ لأنه
رمقني بابتسامة خبيثة وقال : اذن لم تقابلني في أي مكان ؟

- لا . . . و . . .

لم يدعني اكمل . فكر برهات . قطب ثم صاح : أبا سمير جثني بغسان الالشي .

كان الالشي في ذلك الحين يحضر جلسة المحكمة العسكرية التي تحاكم من اتهمهم السراج بتدبير محاولة انقلابية على الدولة السورية، بينهم النواب الدكتور منير عجلاي، الدكتور عدنان الاتاسي، هایل سرور، فضل الله جربوع، اضافة الى الدكتور عدنان العائدي شقيق المهندس المعروف عثمان العائدي والصحافي الراحل سامي كباره صاحب جريدة «النضال» ومجموعة من الضباط القوميين الاجتماعيين وبعض شيوخ العشائر وفعاليات سياسية واقتصادية في المدن السورية الكبرى.

كان غسان الالشي في ذلك اليوم في عداد الذين تقاطروا لحضور سيرك الرعب وسط قاعة الجامعة السورية، التي حولها السراج واعوانه من معهد للعلم والثقافة الى تياترو للمقمع والارهاب والكذب والتآمر.

انتزعوه من بين الحضور. «فالسلطان» امر. وأمر «السلطان الاحمر» لا يرد. كان السراج يذرع الغرفة جيئة ورواحاً. لا يتكلم. ترمقه عيوننا بقلق. لم يمض بنا الوقت، حتى سمعنا، جلبة، اعقبها صراخ رجل يتلوى الماء، تدحرج على الدرج وارتطم رأسه بالجدار فشقه وحنى الدم وجهه. حملته العناصر وهو يترنح ودفعوه الى وسط الغرفة، فارتمى على ظهره. تقدم منه السراج وضغط بقساوة على بطنه مزجراً: - يا قواد ساربي فيك القمل والصبيان، تأخذ الناس من مكاتبهم وتطالبهم بالهروب الى لبنان أو الصعود الى المزة؟ .

بعدها رفع رجله عن بطن غسان الالشي وأخذ يركله بخاصرته! بعدها أمسك بشعره ورفعته عن الارض، وأخذ ينهال عليه باللكمات والصفعات. فصار غسان الالشي يتلوى ويصرخ مستغيثاً: يا ابا حمدو [هكذا كان السراج يلقب قبل ان رزق مولوده البكر فراس] انا داخل عليك... داخل عليك... طول بالك علي... دخيلك... .

وكلما زاد في الاستغاثة، كلما انهال عبد الحميد السراج صفعا وركلا مردداً: قل لي من يحملك؟ من يعطيك الاوامر من دون علمي؟

كأن السراج يشير الى أطراف أخرى لها تأثير ولها نفوذ ولها عناصر.؟ هشام العظم مثلاً الذي كان يرأس الشرطة العسكرية، والالشي محسوب عليه! كان العرق يتصبب من السراج، والرجل الذي كان يحدثنا بهدوء وبمتهني التهذيب تحول الى ذئب شرس لا يشبع من فريسته. لم أعد احتمل، فانتصبت رافعاً صوتي بمواجهته:

- كفى... كفى... فليس لي من حق عنده... اما من يعطيه الاوامر ليرعب

الناس ويهددهم فهذا شأنك أنت . . حاسبه ولكن ليس امامنا .
هدأ السراج . مسح يده من الدم بمنديل . جلس دقائق صامتاً . ثم صاح
بسامي جمعة ان يأخذ غسان الالشي الى المزة . ووقف يعتذر منا : «عودا الى منزلكما ،
لن يزعمكما احد بعد اليوم» .
لما دخلت البيت كانت مَلَكٌ تتظرفني . نشرت على وجهها ابتسامة المنتصر .
ابتسمت بدوري ، فلقد تكشفتم امامي الحقيقة فبينها وبين السراج . . . معرفة .



عبد الحميد السراج ونجله فراس

الفصل الرابع

بلاط السلطان



- ١ -

ما كدت أضع الابرّة على اسطوانة سيمفونية سيرغي بروكليف الاولى، حتى طلع عليّ صوت زوجتي تقطع اسياب الموسيقى عني:

.. ان عريساً يريد خطوبة مَلَكٍ ويرغب في زيارتك لطلب يدها رسمياً.
ضحكت: لماذا انا؟ لماذا لا يذهب يطلبها من أبيك الأغا او من اخوتك وعددهم اكثر من عدد اصابع اليدين والرجلين؟ [كان الأغا علي زلفو مزواجا . تزوج من اربع ورزق من زيجاته ١٨ ولدا وبناتاً].
قالت بشيء من اللوعة: تعرف جيداً ان والدي يقاطعنا وشقيقي أحنف لا يريد ان يسمع بنا، ولم يبق غيرك في العائلة ليتعاطى مع الشكليات .
وافهممتني بأن مَلَكٍ قد اتفقت مع الشاب على الزواج، وما تبقى هو «الشكليات» التي عنتها.

سألتها بتبرم: من هو العريس ؟
حدقت في وجهي ملياً وأجابت بصوت خفيض: عبد الحميد السراج.
اجتاحني موجة من الغضب. شعرت بحاجة الى الزعيق. تصلبت شرايين رقبتي. احسست بالاختناق. صرخت في وجهها: هذا السفاح معتقل الاحرار والحرائر يصبح عديلي؟ .
أزحت يدها عن فمي وتابعت صراخي: «ابدا... لن استقبله، ولا أريد ان تكون لي اية علاقة بالامر .

تركتني أهذاً ثم قالت: انها اختي وستزوج السراج بك أو بدونك فلا توسع الخرق بيننا، انها مجرد زيارة ليس الا، وبعدها نرتب الامور ضمن العائلة .
لملمت بأصابعي دمة غدرتها فسالت على خدها... وعرفت ان لا خيار لي في الامر. وان ما كنت اعتقده وثبت لي ان علاقة الصداقة، كانت اكثر من ذلك. فلقد ساكنت مَلَك «السلطان الاحمر» في شقته القريبة من شارع ٢٩ ايار في منطقة عين الكرش، بعدما كان انهي بزمّن علاقته بناديا مومس «بحسيتا» .

كانت ايام شهر ايار (مايو) عام ١٩٥٦ على خواتيمها ، لما اخبرتني زوجتي ، أن السراج آت لزيارتنا للقيام بـ «الشكليات» . اذكر ليلتها ، انني كنت جالسا الى ديوان في غرفة الاستقبال واعصابي مشدودة . كنت أرمي نظري على الباب بعصبية . حاولت ان أتمالك نفسي ، فما أستطعت . هزني جرس الباب . فرأيت خلف زجاجة رجلا طويل القامة يرتدي بزة عسكرية ، فانتصبت ، اغلبي غضبا ، ورفضت «أبا جور» الغرفة بقدمي وقفزت الى الحديقة [التي تسلفت سورها قبل عشرة أشهر هاربا] واستسلمت الى الشارع ، استنشقت الهواء الربيعي ، فلم أكن أستطيع قبول ذلك الرجل في بيتي وحياتي .

ولأنه كان حقودا ، لم ينس رفضي استقباله في تلك الليلة . ابقاني خارج دائرة التعاطي المباشر معه ، فامضيت فترة نسابتي له حتى شهر نيسان (ابريل) ١٩٦٣ أراه نادرا ، أحدثه نادرا ، والتقيه نادرا .

بعد يومين كنت في زيارة لصديقي الراحل زهير لحام ، وكان يدير «مكتب اعلانات سورية» حين دخل علينا نقيب الصحافة السورية ، في هاتيك الايام ، وصاحب جريدة «الايام» الاستاذ الراحل نصوح بابيل . وجرّ بنا الحديث ، فذكرت لهما خبر خطوبة عبد الحميد السراج ، الذي كان رفع الى رتبة مقدم ، لشقيقة زوجتي واني - لا فخر - صرت عديلا لـ «السلطان الاحمر» .

لم أدر ان نقيب الصحافة الراحل سيعتبر من ذاك الخبر سبقا صحافيا ، فيهرع الى مكاتب جريدته . يكتب الخبر وينشره في الصفحة الاولى . وكأنه - رحمه الله - يحرر فلسطين او يستعيد القدس !

في صباح اليوم التالي ، كاد المقدم طلعت صدقي [مساعد السراج] يستدعي نقيب الصحافة الى التحقيق بناء على طلب من السراج . فلقد ساء «السلطان الاحمر» ان يُنشر خبر خطوبته ، وهو كان يريد ان يبقى سرا . وساءه اكثر انني كنت الذي اعطى نصوح بابيل الخبر .

ومثلما خطب السراج تزوج ، بعيدا عن اعين الناس واعمدة الصحف . عاش متكتما ، ومارس بطشه متكتما ، وهو الآن يقبع في القاهرة متكتما . . .

- ٢ -

ألحت عليّ ، فكلمته . وجدت نجيب منهل عند سماعه الكلام لا يمانع . فاصطحبني بسيارته «الكاديلاك» الزرقاء . يقودها سائق اسمه جوزف [فاتني اسم عائلته] الى «بنك سورية ولبنان» المواجه لمبنى سينما العباسية [اصبح حاليا البنك التجاري السوري فرع رقم ٦] تركني والسائق . دخل البنك وعاد بعد عشر دقائق وقد حشر

في جيبي سترته مظروفين متخمين باوراق نقدية . ما ان أغلق باب السيارة حتى طلب من جوزف التوجه الى منزلي ، حيث كانت مَلَكُ تنتظرنا . سلمها المظروفين . تحادثا على انفراد . وَعَدَتْهُ خيرا . انصرف مبتسما . لحقت به عائدا الى «القبس» ! في اليوم التالي ، فاجأتني زوجتي بأنها دعت عبدالحميد السراج وزوجته مَلَكُ الى العشاء . فأوقعني بحرج .

لم يبدر من مَلَكُ طوال السهرة اي كلام يدل على ان زوجها على علم بالمال الذي طلبته من نجيب منهل مقابل حصوله على رخصة الاستثمار . ترى هل كان عبدالحميد السراج يجهل فعلاً ما كان من اتفاق بين زوجته ونجيب منهل؟

بقي عبدالحميد السراج طوال الوقت مصغيا الى أحاديثنا . شارد الذهن . لم يخطر ببالي لحظة واحدة انه في صباح اليوم التالي كان يحضر لحادث آخر سيهز سورية من جديد . كما انه لم يتبادر الى ذهني وهو ضيفي ، انه سيرسل في اليوم التالي عناصره يقتادونني شبه مخفور من مكثبي في «القبس» . . . اليه .

- ٣ -

ابتلعت ما تبقى من فنجان القهوة مرة واحدة . كدت أحرق أصابعي وأنا أطحن السيكاارة في صحن الدخان بعصبية . أحسست بانقباض عندما كانت حنجرة المذيع تتوسل الخطابة ، وهو يفرغ في أذني خبر الكشف عن مؤامرة لبغداد أصابع فيها ، للاطاحة بالنظام ! وقبل ان تغدوني موسيقى المارشات العسكرية التي اعتاد عليها السوريون ، وأصبحت نذير شؤم يحمل اليهم المزيد من القمع والتسلط والارهاب ، أزحت إبرة الراديو، أفتش بها عن صوت آخر .

«مؤامرة» . . . «اطاحة بالنظام» ! كانت هذه الكلمات تطن في رأسي . تجمد وجهي على المرأة . بدت الدهشة في عيني وأنا أمرر أصابعي على عقدة ربطة العنق . استحضرت أمامي وجه عبدالحميد السراج الذي أمضى ليل البارحة عندي حتى منتصف الليل ، لم أذكر ان ارتسمت على وجهه علامة قلق واحدة . . . او بدر منه ما يوحي بأن في البلد «مؤامرة» . هل يعقل أن يمضي رئيس الاستخبارات وعين البلاد «السااهرة» الليل في بيتي والشام على كف نوري السعيد ومن قال المذيع انهم «عملاء» و«خونة» يريدون النيل من «سلامة سورية والوطن العربي»؟ !

كل شيء كان عاديا في الشارع ، الا الصحف . . . لم تعد المارشات العسكرية ولا الحناجر المسعورة الملتهبة ، تهز الناس ، تربكهم . فهم اعتادوا عليها ، تعدهم بالخير والخبز والرفاه ، فما نالوا منها غير الشر والجوع والارهاب . . . دارت نظراتي في الصحف المعلقة في الاكشاك ، عناوينها النافرة كانت تطفح بالتنديد ببغداد وبالعَمَلَاء ، وتدل على الاسماء : سعيد تقي الدين . غسان جديد . أديب

الشيشكلي . حسن الاطرش . زيد الاطرش . فضل الله ابو منصور . عدنان العائدي . صلاح الشيشكلي . منير العجلاني . محمد صفا . عادل العجلاني . عدنان الاتاسي . ميخائيل اليان . محمد معروف . بيبريس أنجوق . سامي كباره . عبده وهبه . شوكت صفطلي . صبحي العمري . فيضي الاتاسي . . .

وتبارى الكتبة في كيل النعوت وتجميع الوقائع لا كما حدث انما كما وزعتها عليهم أجهزة السراج ، وكما أوردتها فيما بعد يوسف شقرا ، قاضي التحقيق العرفي في دمشق ، في قرار الاتهام بعد اطلاعه على ادعاء النيابة العامة العرفية الاولى في دمشق رقم ٢٢٢٦/٣٠٧٧ بتاريخ ١٩/١١/١٩٥٦ . فذكرت الصحف ان « المتآمرين » ، كانوا يحضرون لانقلاب يستهدف قلب نظام الحكم ، واقصاء الشيوعيين والاشتراكيين عن السلطة وان النية كانت متجهة للقيام بالانقلاب قبل سفر الرئيس شكري القوتلي الى موسكو ، الا ان « المتآمرين » أثروا تأخير الفعل . حتى يعود قوتلي ليسهل القاء القبض عليه ، بينما يستطيع اذا ما تم الانقلاب في غيبته عن البلاد ان يلجأ الى القاهرة ، ويفلت من الاعتقال ويظل يعتبر نفسه الرئيس الشرعي !

سبقني الى مكتبي ، صوت ياسين نويلاتي ، مدير تحرير « القبس » ، يستعجلني الاتصال بعبد الحميد السراج للحصول منه على تفاصيل هذه « المؤامرة » ، علّه يفوز بسبق صحافي ، معتبراً ان « خصوصية العلاقة » بيني وبين « السلطان الاحمر » بحكم النسابة ، ستمكنني من الحصول على تفاصيل وخفايا تنفرد « القبس » بنشرها ، خصوصاً انها تصدر ظهر كل يوم . . .

تملكت الحماسة ياسين نويلاتي ، سخا في حركاته العصبية لما رأي أتبالد في مجاراته حماسه . لم أشأ أن أكشف له ان بيني وبين « العديل » علاقة باردة ، واننا لا نجتمع على رأي ولا تصرف . . .

ضاق بي الحاحه ، فأمسكت بساعة الهاتف ادير القرص . ارسم أرقام « الاركان العامة » باصابع مترددة على الطرف الآخر ، كان صوت الجندي المناوب على البدالة ، رخيماً . أعطيته اسمي . سألت عن السراج ، غاب عني الصوت ثوان معدودات . احتلني شعور غريب بالامتعاض والراحة في آن معا ، لما قال لي : ان حضرة المقدم غير موجود .

لم تمض عشر دقائق ، حتى دخل عليّ الحاجب يعلن ان شخصاً يريد مقابلي . أومأت أن دعه يدخل . فاذا بسامي جمعة منتصباً امامي . احتويته بنظرة مستفسرة بدّدها بابتسامة عريضة :

.. المقدم يريدك في مكتبه لبضع دقائق .

انفرجت أساريري ، احسست انني على قاب قوسين من سبق صحافي . صحت بياسين نويلاتي وأنا أمر بمك : سأعود بها تريد . .

مدّ أصابعه الى علبة سكاثره . حشر واحدة بين شفّتيه الغليظتين وأخذ نفساً طويلاً . حاول ان يجدل الحديث بيننا، ولما رأى لا أبالي، ضغط على زر الراديو في السيارة . سار بي الى حي الصالحية، حيث مبنى الاركان العامة . بلمح البصر . اشار الى المدخل الغربي للمبنى ، ومد خطواته وأنا خلفه في ممر طويل على طرفيه مكاتب ضباط «الشعبة الثانية» [الاستخبارات] . استغربت عدم شعوري بالانقباض وأنا أقرأ الاسماء على ابواب المكاتب المغلقة، وتذكرت يوم دخلت هذا المبنى مع عبدالكريم الدباح الدندشي . . .

توقف سامي جمعة أمام غرفة الى اليمين في آخر الممر . أشار اليّ أن أقف . دخل . فرقع كعب حدائه وهو يأخذ التحية ، ثم عاد يدعوني للدخول ، فاذا بي أمام رجل كان مع برهان أدهم [ابو ابراهيم] مندسا بين القوميين في بيروت . المقدم طلعت صدقي . . . فاعتقدت للوهلة الاولى ان سامي جمعة قد ضلّ طريقه الى مكتب المقدم السراج ، فأدخلني مكتب المقدم صدقي ، ولم يتبادر الى ذهني لحظتها انه لم يحدد لي أي «مقدم» يريدني في مكتبه لبضع دقائق!

تكلف طلعت صدقي الابتسامة . ثم تغيرت ملامح وجهه المنبسطة وقال بنبرة تجمع فيها الغضب : ما الذي فعلته بمعلمنا ؟

نشرت على وجهي علامات الدهشة : «من هو معلمكم ؟»

- عديلك . . . عديلك .

خطف الكلمتين خطفا .

- المقدم عبدالحميد السراج ؟ ألحقت كلامي بتعجب أزعجه فقال بغضب :

- كم عديلا عندك يا استاذ ؟ . . .

نفرت في وجهه : هو عديلي نعم . . . ولكنني لم أفهم بعد ما علاقة ذلك بك وبما

تتهمني بأنني سببته لمعلمك . . .

عدّل جلسته ولهجته :

- لقد طلب مني بمستطير الغضب ان استدعيك فتهادث قبل أن يراك . لأفهم

منك تفاصيل قضية تكاد تهز الاركان كلها .

ما كاد ينهي آخر كلمة حتى طلع صوت السراج عبر الانترفون : «طلعت هل

وصل ؟»

- نعم سيدي .

- هاتو . . .

كان مكتب عبدالحميد السراج مواجهاً لمكتب طلعت صدقي . نقر على الباب بهدوء . فتحه . واذا بي وسط غرفة صغيرة مظلمة . الستائر الغامقة اللون تتكمش في النافذة اليتيمة بأحكام تمنع النور من التسلسل من زاوياها . النور الوحيد كان يأتي من

مصباح مكتب من النوع الذي يطوى ويحنى ، سلطه السراج على عينيه بحيث لا ترى في سواد الغرفة الا هما . على المكتب الخشبي ، اصطفت اكثر من عشرين آلة هاتف وعلى الارض اربع آلات . . . تسليت في عدها . وقفت دقيقة قبل ان جلست من دون استئذان ، انتظر فراغه من التحدث بالهاتف بصوت خفيض لا يكاد يسمع . فما أن وضع سماعة الهاتف حتى صرخ في وجهي : وقاف . . . هزني صوته ، فوقفت مندهشا فقال : الآن . . . اجلس . تجمدت عباراته على لسانه ، فتح عينيه على اتساعهما يحتوياني بنظرة حادة وقال هامسا :

- من أين جاءت الاموال الى جيبه سترتي الداخلية؟
رسمت على وجهي ابتسامة حملت كل براءة الدنيا :
- اموال . . . أية اموال؟ .

لم يتمالك نفسه . أحسست بلسع نظراته . امسك بدرج مكتبه ونثره الى الخلف . مد يده الى جوف الدرج ، سحب مطروفا واحدا ، عرفته على الفور بأنه واحد من اثنين كان نجيب منهل قد سلمهما الى مَلَك في بيتي . . .
- هذه الاموال يا استاذ .

ورمى المظروف في وجهي ، فتطايرت منه ألوف الاوراق النقدية زرعت ارض الغرفة .

تركته يحكي . ما عدت سمعت ما يقول . . . غامت الاشياء في عيني . انشغل تفكيري لحظتها بالتفتيش عن سر وصول المظروف المتنفخ بالاوراق النقدية الى جيب سترته . . . ثم أين المظروف الثاني؟ أين أخفته مَلَك؟ وبدأت أفكر كيف أجيبه وانقذ نجيب منهل ومَلَك في آن معا .

انتشلتني عباراته الاخيرة المتوعدة من غيبوتي البنفسجية :

- ان لم تقل لي الحقيقة كاملة ، سأرسلك الى «المزة» لتلحق بمن سبقك اليها من رفاقك .

تجمع الغضب في صوتي وحررت نفسي من سطوته ، فانتصبت أمامه . ثم اقتربت من مكتبه . تناولت المصباح بعصبية مفرطة وصوبته على كامل وجهه ، فرفع رأسه وقد علت وجهه تكشيرة قلت :

- تهددني «بالمزة» تريد ان تملي عليّ رعبك . . . هذه الاموال هي تكاليف حملة صحافية اعلامية لمشروع نجيب منهل للتنقيب عن النفط في «قرتشوك» سَل زوجتي تخبرك .

أعاد تركيز المصباح على عينيه . تملأني بغضب . استمهل ، ثم مد يده . انتزع سماعة الهاتف بهدوء . حديثه مع زوجتي بالكاد كنت اسمعه :

- أخبرني الحقيقة . . . حقيقة المال . . . المال .
- كفانا فضائح . . . خطوطي مراقبة . . . نعم عندي .
ومد يده يعطيني ساعة الهاتف ، انتزعتها من يده وصرخت :
- أخبريه . . . أخبريه الحقيقة كاملة ، وما جاء نجيب منهل يفعله في بيتنا ومن
قابل و . . . » .

لم تدعني أكمل . جاءني صوتها مليئا بالغضب :
- اترك مكتبه واخرج حالا . . . والا سأتي الى الاركان والعن . . .
وانهالت على السراج وضباطه بالسباب . هدأت من روعها . وضعت الساعة .
أدبرت له ظهري ومشيت نحو الباب . فانتصب حنقا وقال :
- عُذْ الي بكامل المبلغ . . . كامل المبلغ والا . . .
لم أرد . رميت عليه نظرة ازدراء و . . . خرجت . فلقد عرفت لحظتها انه كان
يبحث عن المظروف الثاني ، وظن اني قاسمت مَلَك ، فاحتفظت به ، في حين انها
اخفته عن زوجها !

بعدي استدعى عبدالحميد السراج ، نجيب منهل الى مكتبه في الاركان العامة
للتحقيق . فتولى العقيد جميل فياض والمقدم طلعت صدقي الترجمة ، فانصبت اسئلة
السراج على أسباب حصولي على المبلغ . فعلمت من نجيب منهل فيما بعد ، انه لقن
السراج درسا في حقوق الفرد وحرية تصرفه في المجتمع ، وانه تبعا لذلك فهو حر في
اعطاء ماله لمن يشاء . احتج على استدعائه . طالب الاتصال بالسفارة الاميركانية في
دمشق . . .

وطبعي انهم تركوه ، وطوي الملف . وما عاد السراج يأتي على ذكر مال نفظ
منهل . بقيت جاهلا مصير ذلك المال على مدى ثلاثة وثلاثين عاما ، حتى اكتشفت
عام ١٩٨٩ ، [نقلا عن جوان زلفو، شقيق زوجته] ، ان بعض ذلك المال قد أنفقته
مَلَك على تأثيث المنزل الفخم الذي انتقل اليه «السلطان الاحمر» في حي أبو رمانة
الارستقراطي . أما بعضه الآخر ، فقد أودع في حساب سري في أحد المصارف
اللبنانية ، ثم نقل الى سويسرة ، وان كان هذا يصعب اثباته بوثيقة ، فهو سهل لو
وقف عبدالحميد السراج امام قوس محكمة تحاسبه على ما ارتكبته يمينه وتسأله من
أين لك هذا؟

كل المظاهر كانت تدل وتؤكد لكل من كان حول «السلطان» وحواليه من أصدقاء
ومتزلفين ، انه كان يعيش في بحبوحة لا يوفرها مرتبه الشهري في تلك الفترة من
الزمن كرئيس للاستخبارات او كوزير للداخلية في حكومة «الاقليم الشمالي»
للجمهورية العربية المتحدة أو حتى لما صار نائبا لجمال عبدالناصر ، متحكما بملايين

السوريين لا في الشأن السياسي والاقتصادي وحسب بل في أدق أمور حياتهم الخاصة.

- ٤ -

- جواسيس... رعاع.
ابتلع عبارته مع ريقه لما تنبه لوجودي. اتجه نظري نحوه فرأيت بريقا غريبا، يملأ عينيه هو مزيج من التعالي والغضب.
اهتز حنقا في مقعده. أزاح عن عينيه جريدة «الرأي العام». رماها فوق الجرائد المكدسة امامه على منضدة السكاير، نظر اليّ يريد ان يسترعي انتباهي ثم أشار الى الصحف:
- كلهم يا استاذ جواسيس لجهة ما... كل من كتب حرفا في جريدة هو جاسوس.

استنفرني كلامه. طافت برأسي لحظة غضب، أحسّت بها مَلَكُ فاطلقت ضحكة شعرت بها ثقيلة على صدرها وغيّرت الحديث، لتستشيرني في شأن تعليم اخوانها الصغار عامئذ، دريد [المهاجر في اوسترالية] وصفوان [المهاجر في كندة] وجوان [العقيد المتقاعد في الجيش المصري]. كنت أجيبها عن أسئلتها ونظري بين الحين والآخر يذهب اليه وهو يقلب صفحات الجرائد. يقطب ثم تنفرج تجاعيد جبينه. ثم يعود يرميها على الأرض بجوار مقعده.

كان يعني كل كلمة قالها عن الصحفيين، فهو مثله مثل كل عسكري [أو أكثر العسكريين العرب] كان يخاف من الصحافة. على زمنه بدأت النظرة الى الصحفيين على أنهم عملاء وجواسيس، فانتشرت في أوساط الرأي العام السوري الرسمي ومنها انتقلت الى غيرها في الدول العربية. لذلك كان الجميع في نظر السراج موضع شبهة، فتساوى عنده أحمد عسه، الذي كان يرأس تحرير جريدة «الرأي العام» بسعيد فريجة عميد دار «الصيد» بنسيب المتني صاحب «التلغراف» الذي قتله في بداية «صيف الدم» عام ١٩٥٨ بوديع الصيداوي صاحب «النصر» ونصوح بابيل صاحب «الايام»، مع صحافيي الدرجة الثانية ومنهم نشأت تغلبي الذي كان قد عمل مراسلا لدار «أخبار اليوم» المصرية في دمشق، قبل ان يوصي به السراج خيرا لدى المشير عبدالحكيم عامر فعينه هذا الاخير مديرا لمكتبه الصحفي حتى يوم انتحاره بعد هزيمة عام ١٩٦٧.

كان السراج يعتقد ان من يقبض منه ليضرب بسيفه ويطرز له المقالات دفاعا عنه، فانه يستطيع ان يبيع قلمه لأول شارٍ يدفع أكثر... وربما الذي شجع «السلطان الاحمر» على هذا الاعتقاد تزلف الصحفيين له ووضع محابرههم واقلامهم

بتصرفه ورهن إشارة منه . فاستقوى لما استزلوا . وشكل منهم نقابة للصحافيين . أمرهم فانصاعوا . « فنصب » عليهم بكري المرادي نقيبا ، وكان صاحب ورئيس تحرير « الشام » التي صدرت [بأموال دفعها وزير الخارجية السورية الاسبق ميخائيل اليان] نصف شهرية ، تعنى بالرياضة ، فأستصدر لها اليان مرسوما وقعه رئيس الحكومة صبري العسلي تحولت بعده الى جريدة سياسية تعبر عن رأي « الحزب الوطني » الحاكم .

أذكر جيدا أن السراج يومها ، افرط في ذم بكري المرادي وشتمه ، وأوما الى رئيس حرسه فاروق [من سكان دير الزور] ، ان يرمي جريدة « الشام » في « الزبالة » ونهره قائلا : لا أريد ان تدخل هذه الجريدة منزلي بعد اليوم .

بكري المرادي ، صاحب « الشام » ، التي رماها السراج في « الزبالة » أصبح بعد قيام « الوحدة » بين سورية ومصر ، نقيبا للصحافيين السوريين . ومثلما استماله ، استمال عددا آخر من أبناء المهنة ، الذين كان همهم الوحيد لا ارضاء ضمائرهم والاخذ بيد الشعب ، انما التسبيح بحمد « السلطان » ولي نعمتهم المغمسة بدم الابرياء .

بعض هؤلاء يدعي اليوم « الوطنية » . وبعضهم بقي متزلفا دنيثا يباع ويشري . ومنهم من أصبح الانيس في مجالس الملوك والرؤساء .

- ٥ -

كان كسير القلب . تبيّنت وجهه وهو يسترد أنفاسه فاذا بالرجل الذي عرفته نائبا في البرلمان . نازه النفس خليقا بكل تحمّدة ، يلوذ به كبراء زمانه ، قد رسم التعب على وجهه أخاديد غيرت ملامحه ، وما عادت عيناه تسطعان ببريق العزم فتعطي صورة عن الرجل الذي كانت له صولات وجولات على المنابر وفي اروقة السياسة . لقد هذه سجن المزة هذا . تعرض فيه الى شتى أنواع العذاب . كان يستدعى من زنزائنه الى التحقيق في أول الليل ، فيتناوب عليه المحققون حتى ساعات الفجر الاولى . وما ان يعود الى زنزائنه ، ظنا منه ان سيخلد للراحة بقية النهار حتى يستدعي الى التحقيق من جديد . ابقوا النائب القومي الاجتماعي زكي نظام الدين على هذه الحال اسبوعا كاملا حتى انهار . ولم يشفع به غير شقيقه اللواء توفيق الذي خلف شوكت شقير في رئاسة الاركان العامة في الجيش ، فطالب بالافراج عنه واضعا منصبه في الميزان .

حاول زكي نظام الدين ، بعد خروجه من المزة ، وتجميد نشاطه الحزبي والسياسي ان يقابل السراج ليشكو له ظلامته من أخيه « الوزير » عبد الباقي نظام الدين ، الذي استولى على بعض أراضيه الزراعية في القامشلي بقوة المنصب والنفوذ . فكان

السراج يرده على أعقابيه .

كان أمل زكي نظام الدين بيّ كبيراً ، وأنا «عديّل السلطان» ، بأن أحاول ترتيب موعد له ، أو على الأقل تذكير السراج بطريقة أو بأخرى ، بأفضال زكي عليه ، يوم كان «السلطان» عين سورية «الساهرة» مرافقاً لأديب الشيشكلي يسهر معه في مطعم نادي مطار المزة . فكان زكي نظام الدين كلما التقاه يدعوّه الى مائدته ويغدق عليه ما تيسر بعيداً عن عيون الشيشكلي . فهكذا كان دأب زكي نظام الدين ، برد الله ثراه، الاسراف والكرم .

حاولت ان أثنيه عن مقابلة السراج ، فالرجل حاقّد على القوميين وليس من طبعه ان يحفظ الجميل لكنني وَجَدْتُ عنده اصراراً خُفْتُ ان يفسّر تمنّعي اعراضاً عنه

للحقيقة والتاريخ ، كلمت قرينته مَلَك . طلبت . كدت أشفع طلبتي بالتوسل . فردت عني وجهاً مسالماً واجابتنني بحقن :

- كفاك توسلاً للجواسيس ، زكي نظام الدين ، اقطاعي ابن اقطاعي وقومي اجتماعي أخاف على زوجي منه ولن ادخله عتبة بيتي

امتلاً رأسي بعباراتها ، تحول اشمئزازي منها الى ضحك . فرحت أضحك بصوت عال . قفزت الى رأسي لحظتها افكار متلاطمة ، فالاقطاعي ابن الاقطاعي . . . لم يمنع تلك المرأة وزوجها من مصاحبة ومزاورة غيره من الاقطاعيين . ألم يكن السلطان وزوجته من أعز اصدقاء محمود اليوسف [حفيد عبدالرحمن «باشا» اليوسف ، امير الحج السوري ووالي دمشق على زمن الجنرال هنري غورو ، فقتله الثوار السوريون مع علاء الدين الدروبي في قرية خربة الغزالة عام ١٩٢١] لأن زوجته الدكتورة ام الخير العظم التي عرفت بها بنفسي على مَلَك ، أصبحت طبيبة ابنتها جميلة وابنها فراس

ألم يكن مأمون الطباع ، رجل الاعمال السوري ، المتنقل بين الكويت وأحد «مناضلي» حركة اقوميين العرب ، مع رفيقه هاني الهندي والحكم دروزة من اصدقاء السراج وزوجة السراج ؟

أما حاولت مَلَك ان تشكل لزوجها بلاطاً خاصاً من الاقطاعيين [ينتقل من دمشق متى انتهى فصل الشتاء الى بلودان في فصل الصيف] حاولت الكثيرات من سيدات الطبقة الارستقراطية والبورجوازية الانضمام اليه . . . والاسماء ان عددها احتجت الى الصفحات الطويلة . . . بعض هؤلاء اخترمه الموت وبعضه الآخر بات اليوم في عداد الدياسبورا السورية المنتشرة في أنحاء العالم .

لقد تعزز بلاط السلطان بالمريدين والمتزلفين ، بعدما أصدر ، خلافاً للدستور والقوانين ، تعليمات بعدم السماح ، لأي مواطن بمغادرة الاراضي السورية الا بعد

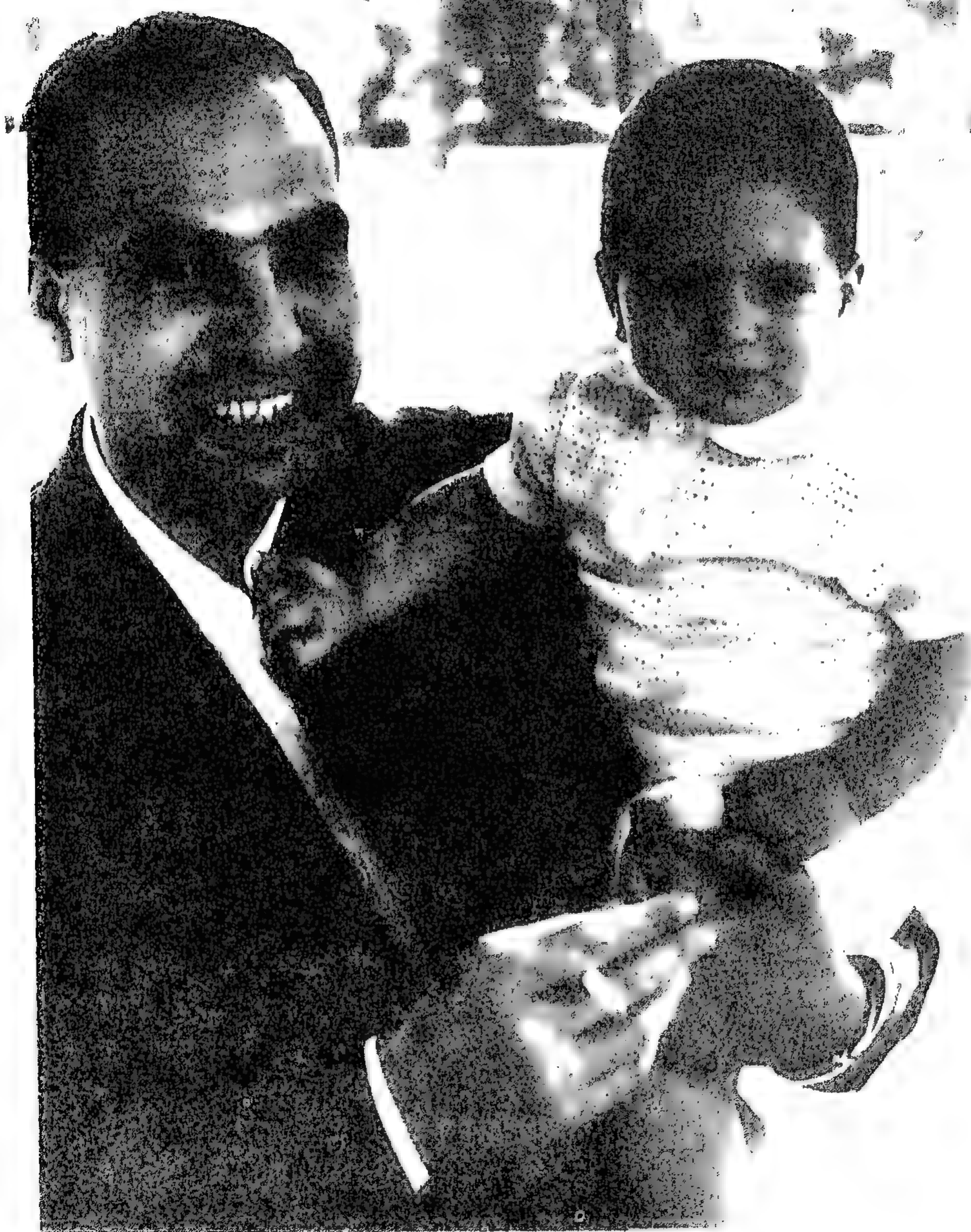
الحصول على «تأشيرة خروج» او اذن سفر، فحوّل البلاد الى سجن كبير. . .
واتبع ذلك بممارسة سياسة اقتصادية موجهة، حددت الاستيراد، ومنعت الكثير
من المواد الكمالية . فتفشّت ظاهرة التهريب، من بيروت، التي كانت تحافظ على
نظامها الاقتصادي الحر، في فترة كانت العساكر تنقض على الانظمة، الامر الذي
جذب الى بيروت رؤوس الاموال من الخارج سواء من البلدان العربية او من غيرها،
فعم فيها بين ١٩٥٢ و ١٩٥٨ ازدهار اقتصادي لا مثيل له.

وبدأت تتشكل عصابات تهريب منظمة، حماها بعض ضباط الاستخبارات
بعلم ومعرفة «السلطان الاحمر» ، منهم عبدالوهاب الخطيب وشوقي الدقاق وعبد
حكيم ومروان السباعي ، فكان هؤلاء يمنحون تأشيرات الخروج وأذونات السفر
لمجموعة من عناصر تلك العصابات مقابل أتاوات، فيذهب هؤلاء بسياراتهم
الخاصة فارغة الى بيروت ويعودون من أسواقها محملين بخيراتها وبها عزّ الحصول
عليه في دمشق السراجية.

وكم من سيدة ، كان يُدُلُّ عليها بالبنان لحسن سمعتها ووقارها، تحوّلت الى
محظية، ترضي شهوة وطمع واستغلال ضباط السراج من اجل الحصول على تأشيرة
خروج. . . .

كان كل ذلك يجري على مرأى ومسمع عبدالحميد السراج ، الذي كان يقف في
الناس داعيا الى حماية «الاقتصاد الوطني» ، يمنع عنهم الشراء والاستيراد من
بيروت، وكتبته يروجون لأفكاره في صحفهم المأجورة، كأن الاسواق اللبنانية هي
اسواق غربية، لا علاقة لها بدورة الحياة الاقتصادية السورية. . . بينما كان يسمح
لنفسه، بان يرسل سيارة البويك الخمرية اللون [التي كان يضعها توفيق الحبوباتي
صاحب نادي الشرق، بتصرفه] ، في ساعات الفجر الاولى الى بيروت لتعود مليئة
بكل نفيس وثمانين من «سوق الطويلة» ومخازنه الكبرى. . .

في تلك الاثناء حتى ربطة عنق «السلطان» كانت من بيروت. . .



عبد الحميد السراج حاملا ابنته فراس

الفصل الخامس

جواسيس السلطان



- ١ -

أمسكت وجهه بعيني، لما رمى السلام علينا: منبسط الملامح وسيمها، عينان غريبتان تتحركان تحت حاجبين كثيفين، تختار في بريقهما أهو ثقة أم مخادعة. سحب كرسياً، وحشر نفسه بيننا، ثم دارت نظراته فينا حتى استقرت على وجهي. وكأنه شعر باستغرابي عندما أكمل سعد الله قنيزح أمامه الحديث عن الحاجة لوضع حد لتسلط عبد الحميد السراج، فحاول أن يمسح من عيني ما تبقى من حذر بفهامي انه «واحد منا». وبدأ بمستطيل الكلام يذكر اسم شسان جلد، يروي عن خلافه معه على الجبهة وكيف تصالحا فيما بعد... وأنه آتٍ لتوه من مكتب سعيد تقي الدين في مبنى العازارية. واتقدت عينا الضابط برهان أدهم بهريق الفرحة والتشفي، عندما وجدنا كلنا عيوناً عليه، فأفرط في الاعلان عن نقمته على النظام في الشام...

ما كان ينفض جمعنا الا على موعد، أصبح برهان أدهم يواظب عليه معنا. كانت كافيتيريا «اليسار» المقابلة لمدخل الجامعة الاميركانية في شارع بليس [أصبحت اليوم، كافيتيريا زينة] هي الموعد وفيها الملتقى، نصرف الساعات... فناجين القهوة تتراقص بين الاصابع في صعود الى الشفاه ونزول، والسجائر تنتحب قبل طحنها في صحنون الدخان.

اياد موصلي يأتينا بغلة أخبار العشية. بشير موصلي وصالح الكسم وسعد الله قنيزح بأخر أخبار السراج. موفق زهراء و«أبو غازي» الخوري [شقيق الدكتور سامي الخوري] يعلقان وبرهان أدهم مطرق السمع، فلقد كان يجيد فن الاستماع والمخادعة في الصمت، فلا تشعر لحظة واحدة بأنه لم يعطك رأياً، أو لم يوافقك على نقمتك، ولا يكيل معك النعوت لعصابة «الضباط العشرة» القابضة بالتسلط والارهاب والقمع على أعنة الحكم في الشام.

لم يدنس أذهاننا أي شك حيال برهان أدهم. وما خطر لنا أن ذلك الضابط الذي يشاركنا جلساتنا وتشردنا، يهالنا ويغمس اللقمة معنا في طبق واحد، كان

من الذين يتاجرون بمسامير التواييت ، جلاداً من جلادي «السلطان الأحمر» . يلون لنا الكلام بالبدس والختل ، يقاوضنا في النهار وفي هجيع الليل يكتب في حقنا التقارير وفي محاولاتنا التفاصيل .

ظننت أنه كان فعلاً من الضباط السوريين الذين التحقوا بالقوميين الاجتماعيين في بيروت ، في محاولة لتثوير الناس في الشام بغية الاطاحة بالسراج وبنظامه الجائر . [كان بينهم محمد معروف . محمد صفا . صلاح الشيشكلي . حسين حكيم . عبده وهبه . محمود نعمة . أديب الشيشكلي . . .] حتى اكتشفت بعد وقت قصير ، انه كما زرع القوميون الاجتماعيون في أجهزة السراج حسيب أبو زكي وجميل العريان ومشهور دندش ، فهتكوا ستر الاركان العامة ، زرع بينهم صلين : طلعت صدقي وبرهان أدهم .

- ٢ -

لولا أنه لما يتنحى ، لما تذكرت فنجان القهوة على الطاولة أمامي . انشغلت عنه مقحماً عيني في جريدة «صدي لبنان» ، أقرأ فيها رسالة الرقيب يونس عبدالرحيم [قاتل العقيد عدنان المالكي] الى غسان تويني ، يدافع فيها عن حسين الشيخ مطلق النار على القاضي يوسف شربل الذي حاكم انطون سعادة في تموز (يوليو) ١٩٤٩ . كانت «صدي لبنان» قد نشرت رسالتين أخريين ليونس عبدالرحيم . الأولى وجهها الى اديب الشيشكلي حذره فيها بأنه «سيعلك رقبتك علكاً» اذا هو استمر في غيّه واضطهاده للقوميين . ورسالة ثانية قال فيها : «ان لدي موالاً سأغنيه وفي نفسي ظمأ للدم الشديد . الدم . الدم . الدم . تبارك الدم» . كان قد كتبها قبل أيام من قتله المالكي في الملعب البلدي . وهذه الرسائل الثلاث تثبت تعطش يونس عبدالرحيم للدم ، وتنفر منها للعين والذهن شخصيته وطبائعه الشرسة وتفرده في اتخاذ القرار وكتابة كلام لا يقره الحزب ، اضافة الى ظاهرة الاعتداد بالرأي . لقد طرحت تلك الرسائل علامات استفهام كثيرة حول يونس عبدالرحيم في وقت كان الجدل قائماً ولم يحسم بعد حول مدى علاقة الحزب بمقتل المالكي . فلقد كان محمود نادل كافيتيريا «اليسار» يحاول ان يثير انتباهي الى أن شخصاً ارتاب به يسأل عني ، ففضل اعلامي بالأمر قبل أن يدلّه عليّ .

أزحت الجريدة عن وجهي ، فاذا بي أمام شاب في مقتبل العمر ، تقدم مني ، اسرّ في أذني أن أحضر الى مكتب الصحافي كميل الجدع في شارع بليس قبالة السفارة التركية .

طويت الجريدة ، دسستها تحت إبطي . مدّ الشاب الخطوة أمامي ولحقت به . رفع كميل الجدع رأسه المثلث . أغدق عليّ ابتسامة . محاها عن وجهه بسرعة .

وبدا يقلب بعينه واصابعه ملفاً أمامه .

لقد كان مثل كل المسؤولين القوميين الاجتماعيين في تلك الفترة ، كثير الحذر واليقظ . قال بهدوء عرف فيه :

- إستخباراتنا في دمشق ، أرسلت لنا تقارير موشاة بالشك من أن برهان أدهم ، الذي يجالسكم في كافيتيريا «أليسار» ، هو عميل مزدوج دسه السراج بينما . . . امتلأت عينا كميل الجدع لحظتها بالغضب :

- سايره . وفي الوقت نفسه راقبه . احصوا عليه أنفاسه دقيقة بدقيقة . . . تنبه الى ارتفاع صوته . أعاد ترتيب الاوراق . طوى الملف أمامه . فرك عينيه من التعب :

- أريد تقريراً يومياً عن تحركات هذا العميل المزدوج . . . كنت وأنا أسمع كلامه . استحضر وجه برهان أدهم أمامي . انتابني موجة غضب . تكوم لساني في حلقي . شعرت انه اذا لم نسحقه أدركه الزهو وتمادى في الغواية . . .

انقلني كميل الجدع من أفكاري المتلاطمة وأعادني صوته من غفلي عنه . تقدم مني ضغط على يدي . فتح باب مكتبه . تركني في ذهول . توزعنا الخبر . أصبحنا كلنا عيوناً مسنونة عليه . حركاته . تحركاته . حتى المومس التي كان يتردد عليها في شارع المتبني خلف ساحة الشهداء ، صارت تشي به عندنا . لاحقناه حتى الى دور السينما . تارة في سينما «أمير» وطوراً في «متروبول» وحيناً في «كاير» وآخر في «غومون بالاس» ، نحصي لقاءاته في مقهى «نغريتا» في شارع الحمراء [الذي راحت المقاهي تزدهر فيه في أواسط الخمسينات] مع الصحافي المصري محمود السعدني . ونلاحقه حتى بوابة السفارة المصرية في الرملة البيضاء . وفي نهاية كل يوم نرمي بالغلل على طاولة كميل الجدع .

لم نقصه عنا . أبقيناه في حلقتنا في كافيتيريا «أليسار» ، وأصبحنا نفرط أمامه في تهجمنا على النظام في الشام . لم نقض اليه بسر . لم نبخ بالأسماء . خدعناه بأسرار ملفقة وبخطط قلنا اننا سمعناها من مصادرها عن محاولات لإغتيال عبد الحميد السراج عند خروجه من مكتبه في الاركان العامة . . . وعن استعدادات للعصيان المدني في حمص . . . و . . . و . . . كنا نعرف انه كلما كان يتسلل الى دمشق خلصة كان يحمل معه الى السراج خطط الانقضاخ على الحكم التي كنا نتفنن بتطريزها باللوان المبالغات والكذب .

لقد كان برهان أدهم [مثله مثل كثيرين] يعتقد ان مصرع المالكي ، كان خطة ضلع فيها القوميون الاجتماعيون مع جهات أجنبية ، قد تكون اميركانية واغلب

الظن بريطانية او... حتى اسرائيلية . لذلك حاول وعاود الكرة مرات ان يتأكد من ذلك سائلا غسان جديد وسعيد تقي الدين عن الذي يحول دون طلب دعم الاميركان أو البريطانيين لقلب نظام الحكم في دمشق . فكان جوابهما دائماً ، انهما يسعيان ، ولكن واشنطن لم تتجاوب بعد!!!

كانا يخادعانه في وقت اعتقد انه كان كان يخدعهما ، حتى اذا ما رفع البرقع عن وجهه ، بعدما كشفه القوميون ، وعاد الى دمشق ، وقف شاهداً ضدهم في المحكمة ، يهتف في القاضي العرفي ، يذيع الحقد والدس ويحيك الكذب الاسود حول المؤامرة التي سميت «المؤامرة العراقية» ، لضلوع الملحق العسكري العراقي في بيروت العقيد صالح مهدي السامرائي [وقد كان قبلاً يشغل المنصب نفسه في السفارة العراقية في دمشق] واللواء غازي الداغستاني معاون رئيس اركان الجيش العراقي ، في تمويل وتذخير القوميين الاجتماعيين واعداد من المواطنين السوريين .

كانت «المؤامرة» عام ١٩٥٦ [التي زور حقائقها قرار الاتهام الذي رفعه قاضي التحقيق العرفي في دمشق يوسف شقرا] ثورة شعبية تساندها حركة عسكرية . ولم يكن الهدف منها استبدال ضابط بضابط آخر . انما استثارة غضب الشعب وتحريك وازع المسؤولية فيه ، بعدما كان استكان وألف الانقلابات التي توالى عليه منذ عام ١٩٤٩ .

والذي أساء لعبد الحميد السراج واغضب اعوانه ، فلفقوا التهم وزوروا الوقائع ويطشوا بالتهمين ودفعوا أمام قوس المحكمة التي ترأسها عفيف البزري ، بشهود الزور ، هو ان المخططين لـ «المؤامرة» وجدوا شرائح كبيرة من الشعب في حلب وحمص وقرى الغوطة ثم جبل حوران ، الى جانب العلويين والبدو ، كانت مستاءة تخفي غضبها على النظام وتبتظر من ينكب جراحها لتتلف وتثور .

اما دور نوري السعيد وعبد الاله ، الذي التقاه سعيد تقي الدين وغسان جديد في يخته الراسي في ميناء بيروت ، فكان دور المساند والضامن [بحكم علاقتها وتحالفها مع واشنطن ولندن] لعدم تحرك تركيا و«اسرائيل» . وخلافاً لما جاء في المحكمة - المهزلة ، لم يطالب العراقيون بعرش يتولاه عبد الاله . وما كان القوميون الاجتماعيون ، على ما كتب سعيد تقي الدين فيما بعد ، «مغرمين بعبد الاله ، وإن كنا نفضل أي عبد على ذلك العبد» [عبد الحميد السراج] .

لقد كان للعراق في الشام حلفاء . «حزب الشعب» واحدهم . ولبغداد بين العشائر سواعد وحمة سلاح . فما احتاج المخططون لدعم جهة أجنبية . وكم كان زوراً وهتاناً ، قول عفيف البزري ، ان المخططين كانوا على اتفاق مع الاجانب لمهاجمة دمشق ، في وقت كانت مصر منشغلة بالعدوان الثلاثي البريطاني - الفرنسي الاسرائيلي عليها .

والحقيقة، ان العدوان الثلاثي الذي كشف هزال مصر العسكري ، هو الذي أوقف القوميين وحلفائهم عن الانقضاض على حكم السراج . . . لولاه لكانوا فعلوا .

- ٣ -

لم يجار أحد برهان أدهم في الدس وصب جام الحقد على القوميين الاجتماعيين أمام قوس المحكمة العرفية ، مثل الصحافي المصري محمود السعدني . فلقد وهبوا له مجال الدس والختل وأطالوا له الحبل فلجّ في الضلال والعمالة والافتراء والتزوير . أبرز للمحكمة صورة لسعيد تقي الدين كتب عليها الاديّب بخط يده عبارة «المؤامرة ثورة فشلت» ، فاعتبرتها اعترافات شهادة كافية بادانة سعيد تقي الدين وصحبه بالتآمر على «سلامة سورية» . . .

والحقيقة ان تلك العبارة كانت عنوان مقال كتبه سعيد تقي الدين بخط يده للصحافي المصري ، الذي جاء مع رفيقين له ، يطلبان حديثاً لجريدة «الجمهورية» . فاستعاض سعيد عن الحديث بمقال يقع في ثلاث صفحات ، فيه بحث علمي عن الثورات وفلسفتها ، انهاء بأن كتب يقول :

«إن الذي اثبت ان الثورة السورية التي انتصرت بانقلاب حسني الزعيم ، ثم بانقلاب الحناوي وانقلابين اثنين قام بهما الشيشكلي ، ثم الانقلاب الاخير على الشيشكلي ، كلها كانت مؤامرات على الشعب السوري لأنها كثرات فشلت فكرة وتنفيذ مبادئ وتوجيهاً حكيماً . وان المؤامرة الكبرى اليوم في دمشق هو هذا الوضع القائم ، لأنه يمثل ثورة فشلت» .

فما كان من محمود السعدني ، الا ان حوّل المقال الى حديث فيه أسئلة وأجوبة وهمية لا أساس لها من الصحة ، نشرته جريدة «الجمهورية» في التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ ثم اقتطع عنوان المقال وحفره بالزنكوغراف على صورة سعيد تقي الدين ، منقلباً من «صحافي» الى «عميل» للاستخبارات السورية ، فلما طلبته أجهزتها للشهادة وقف في قاعة المحكمة العرفية ، زوّر التاريخ والحقائق ، من دون تبكيت ضمير ، فالذي يوظف قلمه للدنيا ويتحل صفة الصحافي وهو عميل لا نظن أن فيه أي ضمير حي . . .

لم تمر «سعدنة» السعدني من دون استنكار في الصحف اللبنانية ، الا المأجورة منها ، فقد أصدر صدر سعيد تقي الدين بياناً تحدى فيه جريدة «الجمهورية» القاهرية ان تنشر المقال كاملاً كما دونه بخط يده . وشكا الدساسين للرئيس جمال عبدالناصر في البرقية الآتية :

«سيادة الرئيس جمال عبدالناصر - القاهرة

ان احترامنا لكم وأنتم قائد دولة لا تريد بناء مجدها على (رقابة) ارفع لسيادتكم شكوى تدين مواطننا مصرياً منتدياً من جريدة «الجمهورية» وهي لسان حال ثورتكم . جاءني محمود السعدني وأخذ مني حديثاً لجريدته سطرته بثلاث صفحات وعنوانه «المؤامرة هي ثورة فشلت» . العنوان كتب على ورقة مستقلة للزنكوغراف . لم تنشر «الجمهورية» بعد هذا المقال . بل راح مندوبها يفترى بأن المقال اعتراف مني ليضلل الرأي العام في ادانة متهمين هم اشراف سورية وحراب جهادها . كل ما أرجوه من سيادتكم ان تأمروا هذا المفترى ان ينشر المقال بالزنكوغراف كما نشر عنوانه . فأنتم قائد دولة لا تريد بناء مجد أبنائها على . . .

سعيد تقي الدين

لا جمال عبدالناصر ردّ . ولا جريدة «الجمهورية» استجابت . محمود السعدني خرج من المحكمة العرفية . . . «بطلاً قومياً» .

- ٤ -

الشهادة بالزور أمام المحكمة العرفية ، جعلت برهان أدهم يحتل مكاناً قصياً في قلب «السلطان الاحمر» فأمن جانبه واثمنه على «المكتب الخاص» للشؤون اللبنانية ومركزه في منطقة «الخواكير» تولاه «أبو ابراهيم» بدراية العارف بالوضع اللبناني وكفاية رجل الاستخبارات الخلق .

«المكتب الخاص» ، كلف خزينة الدولة مئآت الملايين ، انفقها برهان أدهم بلا حسيب ولا رقيب ، اشترى بها «عملاء» له في لبنان منهم النواب والوزراء وشيوخ العشائر والمخاتير ورعاع القوم . . . فرفع من قدرهم وأجرى عليهم جزيل الخير وأفلح في جعلهم مطية بين يديه ، يطلب منهم فينفذون ويشير بالبنان فيلبون . سميح عسيران ، نائب صيدا الراحل ، كان على صلة ببرهان أدهم وعبدالحميد السراج ، كمال جنبلاط كان صديقاً للسراج مثله ، ومثلها كان سليمان فرنجية ، رينيه معوض ، صائب سلام ، رشيد كرامي ، عبدالله اليافي ، صبري حمادة ، عدنان الحكيم ، شبلي العريان ، خيرى عوني الكعكي ، وغيرهم كثر . كانوا يحجون ، الى دمشق في الشتاء وبلودان في الصيف ، سعياً لكسب رضا «السلطان» وسؤال خاطره . . . ثم يمرون على محمود رياض السفير المصري في دمشق قبل ان يعودوا الى عبدالحميد غالب السفير المصري في بيروت . لياحثوهم في العروبة والوطنية ! اذكر مرة ان سيارة «مرسيدس» سوداء ، توقفت امام «نادي الشرق» . نزل منها

العميد انطون سعد [رئيس المكتب الثاني اللبناني عام ١٩٦١]، وأوماً الى سائق سيارته ، ففتح صندوقها وأخرج منه خروفاً صغيراً، نادى توفيق الحبوباتي، صاحب «نادي الشرق»، الذي همّ باستقباله:

- يا أبا محمد هذا «قرقور» [خروف صغير] لبناني، اذبحه واشوه لنأكله مع أبي فراس.

يومها، كان انطون سعد ضيفاً على مائدة «السلطان الاحمر».

طوال فترة توليه رئاسة «المكتب الخاص» للشؤون اللبنانية، جمع برهان أدهم من حوله عدداً من الضباط المغاوير في الجيش، ابرزهم، الملازم اول اكرم الصفدي [يملك اليوم منتجعا سياحياً في مصر]، الذي كانت له يد في اغتيال غسان جديد [١٩٥٧]. ونسيب المتني [١٩٥٨]، والضابط الفلسطيني محمد خليفة [الذي كان مقيماً في الكويت] الذي يُعرف من فجر «التراموي» في باب ادريس في بيروت فمات من مات وجرح من جرح. و... أريق الدم في صيف ١٩٥٨. لما تشرع عبد الحميد السراج، لينهي القوميين، بشهوة كميل شمعون لتجديد ولايته وبسياسته الغربية الاتجاه، وتعاونته مع النظام الملكي العراقي ومع بريطانية وتأييده «حلف بغداد». فكان عبد الحميد السراج الاداة الطيبة المطوعة للمخطط المصري - الاميركاني، لضرب النفوذ البريطاني الذي أخذ يتجمع ويتسع مع قيام «حلف بغداد»، ولنشر «التوجه الناصري» في سورية، الذي كان يمنع ويتصدى لوحدة دمشق وبغداد، تحت ذريعة ان اصابع بغداد مغمسة بالخيانة ومتعاملة مع «الاستعمار واعوان الاستعمار»، حسب نغمة عبدالناصر الدعائية، فيما كان الرئيس المصري ومجلس قيادة ثورته و«عصابة الضباط العشرة» السورية المتعاونة معهما، ينفذون بشكل أو بآخر مخطط الجنرال دوايت ايزنهاور لانهاء النفوذ البريطاني في الشرق القديم. ما إن استنفر السراج العملاء الذين كانوا على لائحة مدفوعات «المكتب الخاص» حتى كان صيف الدم في لبنان، الذي اعقبت بداياته سقوط الملكية في العراق ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨

★ ★ ★

طلعت صدقي، كان الصل الثاني الذي دسه عبد الحميد السراج، فتسلل الى صفوف القوميين الاجتماعيين في لبنان. لكنه بعدما عاد الى دمشق وارتدى بزته العسكرية لم يشترك في حملات الاضطهاد والتعذيب التي مارسها برهان أدهم بحقهم. كذلك، لم يشترك طلعت صدقي بحملات الاعتقال الواسعة التي جردت على الشيوعيين اتباع خالد بكداش، عندما طلبت واشنطن من جمال عبدالناصر ان ينهي وجودهم في كل من الاقليم الشمالي والجنوبي للجمهورية العربية المتحدة. وبينما ظن «البكداشيون» انهم في مأمن من السراج وفي حماه، بعدما ساعدوه في

الحملة على القوميين في المجلس النيابي وخارجه ، وجدوه يرتد عليهم ، يغدر بهم وينكل ، منصاعاً لرغبات سيد مصر متلمساً رضاه .

في أثناء تواجده في الأركان العامة ، كان طلعت صدقي قريباً من «حركة القوميين العرب» ، التي كان منها الدكتور جورج حبش ، وديع حداد . الحكم دروزة . هاني الهندي . مأمون الطباع : جهاد ضاحي . ثابت المهاني . وممدوح رحمون . . . وعبره وعبر محمد خليفة تمكن «القوميون العرب» من تثبيت مواقع لهم نافذة في الجيش السوري ثم بعد ذلك في الأوساط اللبنانية .

لم يمض على طلعت صدقي كثير وقت ، حتى كان عبد الحميد السراج يلحقه بالسفارة المصرية في العراق ، مساعداً للملحق العسكري عبد المجيد فريد [رئيس مكتب الدراسات العربية في لندن حالياً] فيشارك معه في التآمر على نظام عبد الكريم قاسم ، وفي الاتصالات مع الضباط رفعت الحاج إسري [مدير الاستخبارات في وزارة الدفاع العراقية] والعقيد طاهر يحيى والعقيد عبد اللطيف الدراجي والرائد محمود عزيز [ضابط ركن في اللواء الخامس الذي كان يقوده العقيد عبد الوهاب الشواف زعيم حركة الموصل الانقلابية] والعميد الركن ناظم الطبقجلي ، قائد الفرقة الثانية في كركوك .

وقد أسفرت تلك الاتصالات عن سفر الرائد محمود عزيز إلى دمشق مرات عدة فاجتمع ببرهان أدهم وبعبد الحميد السراج [وكان وقتها وزيراً للداخلية] ، كما التقى النقيب شكر محمود الحنكاوي ، ساعات طويلة بالسراج الذي وعد بمساعدة الثورة ومد الثوار باذاعة وأسلحة خفيفة ومتطوعين !

لكن العميد الركن ناظم الطبقجلي ، لم يكن يثق بوعود عبد الحميد السراج ، ولم يخف أمام عبد الوهاب الشواف تخوفه من مراوغة «السلطان الأحمر» ، فعاد يختبره بأن أرسل ضابط ركنه المقدم الركن عزيز أحمد شهاب لتأكيد العون العسكري ، فالتقى السراج في أواخر شباط (فبراير) ١٩٥٩ في حلب ، فوعده بالرد على طلب المساعدة بعد ثلاثة أيام .

في الثالث من آذار (مارس) ١٩٥٩ وصل محمود عزيز متخفياً إلى دمشق ، التقاه السراج مجدداً وحمله تأكيداً بأن دمشق ستجهز الثوار بمحطة إذاعة وبثلاثمائة متطوع من مغاوير الجيش السوري . بكامل سلاحهم ، إضافة إلى شحنة من الأسلحة الخفيفة كي توزع على قبيلة «شمر» المنتشرة على جانبي الحدود العراقية - السورية . فلقد نجح عبد الوهاب الشواف في اقناع شيخ مشايخ شمر أحمد عجيل الياور بتجهيز خمسمائة مقاتل وإرسالهم إلى ضواحي الموصل . وتفاهم مع الشيخ دهم الهادي ، شيخ شمر السوري و«باشا» قبيلة علي ليعينا عبد الوهاب الشواف إذا ما اقتضى الموقف سؤال العون . . .

ولم يكتف السراج بالوعد بارسال السلاح الخفيف، انما بسرب من «الطائرات» اذا اقتضى الامر حماية قاعدة انطلاق الثورة في الموصل!!

«الاذاعة»، سلمها برهان أدهم عند مخفر «تل كوجك» العراقي، وكانت من النوع المتنقل لا يزيد حجمها عن متر مكعب واحد تذيع على الموجة القصيرة، لم يتمكن المهندس يوسف ابو شاهين الذي صحبه ادهم معه حتى من تشغيلها. «السلاح» وصل ولم يستعمل. أما «المتطوعون» فلم يصلوا و«الطائرات» كانت خدعة...

عبدالوهاب الشواف قتل بعد غارة جوية على قيادته في الموصل. وفشلت «الثورة» وانتصب قوس محكمة فاضل عباس المهداوي الشهيرة... لعل عبدالناصر كان يسعى من دعمه لتلك الثورة الفاشلة الى ضرب الضباط العراقيين بعضهم ببعض. لعله وجد أن عبدالحميد السراج افضل من يقوم بهذا العمل.

وكان «السلطان الاحمر» عند حسن ظن «الرئيس».

- ٥ -

عبدالحميد غالب!

يكفي لفظ هذا الاسم امام اللبنانيين، حتى تشرئب في ذاكرتهم التلاعبات السياسية والمؤامرات التي شغلت لبنان سنوات وعانى اللبنانيون منها الأمرين. التي أجج نارها عبدالحميد غالب، فتصرف كأنه مفوض سام لمصر في لبنان. زرع الشر. تلاعب بالساسة. باع واشترى من كانوا يواطئونه سرا على كميل شمعون. وقع لبنان ضحية بين «عبدالحميدين» واحد في بيروت وآخر في دمشق. توزعا المهام سرا في التعاطي مع المتعاملين والعملاء من سياسة ورجال صحافة و«فكر» ومأجورين مغموزي النسب. حتى اشكل الامر على هؤلاء بين السراجية والناصرية.

فكان السراج يوظف تقارير هؤلاء لحساب جهاز أمنه في الوقت الذي كانت صلاتهم اكثر من جدية مع السفير عبدالحميد غالب، يتقاضون منه مخصصات شهرية وجعالات للقيام باعمال يوكل اليهم امر تنفيذها.

عدنان سلطاني، الذي اغتال كامل مروة ناشر ورئيس تحرير «الحياة» البيروتية ومساعداه ابراهيم قليلات كانا من هؤلاء. فاروق شهاب الدين الذي نشرت عناصره [فيما سمي بالمقاومة الشعبية]، القتل والتخريب في أزقة بيروت خلال صيف الدم عام ١٩٥٨، كان أيضا من الذين ينتظرون على باب عبدالحميد غالب ليقبض جزاء عمله. ومثله... غير رئيس حكومة ووزير ونائب وزعيم حزب يدعي

«الوطنية» كانوا يوالون جمال عبدالناصر سياسيا وماليا فيما يرفعون تقاريرهم ودسهم وتجسسهم الى والي الشام الحاكم بأمره «السلطان الاحمر».

فرج الله الحلو، القائد الشيوعي اللبناني، الذي انتهى في الشام مذوباً بالاسيد في مغطس حمام مكتب عبدالوهاب الخطيب، احد جلادي السراج المقربين له، في شارع بغداد، كان ضحية من ضحايا تعاون المأجورين والمرتزة اللبنانيين مع أجهزة الاستخبارات السورية.

لا أدعي معرفة بالشرك الذي نصبه له احد هؤلاء العملاء فانجر اليه مغمض العينين فلاقى حتفه فيه. ولكنني وجدت بين اوراقى ما كنت لملتته، من فم وجيه انطكلي منفذ قتل فرج الله الحلو، لما التقيته في سجن القلعة في دمشق يوم التاسع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٦٨، وكان قد مر عليه خلف القضبان سبع سنوات من الحكم المؤبد، بعدما كان مثلاً أمام محكمة القاضي العسكري الفرد عمر الفدا. اقتادوه الى مروان السباعي، مسؤول الاستخبارات في حمص، ادخلوه الى غرفة صغيرة مظلمة. بقي فيها ساعات. ثم سلطوا على عينيه ضوءاً حاداً، لم يعد بعدها يبصر من كان يتناوب عليه بالضرب بسياط مجدولة من اسلاك حديدية. لم يستطع الاحتمال. خرّ على ركبتيه. نزعوا حذاءه من رجله اليسرى واخذوا يشققون كعب رجله بآلة حادة.

كان الليل قد انتصف عندما جروه، الى سيارة، فلم يكن يستطيع ان يضغظ بكعب رجله على الارض. كان طوال الطريق من حمص الى دمشق ينزف دماً. ولما وصلوا به الى شارع بغداد، حيث مقر عبدالوهاب الخطيب، كان الاعياء قد اخذوا منه مأخذاً.

رموه في الزنزانة. سمحوا له بشرب كوب ماء واحد. قبل ان يبدأ عبدالوهاب الخطيب التحقيق معه. وكلما تأنى فرج الله الحلو في الرد، كان الخطيب يهوى عليه صفعا.

تعب منه بعد ساعات طويلة من التحقيق. صرخ يدعو وجيه انطكلي. فدخل الزنزانة رجل ربعة في القامة. دميم الوجه. افطس الأنف. بارز الحاجبين تغور تحتها عيناان بياضهما احمر. تناول فرج الله الحلو من رقبتة ودفعه، فالتطم رأسه بقضبان الحديد فشقته وحنى الدم وجهه وصدره.

وبدا وجيه انطكلي يتفنن في إيلام فرج الله الحلو، الذي كان يكتفي بالانين والتوسل ان يريحه لحظات من اللكم والركل وان يخفف من نزول السوط على ظهره، فقد تشقق جلده وأصبح السوط ينزل على اللحم والعظم.

. فقد وجيه انطكلي السيطرة على شهوته الغريزية للدم. أصبح يخور مثل ثور مذبوح.

لم يعد فرج الله الحلو يتحمل الألم . سقط بين جلاده مغميا عليه . حاول رفعه عن الارض ، فاذا به يتلاشى . جسد بلا حراك . فظن ان الروح قد فارقت الجسد المشقق يغسله الدم . فرماه ارضا وهروا مسرعا الى مكتب عبدالوهاب الخطيب . لم يعرف كيف فتح الباب . كيف تجرأ على الوقوف أمامه . كان على قساوة قلبه يرتجف . تلثم . ضيغ الكلام . بالكاد افلتت من بين شفثيه الغليظتين كلمة « مات » وانتبه فألقها بكلمة « سيدي » .

أعاد الكلمتين . . ظن ان عبدالوهاب الخطيب لم يفهمهما . لو ان صابغة نزلت عليه لما بهت ضابط الاستخبارات بهتته عند سماعه كلام وجيه انطكلي . اصطنع عدم الاهتمام . عائد قلقا تشبث في ملامح وجهه الحادة . أمر وجيه انطكلي بالخروج وانتظار الاوامر . سمعه وجيه انطكلي ، يدير قرص الهاتف . يحكي . لم يعرف من كان على الطرف الآخر .

ما ان وضع سماعة الهاتف حتى صرخ يناديه :
- لا نستطيع تسليم الجثة . تخلص منها . لا أريد أي أثر لها . احرقها . لا . . . لا . . . اذهبها بالاسيد في مغطس الحمام .

حمل وجيه انطكلي جسد فرج الله الحلو الى الحمام . كان ما يزال مغميا عليه . حاول ان يضعه في المغطس فوجد انه لا يسعه . حاول تحريك الجسد في كل الاتجاهات والوضعية . فلم يتمكن . خرج الى غرفة مجاورة . استل منشارا حديديا ، وبدأ ينشر الرجلين عند الركبتين .

اول ما لمست اسنان المنشار رجل فرج الله الحلو . صاح من غيبوبته من الوجع . صرخ متوسلا . انتابت وجيه انطكلي رعدة دعر . بدأ يصرخ بدوره وبحركة لا شعورية انهال بالمنشار على رأس فرج الله الحلو حتى فجّه . وتابع بعدما تيقن انه مات هذه المرة ، نشر الرجلين . ثم صبّ الاسيد على الجسد المقطع ، وجلس يأخذ نفساً طويلاً من سيجارة كانت تتلوى بين شفثيه الغليظتين .

اختفاء فرج الله الحلو ، هز الصحف البيروتية . وتحركت آلة الشيوعيين الاعلامية . تؤكد سفره الى دمشق وتطالب السراج بالافراج عنه اذا كان معتقلا وبالكشف عن مكان خطفه وتسليم الخاطفين الى العدالة !

قابل عبدالحميد السراج الحملة الاعلامية بصمت أطبق عليه وعلى الصحف الدمشقية . كأن الامر لا يعنيه . . . أو كأن فرج الله الحلو لم يقطع الحدود اللبنانية الى الحدود السورية .

ووصل الامر الى موسكو . فوجه نيكيता خروتشوف نداء علنيا للرئيس جمال عبدالناصر ، يطالبه فيه الكشف عن مكان وجود المناضل الشيوعي اللبناني . . .

ورد جمال عبدالناصر على نيكيتا خروتشوف من ميدان التحرير في القاهرة، لما وقف في الصمريين خطيباً. منكرأ ان يكون فرج الله الحلوق قد دخل الاراضي السورية من لبنان لا برا ولا بحرا ولا جوا.

عبدالوهاب الخطيب، جلاد السراج المقرب، هو الآن في مصر. هرب اليها بعد الانفصال، ومن المؤكد ان الشخص الذي كلمه بالهاتف قبل نصف ساعة فقط من تدويب جسد الحلوق، لحق به . . .

وجيه انطكلي اعترف. حوكم ومات في السجن.

ولو كان جمال عبدالناصر ما يزال حيا. . . لكان أنكر مرة ثانية و. . . إدعى.

الفصل السادس

في مملكة الحسين



- ١ -

غمرني شعور بالراحة لما دخلت فندق «الكندرة» في جدة .
تمدد التعب في جسدي بعد يوم طويل من اللقاءات والتجوال تحت شمس لا
تعترف بالفصول، ولا ترتاح حبال أشعتها من التوهج، تلملم الفياء بلسانها
الممدود. تطوقك. تشعر انها تتحرش بك. تندس فيك. تخرقك الى العظم و...
توسع.

كنت أول مرة استسلم لشمس جدة . وصلتها في أيار (مايو) ١٩٥٧ مليا دعوة
وزير الداخلية الامير عبدالله الفيصل، ومدير عام وزارة الاعلام عبدالله بلخير.
تسللت الى جسدي برودة شعرت بدبيبها في مفاصلي، كانت منبعثة من مكيف
الهواء المتمسك بحائط في زاوية الردهة الكبيرة في الفندق... كانت تهون علينا
ثرثرته المتواصلة وهديره المتقطع، نلوذ ونعوذ به من الحر اللافح...

سحب مني موظف الاستعلامات نشوتي بالبرودة، وعاد صوته يشد اعصابي
المتراخية وهو ينادي علي. سقطت عيناوي على البرقية:

«في الاردن حركة في الجيش. الملك في أزمة. مطلوب سفرك الى عمان».

كانت البرقية من عباس الحامض، نقيب المحررين السوريين ورئيس تحرير
«القبس». طويت الورقة بأصابعي. دارت في رأسي افكار متلاطمة، حاولت
ترتيبها. وجدت نفسي أرتقي سلم الطابق الاول بدعسات متسارعة. جلست على
حافة السرير في الغرفة. فبدأت تتجمع صور طافت في ذهني. وبدأت أجد تفسيراً
لانهماك عبدالله بلخير، يومها، ومحاولته الغمز، ونحن نتجاذب أطراف الحديث،
من أن تطورات كثيرة قد تحدث في مقلب الاسابيع. ظننته يقصد ما كان يدور حول
«حلف بغداد» ونوري السعيد، والخلاف السوري - العراقي... ومحاوله هزيمة
الحكم العسكري في دمشق. ولم يتبادر الى ذهني لحظة واحدة، انه كان يقصد هبوب
عاصفة الانقلابات على مملكة الحسين بن طلال.

أدرت قرص الهاتف. سألت المناوب على البدالة أن يوصلني بوزارة الاعلام. وما
كاد يأتيني صوت عبدالله بلخير، حتى بدأت أجمع في صوتي كل نبرات الاعتذار
الاضطراري: قطع الزيارة وابلاغ الامير بذلك. وقبل ان أشرح له أسباب مغادرتي

المبكرة للسعودية وإيام زيارتي لما تته بعد ، وجدته يللم عني باقي الكلام :
نعرف يا أخ غسان ان الاخبار دالحين في عمان وليست في جدة . . .
وأرسل ضحكة ، تسلفت عبر الاسلاك الى أذني ، فبادلته بمثلها .
رميت نظرة أخيرة على الغرفة . وانا اضغط على قفل الحقيبة الجلدية . حملتها
ومشيت .

سلك السائق رأس الشارع المؤدي الى مطار جدة . نزهت عيني في الاشياء
المتراكضة من أمامنا ، لترتمي خلفنا بسرعة انسيابية . كان تفكيري يتجمع في عمان .
لا أعرف ماذا ينتظرنني فيها بعد ساعات . وما اذا كنت سأصلها لأرى الملك على
دبابة عسكرية يعلن قيام «الجمهورية» وخلفه تزقق من مكبرات الصوت موسيقى
المارشات العسكرية ، فيعتاد الشعب الاردني عليها كما فعل السوريون منذ عام
١٩٤٩ .

أحسست بانقباض . هزئت رأسي كأني أرمي منه هذه الصور المتلاحقة . لمعت
في عيني انوار مطار جدة .
سجى الليل . سخت على جدة ريح بليل أذابت في مفاصلها برودة . من نافذة
الطائرة كانت أضواء المنازل مثل عيون غول تلمع في العتمة ، اختفت لما غرست
الطائرة رأسها في الغيم الاسود .

- ٢ -

ساح تفكيري على زجاج نافذة الطائرة . ارتسمت في السواد أمامي المشاهد :
دبابات العسكر تطوق المطار . تنهالك أنامل العناصر على الحقائق . تهبط على مهل
على الاجساد تفتشها . تقرأ العيون في جوازات السفر . تحصي الوجوه . ترق على
التفاصيل . أسئلة وأجوبة : من أين وإلى أين ؟ تحمر العيون ، تتغرغر الحناجر
بالتعجب : «صحافي» تذكرت عبدالحميد السراج . «يا استاذ . . . كل صحافي
مشبوه وكل من كتب حرفا جاسوس» . . . أخفيت أشلاء ابتسامة في زاوية فمي .
كنت على شبه يقين بأن للسراج علاقة بما يجري في عمان . فحاولت ان استعرض
بسرعة مواقف الملك الهاشمي الشاب حيال العديد من القضايا السياسية التي
كانت موضع أخذ ورد بين الشام والعراق ومصر . فكل الاسباب كانت متوفرة لـ
«السلطان الاحمر» لينغدر بالعرش وبالمليك ، بغية تطويق العراق ، الذي بات يزعج
جمال عبدالناصر . وسنوح الفرص هو رهان السراج ، وكنت أعرف جيدا انه ليس
من النوع الذي يرمي النرد قبل ان يملك الرهان . فعل من تراه راهن في الجيش
الاردني لقلب العرش ؟

أعادي صوت قائد الطائرة الى صوابي . حاولت والطائرة تقضم بعجلاتها أرض

المدرج السنجابي، ان استطاع بعيني ما يدور في المطار. لم أعرف كيف هبطت سلم الطائرة. دارت نظراتي في زوايا المبنى، افتش عن دبابة عن شاحنة عسكرية. داخل ردهات المطار، لم يكن هناك ما ينبىء ان في البلاد حالة طوارئ. تيقنت من ان الحسين سحق العساكر المتمردة على عرشه.

تهالك جسدي المتعب على المقعد. أرخيت رأسي على المسند الخلفي وتركت السائق ينساب في الشوارع والازقة الى فندق «فيلا دلفيا».

فتشت باصابعي وانا لما أزل مغمض العينين عن الساعة بين اغراضي المبعثرة على طاولة صغيرة قرب السرير، فاذا بعقاربها تميل الى الساعة صباحا. شعرت بالنور يقتحم الغرفة متسللا من خلف الستائر، أزحتها بلهفة. مررت بعيني على الشارع الحركة عادية. لا ظواهر لحركة مسلحة.

ترددت في الضغط على ازرار الراديو. تذكرت وصية حفظتها من زمن: لا تسمع اذاعة البلد الذي تزوره ولا تقرأ صحفه فهي تكذب عليك بالسمع والبصر.

اتصلت بالسفارة السورية. كان السفير فؤاد قضياني [نقيب المحامين السوريين قبل دخوله السلك الدبلوماسي] يؤثرنى بمكانة في قلبه، لأنني كنت صديقا لنجله وليد. كان يجهل تماما مدى سوء علاقتي مع السراج. اعلمته بوجودي في عمان. رحب. لكنه كان مقتضبا في الكلام، فاستشفيت منه حرج التحدث عبر الاسلاك المراقبة. ضرب لي موعدا في مكتبه فالتقينا.

عرفت من السفير قضياني خفايا ما كان يدور، وعلى الرغم من كرهه «لعصابة الضباط العشرة» الحاكمة في دمشق، تجنب بدبلوماسيته المعهودة ذكر الاسماء. الا انه تركني أفهم بأن حركة اللواء علي ابو نوار كان لها من يؤازرها في «الخارج» و«الجوار».

و«الخارج» و«الجوار»، كان الدس والتآمر الذي ضلع فيه عبد الحميد السراج. فبعدها بث جواسيسه الى بيروت، وركز فيها عملاء ومرتزة، متى سأل أجابوا ومتى طلب نفذوا. أدار وجهه صوب الاردن، وبدأ ينفث فيه النار. وكانت الشرارة الاولى تفجير مبنى رئاسة الحكومة في عمان، وقت كان هزاع المجالي فيه، فقضى نحيبه تحت الانقراض ومعه عشرات من الموظفين والمعاونين⁽¹⁾. ومد السراج يده الى الجيش الاردني. أوغر صدر قاداته يواطئهم ضد الحسين. ودفع باللواء علي ابو نوار الى التمرد ورفع الصوت ضد الملك والعرش، محركا دباباته باتجاه القصر. الا ان الحسين تمكن من وأد التمرد والقاء القبض على قاداته.

اقترح علي السفير فؤاد القضياني بأن أزور «دولة الباشا» ا مللم من وجهي علامة التعجب واستدرك: «دولة الباشا» بهجت التلهوني، رئيس الديوان الملكي... سأرتب لك موعدا على الارجح يوم غد».

رنّ جرس الهاتف في الغرفة .
طلع عليّ صوت موظف الاستعلامات يطلب مني النزول الى ردهة الاستقبال ،
فان شخصاً يسأل عني ويود مقابلتي .

توجست من نخبوء . تحايلت على اضطرابي وأنا أسوي عقد ربطة العنق . زار
ذهني ظن ، ان حملة بدأت على الصحفيين ، الذين كانوا قد بدأوا يتجمعون في عمان
لتغطية اخبارها ، وكنت قد التقيت اثنين سوريين وصحافيا لبنانيا في بهو الفندق .
رمى السلام وانحني قليلا . ربة في القامة . يزين وجهه الأسمر شاربان رفيعان
تحت انف دقيق . تملاني بسرعة . وفال بصوت خفيض : دولة الباشا في انتظاركم
في المقر .

شعرت بزهو غريب . رسمت على فمي ابتسامة الرغبة والقبول . أفسح لي
الطريق ومشى خلفي . فاذا بسائق سيارة الباشا ، لما رأنا ، يفتح الباب الخلفي ،
جلست . بينما جلس الشاب في المقعد الامامي .

ومن يستطيع الا ان يفسح الطريق لسيارة «دولة الباشا» ؟ كنت أشعر بأعين المارة
تلتصق على زجاج شبابيك السيارة مستفسرة عن الجالس فيها . والرؤوس تدور
معها ، والاصابع تدل عليها . قضمت السيارة الطريق الى المقر ، أي قصر بسمان ،
بسرعة . على باب القصر حراس من الشركس ينتصبون برماحهم الطويلة . وعساكر
بزي القتال تحرس مداخله . تسابق خادمان على فتح الباب . وما ان دخلت الرتاج ،
حتى تقدم مني أحد موظفي المراسيم مرحباً مبتسماً :
- دولة الباشا سيكون معك بعد دقائق .

مد خطواته امامي في الردهة الكبرى . ثم انعطف يمينا في ممر طويل . تركني في
غرفة الانتظار الانيقة انتظر «دولة الباشا» .

دارت نظراتي في أرجاء الغرفة . تنزلق من الحيطان الملبسة بالمخمل الى اللوحات
الزيتية الكبيرة ، لتستقر على المنافذ الرخامية وتعلق في السجاد العجمي المشكل
والمعجوق بالالوان . . .

- أهلا . . . أهلا أستاذ غسان كيف حال عبد الحميد بك ؟

لفني الصوت بالانقباض . تسرب الى ملامح وجهي . ارتسم في عيني استغراب
حاول بهجت تلهوني ان يحتويه ، يزيله بابتسامة عريضة . ضغط على يدي :

- سعادة السفير ، أبلغني رغبتك في مقابلة جلالة الملك . . .

كان يقول كلامه هذا وهو يسير بي الى مكتبه :

- ستقابله بعد نصف ساعة .

نزل كلامه برداً عليّ . تمدد الاطمئنان في اعصابي المشدودة وبقي شعور بالحيرة

والامتعاض يطوف في مخيلتي يلاطم الاسئلة : كيف عرف انني عديل السراج؟ فلقد كنت اكره ان يكتشف الناس نسابتي له . ثم كيف أدخل قصر الحسين و«العديل» وراء التآمر على صاحب القصر والعرش؟ أي حرج أنا فيه؟
كان بهجت تلهوني يحدثني ، بينما تدور هذه الافكار في رأسي ، شعر بالغضب والخرج . . . كنت أراه يتكلم وما كنت اسمع الا صوت افكاري المتلاطمة . رنين جرس الهاتف اعادني الى صوابي . وقف بهجت تلهوني ، احكم تبكيل ازرار سترته :
- جلالة الملك سيستقبلك الآن .

- ٤ -

دخلت عليه . كان واقفا خلف مكتبه . مشى نحوي . قدمني بهجت التلهوني . رسم الملك على وجهه ابتسامة مترددة . تركنا رئيس الديوان وحدنا . انتظرت الى ان اجلس على مقعد قبّالتي ، فجلست .

كان يتكلم بهدوء . نظره الثاقب الحاد كان يلسع وجهي . شعرت بأنه كان يخفي مرارة وهو يكلمني عن «الاخوة» و«الجيرة» ملمحا ما أمكنه لذلك الى عدم احترام الاخوة الكرام في دمشق لحسن الجيرة والجوار .

وتكلف الحسين عدم الغضب ، الذي كنت أراه يخفيه في زوايا عينيه وهو يكلمني عن «أشباه الرجال» الذين يريدون تلقينه درسا بالوطنية متناسين ما للبيت الهاشمي من مواقف وطنية على كر العصور . تنبه الى أن صوته علا . . . فعاد الى توازن النبرات .

اعطاني الامان والكلام . حاولت بها أوتيت أن أفهمه بأنني أعرف تاريخ البيت الهاشمي . وعددت له المواقف والتواريخ . وعدت أسأله ، كأني صحافي في حضرة ملك كاد عرشه يهتز ، عن حركة أبي نوار وملابساتها . أحسست من اجاباته ، التي كانت تحور وتدور وتلامس بديبلوماسية أطراف «المؤامرة» وملابساتها ، أنه كان يشعر أنه ليس أمام صحافي يلهث وراء سبق في حديث بقدر شعوره بأنه أمام «عديل» من كان وراء التآمر عليه . وان هذا «العديل» الصحافي لا بد انه جاء عمان للملمة أخبارها وحشرها في «تقرير» يرفعه الى نسيه!

تكمش هذا الاحساس في نفسي ، لما اخذ الحسين ييث في مجرى كلامه اشارات معينة حول عبد الحميد السراج . كأنه يريدني ان أثبها بدوري الى «السلطان» متى عدت الى دمشق! [اترك تفاصيلها فهي أصبحت للزمان].

استمرت المقابلة ما يزيد على الساعة ، انهاها الحسين بلباقة . وقف على الباب يودعني . احتوى وداعي له بنظرة مشت على وجهي بسرعة واكتفى بابتسامة : «بأمان الله» . . .

تولاني شعور بالامتعاض . سيطر علي غضب مقيم . تهت في الممرات المتشابهة بحثاً عن مكتب بهجت التلهوني . عرفته في آخر الممر من مسكة بابه المذهبة . دخلت عليه . فاذا بي أجد اللواء محمد رسول الكيلاني [رئيس الاستخبارات] جالساً اليه . قدمني رئيس الديوان الملكي . تغلبت على تردددي في الكلام :

دولة الباشا ، لقد وددت مقابلة جلالة الملك من أجل حديث صحافي حول حركة التمرد ، فاذا بي أشعر من خلال حديث جلالته . انه يريد تحميلي كلاماً معيناً لشخص لاود بيني وبينه ، فضلاً عن ان خلافاتنا السياسية باعدت بيننا . فأرجو ان تبلغ جلالة الملك ذلك . لقد دخلت عليه وأنا صحافي وخرجت منه وأنا لا أزال صحافياً .

كان بهجت التلهوني يلتقط كلامي بتنبه . يهز برأسه كأنه يوافقني على ما كان يسمع . رمقني بنظرة جمع فيها ما استطاع من تحجب :

- نلتقي الليلة على العشاء . . . السيارة ستكون على باب فندق فيلادلفيا السابعة مساء .



بيته كان على ربوة ، تنام تحتها عمان . جلسنا بعد العشاء على شرفة المنزل . كانت عينا بهجت تلهوني تسرح في المدى بين الحين والآخر وهو يزيل من تخيلتي ما علق بها حول نسائتي للسراج ، وأفهمني أن السفير القضائي أبلغه أنني صحافي بالدرجة الاولى ، وأني مدير «القبس» . ثم اتبع ذلك بآني «عديل» السراج ، ظناً منه ان ذلك قد يسهل علي الأمر ، من دون ان يسهب السفير بتفاصيل علاقتي «بالعديل» . أشعرتني بهجت التلهوني انه يعرف أدق التفاصيل عن علاقتي بالسلطان الاحمر . وليزيدني وثوقاً من ذلك راح يحكي لي عن تفاصيل تأمر اللواء على ابو نوار وصحبه . ومدى علاقة عبد الحميد السراج واعوانه به . وتركني اسجل كلامه حرفاً . . . حرفاً . امتد بنا الكلام وكذلك الليل حتى بعد منتصفه . سألني ان ابقى ثلاثة ايام أخرى بضيافة المملكة . وضع بتصرفي سيارة ومرافقاً وبرامج مشبعة بالتجوال . قادتني الى القدس الشرقية ومنها الى الخليل وبيت لحم ومررت برام الله صعوداً الى نابلس فجنين وطول كرم مدن المثلث . . . و . . . في اليوم الثالث استأذنته بالسفر .



ما عرفت أننا وصلنا الى مخفر درعا الا عندما نشر الجندي الواقف على الحدود السورية - الاردنية لكنته الخلبية ، طارحاً السؤال السخيف : من أين جئنا . هم كذا خفر الحدود يحبون الاسئلة السخيفة .

طوال الرحلة في السيارة كنت منشغل البال، أحرار كيف انشر ما قاله لي الملك وما استفاض رئيس ديوانه بشرحه عن علاقة السراج بالتآمر على الحسين وتحريك نفر من الجيش ضده.

مع ان التعب هددني هداً ولم أنم. صرفت الليل اعد خطواتي، تتسابق أناملي على علبة السجائر، امتص الواحدة بعد الاخرى.

حاولت ان اغرس القلم على الورق الابيض أمامي، فكان يردني عنه تلبك افكاري. كنت كمن يريد ان يفرغ كل جعبته في كلمة واحدة. في سطر واحد. ولا يجد تلك الكلمة ولا يعرف مبتداً السطر من خبره.

وعدت اركز القلم على الورق من جديد. وبدأ الكلام يولد من حبره ويسيل على البياض. ما طلع الفجر الا كنت انهيت تحقيقاً احتل مكاناً على صفحة «القبس» الاولى، ذكرت فيه ان الانتصار الجزئي الذي حققه الحسين بن طلال على حركة علي ابو نوار. لم يقض على نزع التآمر التي حاكتها أيدي مجربة داخل القوات المسلحة. وذكرت في المقال ان الاجهزة الاردنية ترصد تمرداً آخر جد قريب في الجيش... وتركت الامر مشكولاً. ونسبت الكلام الاخير الى الملك. وكنت مصيباً في تحليلي، فلم يمض وقت طويل حتى كان اللواء علي الحيارى يحرك دباباته في معسكرات الزرقاء وكاد يقضي على العرش الهاشمي، لولا ان الحسين أخذ المبادرة اولاً، فاقترح قاعة الضباط المتآمرين وخاطبهم قائلاً:

«اذا اردتم روعي فخذوها الآن وأنا بين أيديكم. لكن... انقلدوا البلاد والمملكة من سفك الدماء»^(١).

واروي هنا للتاريخ. انني حملت ما قاله لي بهجت التلهوني الى نصوح بابل نقيب الصحفيين ورئيس تحرير جريدة «الايام»، واخبرته جانباً من لقائي بالحسين بن طلال. وشكوت له حيرتي وسأله رأياً في كيفية التصرف بالمعلومات الخطيرة التي ذكر بعضها الملك وبعضها الآخر قاله لي بهجت التلهوني.

استولت النشوة على نصوح بابل، الذي كان يعتمر في قلبه الغضب ضد السراج، الذي حاول اكثر من مرة استمالة فأعرض ورفض كل الاغراءات التي وضعها السلطان في دربه لاجتذابه، فما نزل الى درك رؤساء التحرير الآخرين، الذين استزلوا وداهنوا ومالقوا السلطان وأصبحوا خدماً في بلاطه.

لقد وجد نصوح بابل في تلك المعلومات ما يشفي غليله. فطلب مني كتابة ما قاله التلهوني، فأخذه، وصاغه في تحقيق صحافي ذكر فيه الاسماء والتواريخ كاشفاً دور السراج واعوانه وأجهزته وجواسيسه في الاردن، أعدنا قراءته عشرات المرات. وكانت الخطة تسريب التحقيق الى جريدة «الحياة» البيروتية، فلقد كانت لرئيس تحريرها كامل مروة، رحمه الله مكانة في البيت الهاشمي ومنزلة. وبعد نشر التحقيق

بأربع وعشرين ساعة تنقله «الأيام» عن «الحياة» في الصباح و«القبس» عن «الأيام» بعد الظهر.

أرسلنا التحقيق المطول. نشرته جريدة «الحياة» على صفحتها الأولى. وبعد أربع وعشرين ساعة كانت جريدة «الأيام» تصبّح الشام بعناوين التحقيق النافرة و«القبس» تمسيها به. إعادة النشر عن «الحياة» لم تكن كاملة. اضطربنا بدافع الخوف من التعقبات والملاحقات والارهاب والقمع و... «المزة». ان نشطب اسم عبد الحميد السراج، حيثما ورد في التحقيق والاستعاضة عنه بهلالين كبيرين وبينهما ثلاث نقط... .

★ ★ ★

كان يجلس ساهما شارد الذهن، يغلف وجهه بالامتعاض. لم يفاجئني حضوره وزوجته ملك، لما دخلت البيت عند المساء فلقد اعتدت منها على مثل تلك الزيارات المفاجئة في العشايا.

ما كدت ارتاح على المقعد، حتى بادرني مبتسماً:
- من أين جاءتكم معلومات محاولة الانقلاب في الاردن؟
تكلفت الدهشة واجبت ببراءة:

نقلناها عن جريدة «الأيام».

- جريدة «الأيام»، من أين نقلتها؟

تصنعت عدم المعرفة وقلبت شفتي السفلى ولم أرد.
ويهدوء ثعلب يهم بالانقضاء، على فريسته، سحب من حقيبة جلدية صغيرة جريدة «الحياة» البيروتية ووضعها على المنضدة. تناولتها. قلبتها بأصابعي. نظرت اليه على اتساع عيني وقلت:

- عجيب... والله عجيب...

واتبعت كلامي بابتسامة خبيثة.

- عجيب كيف ينقل الصحفيون من بعضهم البعض. لقد نقلنا عن «الأيام» و«الأيام» جاءتها معلومات من مراسلها في عمان، الذي على ما يبدو يكتب «الحياة» البيروتية في آن معا. وهذا يحدث كثيرا. فلا تستطيع ان تضبط مراسليك في عواصم العالم... فتقع في مثل هذه الاشكالات.

ورميت «الحياة» بعصبية المستاء من تصرف شاذ... فألقني صوت زوجتي، يدعونا الى العشاء من حديث كان يمكن ان يمتد ويتوسع ويؤجج الخلاف بيني وبين السلطان، الذي كان وقتها ضرب طوقاً على الصحف وأوعز الى فؤاد الشايب، مدير الانباء في حينه ان يفرض على أخبار تنقلاته وتحركاته ونشاطاته رقابة صارمة، بحيث

تصدر الجرائد خلوا من الحديث عنه ، فلقد كان السلطان الاحمر يتعد عن الاضواء ليتسنى له في الظلمة حبك الدسائس والمؤامرات ثم . . . الانقضاض على فريسته .

- ٦ -

إن أنت ضيعت عزيز عباد، النائب والسياسي، تجده مع زوجته جهينة في بلاط السلطان. ذلك ان الست مَلَكْ كانت تأنس لجهينة، والسلطان كان يحب الاصغاء للنائب، الذي كان يفرغ في أذنيه حكايا ما يدور في الاروقة ووراء الكواليس. عزيز عباد، وصل الى البرلمان عام ١٩٥٤ بأصوات القوميين الاجتماعيين، وأصوات آل سلمان المرشد [الذي اعدمه شكري القوتلي في الاربعينات] . . . قبيل ما سمي بـ «المؤامرة» السعودية التي سنأتي على تفاصيلها فيما بعد، استماله عبد الحميد السراج، كما استمال واحتوى غيره من السياسيين والنواب، ومنهم من كان ثريا او اقطاعيا او ابن حسب ونسب وعائلة يقف السراج امام أصولها حاقدًا ناقبًا.

في وضوح النهار، كان السلطان يخطب في الناس داعيا الى «الاشتراكية» ويدعي حرصا على «الاقتصاد الوطني» فيجرد الحملات لمطاردة المهربين، الذين كانوا ينقلون على ظهور البغال، السلع الكمالية من الاسواق اللبنانية، وفي العشايا كانت موائده تزخر بأطايب بيروت وجبلها وربطات عنقه من أفخم محالها. . . يشن حربا على الاقطاعيين ويحالف خالد العظم، سليل أكبر عائلة اقطاعية في سورية وتصبح زوجته مَلَكْ صديقة ليلي العظم الحميمة. ولا يخلو مجلس مَلَكْ من قرينة واصف كامل [ابنة عائلة الشيشكلي المعروفة في دوما]. ومن النادر ان تزورها ولا تجد عندها قرينة عزت الطرابلسي حاكم مصرف سورية المركزي. . . غير ان بين هؤلاء جميعا كان عزيز وجهينة عباد الأقرب والأعز. . . ومثلما كان السراج على قلب في الرأي وتحول، كانت مَلَكْ تجاريه الطبع والطباع. فاعتري الجفاء فجأة علاقتها بعزيز وجهينة عباد، تحولا بين ليلة وضحاها من صديقين حميمين الى عدوين لدودين. وانتشرت شائعات مثل الوشم تطرز أحاديث زوار بلاط السلطان، من ان النائب عزيز عباد، أخذ يستغل قربه من عبد الحميد السراج ليحقق مكاسب مالية ونفوذا يوصله الى مآربه واطماعه.

ولا يمضي كثير وقت، حتى تعود ترى عزيز عباد في مجلس السلطان الاحمر وزوجته. كأن شيئا لم يكن. وكأن الجفاء كان غمامة صيف انقشعت. . . الى ان كانت «المؤامرة» السعودية التي وظفها عبد الحميد السراج ليشدد قبضته على سورية والسوريين ويستثمرها لدى الرئيس جمال عبدالناصر، ليقبض ثمنها مناصب نقلته من وزارة الداخلية الى رئاسة المجلس التنفيذي [رئيس الحكومة] الى نيابة رئيس

الجمهورية فما نافسه في اللقب الاخير غير الماريشال [المشير] عبدالحكيم عامر، الذي صار واليا على سورية في أواخر عهد «الوحدة» بين الكيانين المصري والسوري.

لم يعرف عن عزيز عباد الثراء، الا بعد انكشاف «المؤامرة» السعودية . قيل يومها انه اغتنى من مبلغ المليون دولار الذي حصل عليه «هدية» نتيجة تعاونه في الكشف عن تلك «المؤامرة» المزعومة.

و . . . قيل يومها أيضا، ان الملك سعود بن عبدالعزيز وفر أكثر من مليون دولار للاطاحة بـ «الوحدة» بين دمشق والقاهرة^(١).

الرئيس جمال عبدالناصر تحدث من على شرفة قصر الضيافة في ساحة التحرير في دمشق، قال، ان العاهل السعودي دفع عشرين مليون دولار للاطاحة «بحلم القومية العربية» ، حسبما قال . . .

. . . واذا كان عزيز عباد قد جنى من «المؤامرة» مليون دولار . . . فآين اذن ذهبت الملايين الثمانية عشرة الباقية؟

(١) كشف لي أحد الاصدقاء فيها بعد بأن الانفجار الذي أطاح بهزاع المجالي، رئيس الحكومة الاردنية، وبعدد كبير من معاونيه وكبار موظفيه كان واحدا من انفجارين ، قام بهما مستخدم في رئاسة الوزراء بمساعدة رفيق له دخل المبنى خلسة . زرعا المتفجرة الاولى لتقتل المجالي ومن معه، حتى اذا ما انتفض الحسين بن طلال المعروف بحميته وشهامته واندفاعه لزيارة مكان الانفجار والاطلاع على الدمار والخراب، تنفجر بعد أربعين دقيقة عبوة ثانية لتقتله وصحبه . الا ان حرسه الخاص منعه وهو على بعد امتار من المبنى المدمر عن الاقتراب من الاطلال، بل ان أحد كبار ضباطه وكان شركسيا هده بالقتل اذا ما أصر على الدخول قائلا:

«يا سيدنا أنت المقصود وليس هزاع المجالي» . جرت هذه الحادثة في أواخر عام ١٩٥٨ .

(٢) صيَّح لي أحدهم وهو على دواية بمرحلة الاضطرابات في مملكة الحسين ان الكلمة التي ألقاها الحسين بن طلال في ضباطه في معسكر «الزرقاء» لم تكن اثناء محاولة اللواء علي الحياوي لقلب نظام حكمه، بل ان الحسين قال هذا الكلام بعد فشل اللواء علي ابو نوار في حركته وعصيانه التي سبقت حركة رفيقه بالسلاح بحوالي ثلاثة اسابيع فقط . . .

(٣) يعرف صديق كان يعمل في بنك سورية المركزي خلال شهر آذار (مارس) ١٩٥٨ ، ان المصارف السورية التي كانت تعمل حرة قبل تأميمها ودمجها في مصرف يسمى «البنك التجاري السوري»، كان يتوجب عليها ان تقدم كشفا بموجوداتها من النقد الاجنبي.

«البنك العربي» الذي ما زال عبدالمجيد شومان يترأس مجلس ادارته في عمان، وكان يدير فرعه واصف كمال، [جار عبدالحميد السراج في مبنى سكنته في شارع الجاحظ من حي ابو رمانة]، قدم الى البنك المركزي بيانا في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٨ اكد فيه توفر مليون جنيه استرليني في خزائنه في مطلع نيسان (ابريل) ١٩٥٨ . بعدها نقص المبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني، اعطي النائب عزيز عباد من ذاك الحساب الذي كان مفتوحا باسم «ع. س» التي عنت الحروف الاولى من اسم السراج ، والتي كانت تساوي في ذلك العام مليون ليرة سورية.

سألنا صديقنا: لكن اين جواب سؤالنا عن مصير بقية الملايين قال :
للحقيقة والتاريخ ، هذا ما دخل حساب عبد الحميد السراج في «البنك العربي» الذي كشف لمصرف
سورية المركزي . وللحقيقة عزيز عباد لم يقبض اكثر من المائة الف جنيه ، اما اذا كانت هناك دفعات
اخرى ذهبت مباشرة الى عبد الحميد السراج ، عبر امنية اخرى فلم احط بها علماً وأنا الذي كنت مسؤولاً
عن حسابات النقد الاجنبي في المصرف المركزي لكل المصارف العاملة في الجمهورية السورية فهذا امر
لا استغربه . . . فالمعروف ان أجهزة الاستخبارات في العالم تدخل الى صناديقها اموالا و«تبرعات»
كالتى تبرع بها مثلاً نجيب مهمل (الفصل الرابع) ، لا يلتزم بأي حال من الاحوال رئيس جهاز
الاستخبارات بتقديم اي كشف عنها لاي سلطة في الدولة . فاذا فعل ففي حدود جد ضيقة . وقد
تكون المبالغ التي اشترى اليها في الحديث عن ما سمي بـ «المؤامرة السعودية» تدخل في هذا السياق .

★ في ١٥ من ايلول (سبتمبر) ١٩٩١ توفي اللواء علي ابو نوار في لندن عن ٦٦ عاماً . بعد اعتقاله
على اثر محاولة الانقلاب على الحسين اعفي من منصبه الا ان العاهل الاردني أعاد اليه اعتباره وعينه ممثلاً
شخصياً له ومن ثم سفيراً للاردن لدى قصر الاليزيه . كما شغل أبو نوار مناصب رفيعة عدة . وهو عضو
في مجلس الاعيان الاردني .

الفصل السابع

تركيع الصحافة



- ١ -

ما كاد شارع نوري باشا في منطقة الجسر الأبيض ، ينفض عنه الليل وتندس في مفاصله أشعة شمس ربيعية بليدة تستحثه على الحركة ، حتى سدّت منافذه شاحنة عسكرية ، قفز الجند منها . نشروا الرعب بدعساتهم المتسارعة . توزعوا الابنية . تتدحرج أعينهم المسنونة على الطوابق . تستقر على الشبابيك والمداخل متلهفة لالتقاط حركة غريبة . زنروا احدى البنايات في وسط الشارع بالبواريد . هتكت عري الشارع سيارة «فورد» برتقالية اللون ، نشر هدير محركها ذعرا بين الجند . حشر سائقها فمها في مدخل تلك البناية فسده . ترجل منها ثلاثة كان بينهم سامي جمعة [ابو سمير] رئيس مفرزة الاعتقالات والتعذيب في أوكار وأقية عبدالحميد السراج . شقّت الباب قليلا مستفسرة بصوتها عمن يكون الطارق في مثل تلك الساعة المبكرة . فأزاح سامي جمعة الباب بعصبية وترك نبرات صوته الخشن تدبّ في أرجاء البيت توقظ من فيه .

«نريد النقيب المالكى» . زجر بحنق ، وأوما الى أحد العناصر بالدخول فانتصب على الباب .

.. أنا هو . . .

خلف الصوت وقف شاب طويل القامة ، جسيمها ، متناسب الوجه يتجمع العزم في قسّات وجهه ، لامع الشعر براق العينين أسودهما ، تدوران خلف نظارة طبية تزيد من ملاح الوجه ثقة وتشوي بوسع مدارك صاحبها . ضم أمه الى صدره ، فانتزعه سامي جمعة عنها ودفعه الى العنصر فتلقفه بصفحة على وجهه ثم بحركة سريعة لوى العنصر ذراع النقيب خلف ظهره وجره الى الخارج وسط عويل الام واعتراض شقيقه هشام ورياض على اقتحام سامي جمعة عنوة لمنزلهم وتعرضه المشين لضابط في الجيش كان قدوة في الانضباط والبسالة . تركه العنصر يتدحرج على السلم ، بعدما فقد توازنه على أثر ركلة نزلت وسط

ظهره، صرخ لها النقيب المالكي من الالم . وما أن وصل الى كعب السلم عند مدخل البناية، حتى كان سامي جمعة قد سبقه اليه، فرفعه من شعره عن الارض . دفع به الى سيارة الـ «فورد» البرتقالية، ارتقى النقيب على مقعدها الخلفي يتلوّى ألماً . عاد محرك السيارة يهدر في الشارع . للم الجند بواريدهم . حشروا اجسادهم في الشاحنة فأدارت ظهرها لشارع نوري باشا الذي عادت تدب فيه الحركة . يدور الهمس بين المارة، يدلون بأعينهم على البناية، فهم اعتادوا على مثل تلك المشاهد، فالقمع كان بعضاً من حياتهم اليومية .

اقتادوه الى مقر الشرطة العسكرية في حي البرامكة . رموه في غرفة التحقيق، التي زارها قبله الالوف . مارسوا عليه صنوف التعذيب النفساني . اتهموه بالاشتراك في الانقلاب على حكم «السلطان الاحمر» فيما عرف بـ «المؤامرة العراقية» [١٩٥٦] . اقتلعوا منه الكلام . كل كلمة مع ظفر من أظفاره . مع عنين السوط الذي يضرب الهواء قبل ان ينزل على جسده الممزق بالجراح . كان كلما أغمي عليه رشوا الماء على وجهه، فلا يستفيق الا والاكف تنزل على وجهه، والركلات من أحذية مطرزة بالمسامير النافرة المستننة تنغرس في ظهره . . .

بعدها أئخنوه بالجراح . انتظروا الى ان ييس الدم على قميصه فسلخواها عن جسده ومعها جلده . ثم . . . نقلوه مخفورا الى شاحنة صعدت به الى سجن «المزة» الرهيب، فتوارى في سراديبه المظلمة التي تفوح منها روائح القيح والدم، ولا يسمع فيها غير الانين والصراخ بعد حفلات التعذيب المتواصلة التي كان أعوان عبدالحميد السراج يتفنون بها . . .

لقد كان النقيب مصطفى كمال المالكي، خريج مدرسة «سان سير» العسكرية الفرنسية المعروفة . رفيع القدر عالي الصيت بين أترابه، واسع المدارك على درجة عالية من الثقافة، يتحدث الفرنسية والانكليزية بطلاقة، على صدره أوسمة عدة تشهد على بلائه وتفوقه .

قبل ثلاثة أيام من اصدار عبدالحميد السراج أمراً بالقاء القبض عليه لينضم الى مئات الذين اتهموا بمؤامرة ١٩٥٦، كان النقيب المالكي مع خطيبته هيفاء دياب في محلات «النحلاوي» للمفروشات الواقعة في شارع العابد الذي يصل شارع الشهداء بساحة السبع بحرات، يتفقدان ما كانا اوصيا عليه من أثاث لبيتها الزوجي، فلقد كان عرسهما وشيكاً .

لم تنفع الشفاعات والوساطات لمعرفة مصير النقيب مصطفى كمال المالكي . مثله مثل الذين اعتقلوا على أثر انكشاف أمر محاولة عام ١٩٥٦ منعوا من الاتصال بأحد

أو الاعلام عن أماكن اعتقالهم. لم يكن يحق للمعتقل حتى توكيل محام يحضر التحقيق، فلقد ألغى السراج كل ما كان جاريا مفعوله من قبل عند توقيف أي معتقل سياسي. حتى أنه عمم منعاً على القضاة بإطلاق سراح أي متهم يمثل أمامهم بكفالة مالية... كان المعتقل يقضي في غياب السجين رهن التحقيق العرفي، الذي لا يطاله قانون ولا تمنعه شرعة، قبل أن يحال إلى محكمة يجلس على قوسها قاض مغمور الصيت والضمير، يدخل القاعة وفي جيب سترته الداخلية نص الحكم سلفاً...

- ٢ -

دمشق. قبل عبد الحميد السراج، نامت سنوات على ضيم القمع... إلا أن «السلطان الأحمر» كان له المرعى الأكبر في حصيدها.

حسني الزعيم على مدى الأشهر الأربعة التي حكم فيها جمهورية الخمسة ملايين في حينه، مارس القمع.

رمى في «المزة» طوال فترة حكمه النائب فيصل العسلي، زعيم «الحزب التعاوني الاشتراكي»، الذي كان يحاول قبل واحد وأربعين سنة أن يقيم نظاماً ديكتاتورياً، جامعاً من حوله عدداً من الضباط وبعض المثقفين والمحامين والصحافيين من أمثال سيف الدين المأمون ومنير الرئيس صاحب جريدة «بردي». فخلبهم بشعاراته الدينية وبالعرف الذي مارسه عناصر حزبه في حي المهاجرين، وفي أحياء دمشق الجبلية. ولكن، ما مد عسكري يده ولا أنزل سوطاً على جسد فيصل العسلي، وما جرّع الذل والاهانة، وما ذاق صنوف التعذيب، وما منع عنه حسني الزعيم زيارات المناصرين والمحازين الذين كانوا يحملون إليه الأطعمة من «نادي الشرق»...

واذكر فيما أذكر على عهد حسني الزعيم، أنه في التاسع والعشرين من آذار (مارس) ١٩٤٩ ترك نجيب الرئيس رئيس تحرير «القبس»، منزله في شارع عمر المختار المجاور للمدرسة الإيطالية في دمشق إلى منزل والدي في الرقم ٢ من الشارع نفسه، حذراً من الاعتقال لانتهاه إلى «الحزب الوطني»، الذي كان فيه الرئيس شكري القوتلي الذي انقلب حسني الزعيم عليه واعتقله مع رئيس حكومته خالد العظم. فلقد جاء من أسر في أذنٍ نجيب الرئيس أن حسني الزعيم بات يضيق ذرعاً بافتتاحياته في «القبس»، التي كان يتعرض فيها للفضن السياسية وحجم الفساد وكميات الرشاوى والمداخلات التي كان يقوم بها الأثرياء والأنساب والأصهار في

المؤسسات والشركات والاسواق المالية والمصارف . . . وكان أشد ما أزعج -
الزعيم ما كتبه نجيب الرئيس عن العسكر وتدخلهم في السياسة . فلقد كان .
الله ثراه ، يرى ان موقع العسكر ليس في القصور والسرايا ، انما في الثكن و الخ
والمتاريس على جبهات النزال للذود عن حياض الوطن وصون استقلاله ، فيها
الشرطة ورجال الامن العام والدرك ، ينحصر في حماية أمن الدولة في الداخل و
النظام . . .

أمضى نجيب الرئيس ثلاث ساعات ، في حوار سياسي مع والدي ، أعد
العدة لما سيكون إن هو سيق للاعتقال . ثم قام الى الهاتف ، أدار قرصه بهدوء .
الطرف الآخر كان ابراهيم الحسيني ، رئيس الشرطة العسكرية .
- عرفت انكم بتم في إثري تطلبون التحقيق معي .
أخذ نجيب الرئيس نفسا طويلا ، أصغى هنيهة ثم قال بثقة :
- أنا يا سيدي في انتظاركم في منزل عديلي وصفي زكريا الذي تعرفون ع
جيدا .

لم تمض ساعة ، حتى أقتيد نجيب الرئيس من منزل والدي بسيارة من
«دودج» رصاصية اللون . غاب أربع ساعات ، ليعيدوه بالسيارة نفسها ،
مكرما ، بعدما قابله حسني الزعيم ، وتخلل حديثهما عتاب حول مقالات الرئيس
ناصر فيها النواب والاحزاب في مواجهة تحركات عسكرية كان الزعيم الاشنة
اكرم الخوراني ، يستقطبها ويزرعها لتثمر فيما بعد ، ثمرات ذاق السوريون مره
واذا كان سامي الحناوي لم يسمح له قدره المخبوء ان يبقى طويلا في ا-
فيمارس القهر والقمع ، فان اديب الشيشكلي افاض واستفاض . على عهده ا
سجن «الشيخ حسن» القائم فوق احدى اكبر مقابر الشرق القديم المسماة «
الباب الصغير» في جنوبي دمشق ، التي تضم رفاة الملوك الأمويين معاوية الاول
يزيد وحفيده معاوية الثاني وعبد الملك بن مروان وغيرهم . . . من القادة ، الذين
آخرهم جميل مردم بك وبعده شكري القوتلي الذي على عهده تحقق الص
المصري في التحكم بسورية فامتد سلطان القاهرة الى حوض دجلة والفرات .

في سراديب «الشيخ حسن» مارس نظام اديب الشيشكلي انواعا من التع
والقهر لم تكن معروفة حتى أيام الانتداب الفرنسي . لكنها انتهت بزوال -
وغيابه عن الساح والميدان . ولم يكن اديب الشيشكلي قد غادر الحدود الشامية -
انقض مئات المتظاهرين على سجن «الشيخ حسن» يدكون حيطانه بالمعاول وب
الفولاذية بالمطارق الحديدية كأنه كان «الباستيل» الذي اقتحمه الثوار الفرنسيو
نهاية القرن الثامن عشر .

عبد الحميد السراج ، اعاد الاعتبار لـ « الشيخ حسن » . بناه من جديد ، وقام أعوانه بترتيب الزنانات والسراديب ، واستجلب له ولسجن « المزة » العسكري خبراء في فن التعذيب من الاتحاد السوفياتي والمانية الشرقية وتشيكوسلوفاكية ، فقدموا معهم وسائلهم من بطاريات كهربائية ودواليب يوضع فيها المعتقل اثناء حفلات الجلد الطويلة . تدرج اعوان السراج على اساليبهم في التعذيب وفاقوهم قدرة وشراسة في الابتكار ، من مثل استعمال البراميل الثلجة التي كان يوضع المعتقل فيها ساعات طويلة حتى يتجمد الدم في عروقه وتنشل مفاصله ، ليعود يغمر في براميل المازوت ، وبعدها يعلق من يديه في السقف فيتدلى جسده في فراغ الغرفة المظلمة ويترك أياما بلا نوم ولا أكل ولا شرب . . . او يعلق من رجله فيتمرجح وسط حلقة من الجلادين الذين يتناوبون بأسواطهم المصنوعة من الاسلاك الغليظة على ضربه ، حتى يتشقق جلده وينغرس السوط باللحم الحي والعظم . . .

ليس من الذين مروا قبله على حكم دمشق من يجاريه في ارتكاب المعاصي والفظائع والتنكيل والمؤامرات ، فلقد كان عبد الحميد السراج يعتبر من كبار الظالمين المحترفين .

- ٣ -

امتلاً رأس مَلَك بصوت نصّوح النحلاوي ، وهو يقول لها : قطع الاثاث هذه ياسيديتي ليست للبيع ، فقد أوصى عليها النقيب مصطفى كمال المالكي ليوم زفافه لكنه لسوء الحظ اعتقل مع غيره . . .

خفت عليه ان يكمل فيتبع كلامه بالنعوت . فلم يكن يعرف ان المرأة التي دخلت معها الى محلاته ، كانت زوجة « السلطان الاحمر » صاحب الدولة والامر والنهي . . .

كانت منهمكة في تأنيث الشقة التي « أخذها » زوجها من التاجر البهبهاني ، الثري الكويتي ، في شارع الجاحظ . فلقد كانت تتعجل الانتقال من الشقة المتواضعة في أحد زوارب منطقة عين الكرش المتفرعة من شارع « ٢٩ أيار » . فالشقة لم تعد تليق بالمقام بعدما أصبح زوجها من أصحاب العزم في الدولة .

لم تترك زاوية في محلات النحلاوي ، الا ونقلت نظرها في ما احتوته وغلا ثمنه ، فلقد كانت تلك المحلات الاغلى والاشهر في دمشق ، آنذاك ، الا انها كانت تعود الى الركن الذي اصطفت فيه قطع أثاث محفورة من خشب الجوز بأيدي مهرة توارثوا الابداع في الخشب كابرا عن كابر . سألت عن سعر تلك القطع على الرغم من معاودة نصوح النحلاوي كلامه بأنها ليست للبيع .

تملاها على مهل . شعرتُ بنظرة استخفاف تتجمع في زوايا عينيه وقال لها بشيء من الهزء :

- انها في حدود الثمانين الف ليرة سورية [كانت تعادل ثروة في تلك الايام] .
نشرت مَلَكُ علامات الدهشة على وجهها . شهقت :

- ولو . . . خشب ١٩ .

لم يتكلف حتى عناء الرد على تعجبها . طاف بعينه على وجهها لحظات ، ثم انشغل عنها في ترتيب بعض المناضد ، فهو لم يسترعه فيها أي شيء لافت : امرأة عادية ، ترتدي فستانا أقل من عادي ، وتشهق من هول السعر . الامر الذي لم يتعوده من الزبائن الذين يدخلون محلاته المعروفة بأسعارها وبتميز ما تعرض . ضايقتها استخفافه بها وعدم اهتمامه حتى بترغيبها في أثاث آخر أرخص ثمنًا . رفعت رأسها بحركة غريبة ، علقت نظرة امتعاض على وجهه وقالت بنبرة تجمع فيها تشاؤف ظاهر وتوق شديد لرد الاعتبار :

- يبدو ان غسان لم يقل لك من أكون . . .

رمى نصوح النحلاوي نظرة عجلى على وجهي . بانت علامات استفهام حائرة على قسماته بددتها بسرعة :

- السيدة زوجة المقدم عبدالحميد السراج . . .

شحب وجه نصوح النحلاوي . بلغ ريقا تجمد في فمه . فطن أنه في حضرة زوجة «سيد البلاد» . ارتعدت أوصاله . غير نبرة صوته . انحنى قليلا وهو يجمع كلامه بتلعثم أظهر مدى ارتباكها :

- يا سيدتي المحل كله على حسابك . . . اذا كانت هذه المفروشات قد اعجبتك فنحن على استعداد لنصنع مثلها لصاحبها متى عاد من السجن يطلبها لعرسه . شعرت مَلَكُ بالزهو . انتشت بكلامه . ادارت له ظهرها ومشت وهو خلفها يفرك يديه .

- سأعود غدا . . .

قالت مَلَكُ وتركت نصوح النحلاوي يفتح لها باب السيارة . بعد يومين كان أثاث عرس النقيب مصطفى كمال المالكي في منزل عبدالحميد السراج . فقد قدمته «محلات النحلاوي» للسلطان الاحمر . . . هدية !

- ٤ -

ترتفع المضباب عند مبنى فندق بلودان الكبير ، الرابض بتشاؤف فوقها . ومصدر تشاؤفه وتكبره على ما عداه من الفنادق ، في الشام ، ليس هندسته المميزة وغرفته الوسيعة ومسبحه الكبير وقاعات الحفلات المتعددة ، انها ماضي ايامه التي شهدت

مباهج الطبقة الارستقراطية والبورجوازية السورية مند بنائه عام ١٩٣١ حتى وصول عبدالحميد السراج الى سدة الحكم عام ١٩٥٨ .

لما صار وزيرا للداخلية فيما سمي بالمجلس التنفيذي للاقليم الشمالي . . . اصبح عبد الحميد السراج «يصطاف»!

قبل اعتلائه ذلك المنصب، كان «الاصطياف» من المفردات الغريبة على قاموس حياة «السلطان الاحمر»، ليس لعدم الرغبة في الهرب من حردمشق اللاسع ايام الصيف، انما لضيق ذات اليد، وهو الآتي من محيط معدم . . . فما كان يجنيه في سلك الدرك ثم في الجيش بالكاد يأتيه بالكفاف . . .

وفي حين كان يتحدث عن «الشعب الكادح» و«أمانى الشعب وحقوقه»، فانه يوم زينت له زوجته ملكة اهمية ان يقال «سيادة الوزير يصطاف» . . . لم يختر مصايف «الشعب الكادح»، في قريتي «بقين» و«مضايا» مثلا . . . ولا حتى مدينة «الزبداني» التي كانت مصيف الطبقة الارستقراطية والشعبية في آن . . . انما اختار بلودان وفندقها الكبير بالذات، الذي كان يدخله مرافقا عسكريا لحسني الزعيم ومن بعده لاديب الشيشكلي.

سبقه اليه حرسه . عشرون مغوارا بشياهم المدنية كانوا يندسون بين النزلاء . ينشرون اعينهم اينما كان . يتحرشبون بها بكل الناس . يتباهون بالمسدسات المشكوكه في خواصرهم . يمشون خلف ظل «السلطان الاحمر» . يتجاسرون ان ارتسم الشك في أعينهم، على تفتيش حقائب النزلاء وغرفهم والتنصت على المكالمات الهاتفية . . . على رأس هؤلاء رجل هبار، حاد الملامح، تدور في وجهه الدميم عينان واسعتان يخرج منهما شرر يرتاب الناظر اليه ويستفيد من شر مستطير، كان اسمه فاروق وهو من مدينة دير الزور في شمال شرق سورية .

لم يطل الامر بالنزلاء حتى ضجوا من تصرفات حرس السلطان . فما كان من توفيق الحبوباتي [صاحب «نادي الشرق» ومستثمر فندق بلودان الكبير، الذي صادق كل رؤساء الوزراء السوريين من ايام الاستقلال عام ١٩٤٥ الى يوم وفاته عام ١٩٨٥]، الا ان سعى جاهدا لتوفير منزل لائق ليس برئيس المجلس التنفيذي ووزير الداخلية فقط، انما بعسكري يملك سلطة مطلقة، لم تعرف لا دستورا ولا ضوابط حقوقية . فانتقل عبدالحميد السراج وعائلته وخدمه من فندق بلودان الى منزل وسيع تحول الى بلاط يقدم فيه عليه القوم فرائض الطاعة لسلطان البلاد وسيدها الذي لا يشق له غبار.

لم أعد أذكر لمن كان المنزل في الاصل . . . وكيف تمكن توفيق الحبوباتي من وضعه بتصرف السراج وعائلته التي كانه مؤلفة، من ابنة واحدة وخادمتين مصرية

وسورية وثلاثة من أشقاء مَلَك كانت تتولى رعايتهم والانفاق على تعليمهم
كنت في تلك الفترة اعجب لحجم الانفاق الكبير الذي كان يترتب على السراج
ويتعدى عشرات الآلاف من الليرات السورية، فلقد كان ملزماً بسداد ايجار منزله
في دمشق المؤلف من طابقين في شارع الجاحظ، ودفع ايجار منزله الصيفي في
بلودان، وكسوة عائلته واطعامها والانفاق على دعوات العشاء للذين كان يفسح لهم
المطابخ في بلاطه من الاتباع وأشباه الأنداد. فكيف كان يتدبر أمره، وأنى له بمثل
هذه المبالغ وهو يعيش على معاشه؟

اعترف . . . انني بثقة ما مسها في الظن ظن آثم، اعتبرت ان كل هذه النفقات
اما مغطاة بمخصصات من الدولة او انها «هدايا» و«هبات» من أصحابها لتلمس
رضى السلطان . . . الى ان جاءني، بعد حوالي ثلاثة عقود، عقيد الجيش المصري
المتقاعد جوان زلفو [شقيق مَلَك] الى لندن زائراً، فهتك ستر زهد وطهر سمعة
صهره، سلطان سورية الاحمر، المالية وحكى لي ما كنت اجهله عن جشع وطمع
واستغلال وحب السراج للمال، فمزق غشاوة ظلت ما ينيف عن عقود ثلاثة تحجب
عن عيني حقيقة حياة البذخ والرفاهية التي عاشها ذاك الذي دخل الحكم حاقدًا
فقيراً بعدما كثير الشر قليل الخير، فتستر بالطهر وعفة النفس والزهد بالمال ليخرج
من الحكم ويهرب من سورية ثرياً منعماً.

- ٥ -

في الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، ايام الوحدة غير الطبيعية وغير
العلمية، التي زوجت دمشق للقاهرة، بارادة بعض ضباط الجيش السوري من
عبدة الحكم والمناصب والنفوذ والابهة والمال، الذين استغلوا «رومانسية» عربية
خلبت القلوب فأعمتها، وهوى أهوج «لوحدة» ضاعت حدودها بعد ميسلون، فما
عاد أصحاب ذلك الحب يعرفون ان كانت الوحدة والتوحد يحدهما طوروس في
الشمال وزغروس في الشرق وقوس الصحراء في الجنوب والبحر في الغرب، أم انها
وحدة فخري البارودي «بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان ومن مصر الى اليمن
ومن نجد فتطوان»!

في تلك الايام، استمرت الصحافة السورية تتنازعها العواصم الكبرى، بين
محافظة وليبرالية، يمينية ويسارية، رجعية وتقدمية، اشتراكية وشيوعية وقومية.
تتمتع بحرية الجهر والنقد. فان تبادت صحيفة ما فانها كانت تحال على محكمة
المطبوعات. تعطل اسبوعاً او يدفع ناشرها غرامة مادية بسيطة، لتعود فتصدر من
جديد . . .

وليس لمن يعرف مدى حقد وكره وخوف السراج من الصحافة والصحافيين، ان

يتعجب مما بدا منه ، يوم أوغر صدر جمال عبدالناصر على صحافة دمشق ، فكان السراج يكرر أمامي وأمام غيري انها من «بقايا النظام الرجعي القديم» ولا يجوز ان لا يمسه قانون يعيدها الى صوابها . . .

منذ البداية استجار السراج بالفكر الماركسي الاحمر والفكر الاشتراكي المتمرّكس . فاحتواه الرباعي صلاح الدين البيطار وميشال عفلق واكرم الحوراني وخالد بكداش .

قرب منه الصحافي احمد عسه ، بعدما اصدر مع نزيه الحكيم جريدة «الرأي العام» [كان نزيه الحكيم قد اشترك مع قلدي قلعجي في وضع دستور نظام اديب الشيشكلي] التي كان يوجه سياستها الرباعي الماركسي - الاشتراكي ويناصرهما ويسهم فيها لفيف من المحامين والاطباء والمهندسين الذين ساروا خلف ذلك التكتل اليساري ، الذي كان بدأ يتحكم بالشارع السوري في مواجهة حكم يميني كان يسعى وراء المكاسب العائلية والعشائرية وحدها .

ولسبب ما تمكن عبدالحميد السراج من فض شراكة احمد عسه ونزيه الحكيم . فغادر هذا الاخير دمشق الى المهاجر البعيدة وما زال . . . فتفرد أحمد عسه ، بـ «الرأي العام» . وسّع انتشارها . صارت الصحيفة الاولى في دمشق ، لا لجدارة ومضاء قلم رئيس تحريرها ، انما لتوطد العلاقة بينه وبين «السلطان الاحمر» . فكان أحمد عسه يغمس قلمه بمجبرة السراج ويلويه على الورق صاغرا لارادة السلطان ، ينفث في افتتاحياته سموم ولي نعمته وينفخ في الكلام الاحقاد بحق من عادوه واعترضوا على تصرفاته وجوره . فسماه عباس الحامض [نقيب المحررين السوريين ورئيس تحرير «القبس»] بـ «صاحب مدرسة الخيانة» وفضح في غير افتتاحية له في «القبس» علاقات احمد عسه المشبوهة بالقدس المحتلة .

فما تخرج أحمد عسه عن الاثم وكف بل أخذ يمرغ قلمه بالختل والدس والافتراء على الناس مرضاة للحاكم بأمره . فلم يتورع عن نشر الافتراءات والاضاليل حول السوريين القوميين الاجتماعيين الذين كانوا يجلدون في سراديب السراج واقبيته ، وقد بلغت الصفاقة باحمد عسه ان نشر في «الرأي العام» بتاريخ التاسع والعشرين من تشرين الاول ١٩٥٥ رسالة «قيل» انها موجهة من والدة العقيد عدنان المالكي الى السيدة جولييات المير [عقيلة الزعيم انطون سعادة] تتهمها فيها بكلام قاس وجارح ، بأنها شاركت ووقفت وراء مصرع ابنها . ولقد سؤل عسه لنفسه تزوير وتسخير شعور ام مفجوعة بولدها لاذكاء نار الحقد والبغض ضد القوميين الاجتماعيين .

لقد كنت واحدا من الذين عرفوا والدة عدنان المالكي ، كما عرفت انجالها الثلاثة

وابنتها . . . فما عرفت فيها قدرة على الكتابة والغوص في المعاني والمباني ولا يوما وقفت منها خلال العديد من اللقاءات معها على المامها بالشؤون السياسية .
كان احمد عسه ، يجني ثمن الختل والدس والكذب الاسود ، انفراده بمعلومات كان يتزود بها في جلساته الطويلة مع السراج ، حتى شبه كثيرون صاحب «الرأي العام» بمحمد حسنين هيكل سورية لقربه من سلطان الشام فيما كان الآخر مقربا من قيصر مصر .

وراح عبد الحميد السراج يعد العدة للقضاء على الصحافة السورية . فاعد مشروعا عام ١٩٥٤ تضمن دمج العدد الضخم من الصحف اليومية الصادرة في دمشق وحلب واللاذقية وحمص . فلا يبقى في دمشق من صحفها الاربعين الا اربع صحف . في حلب صحيفتان وواحدة لكل من اللاذقية وحمص . فوافقه جمال عبدالناصر وطاوعه ، وهو الذي ما طاق في الاصل ان يكون في مصر صحيفة حرة تتجرا على الكتابة من موقع النقد ، فما سمح الا بما يمتدح «انجازات الثورة» . . . فمضى السراج في غيه ينفذ بحقد مشروعه للقضاء على الصحافة . . .
وعمت الفوضى . وما أن سمع عبدالناصر بما جر عليه قرار عبد الحميد السراج من عداوة أصحاب الاقلام في الشام . حتى تحرى من رجال استخباراته عن حقيقة الامر ، وبعث يستأجل «السلطان الاحمر» في المضي بتنفيذ تأميمه ودمجه الصحف الى ان يصل وزير الاعلام في الحكومة المركزية عبد القادر حاتم . فأرجأ السراج الامر .

- ٦ -

انشغل قصر الضيافة الابيض به . حول المكتب الذي خرج منه اديب الشيشكلي الى المنفى ، الى قاعة اجتماعات لناشري ورؤساء تحرير الصحف في سورية . فقد جاء عبدالقادر حاتم الى دمشق ليحاور هؤلاء وليقنعهم بمشروع السراج وليخدرهم بالوعد الرجراج بأن مبالغ مالية ضخمة ستفق لتعويضهم عن الجهد الصحافي الذي بذلوه عبر السنوات الثلاثين الماضية .

وقف . مشى من خلف مكتبه الى وسط الردهة الفسيحة ، لما رأى راسمة الرئيس [صاحبة «القبس» التي ورثتها عن زوجها نجيب الرئيس] . بانت ملامح وجهه المتناسقة لما اقترب مني ضاغطا علي يدي مرحبا . تلمع في وجهه عينا تخفيان خلف بريقهما نظرات رجل قادر على الفتك بحبك . الا ان الابتسامة التي لا تفارق شفثيه كانت تجعل المتحدث اليه يضيع في تحديد شخصية ذلك الرجل ، وتزداد الحيرة مع طلاوة لسانه وهدوء نبرات صوته .

كان وهو يتحدث يلهو بين الحين والآخر ، بربطة عنقه ، حاول ان ينتقي كلماته ، يتأنق في لفظ مخارجها . أفهمنا [بخالتي وأنا] بأن لا رجعة عن قرار الرئيس جمال

عبدالناصر. في «تنظيم» الصحافة السورية التي اتعبته وارهقته، كما اتعبت وارهقت «المسؤولين» في الاقليم الشمالي و«نصحناء» ان نقبل، اسوة بمن سبقنا واجتمع به، بتعويض مالي «سخي» يعوض آل الرئيس عن كل الجهد الذي بذله الصحافي والنائب نجيب الرئيس منذ ان اشترى «القبس» من محمد وعادل كردعلي عام ١٩٢٧.

ابتسم. وكأن ابتسامته ضرورية ليشعر بشيء من الراحة بعد مستطيل الكلام. وانتظر رد راسمة الرئيس فجاءه لاسعا:

ماذا لورفضنا نصحك لنا يا سيادة الوزير؟

ثقلت ضحكة على صدره. حاول ان يكتم غضبا فما اسعفه نظره الثاقب الحاد كثيرا. تنبه لحركة يده العصبية وهي تفتح ملفا أمامه، فجمدها فوق الاوراق. استجمع هدوءه. مسح فمه بأصابعه:

- يا أفندم... لا أظنك ترغبين بمصاعب ومتاعب أمنية مع الحكومة هنا.

رمى كلامه علينا وسكت. امتقع وجهي. تلاقت نظراتي بنظرات خالتي. بسرعة تلاطمت في مخيلتي مجموعة من الصور المفزعة. شعرت ان رعدة ذعر تكمشت في وجه خالتي. حولت نظري عن وجهها ورميته على وجه عبد القادر حاتم. استجمعت في صدري نفسا طويلا وقلت:

- تحدثت عن تعويض مالي سخي... هل لنا ان نعرف قيمته في حال موافقتنا على الاجراءات الجديدة لتنظيم الصحافة؟

تملكه الزهو. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة نشوانة بالانتصار الذي حققه.

- أوي يا أفندم... الاستاذ فؤاد الشايب [وكان مديرا للانباء وقتها] سيعطيكما الرقم بالتفصيل...

انتظر. انتشى بنصره. حقق ما أراد. وقف. سوى من ربطة عنقه. احكم تبكيل سترته. ابتسم. صافحنا باليمنى وأغلق باليسرى الملف الذي كتب عليه بالحبر الاحمر وبخط نافر غليظ «جريدة القبس». ووضع جانبا. ومع اغلاق الملف في ذلك الصباح من صباحات ايلول (سبتمبر) ١٩٥٨ اغلقت «القبس» وسنواتها الثلاثون. أصبحت تاريخا بشحطة قلم، والتعويض «السخي» كان ٢٨ ألف ليرة سورية بالكاد سدّد تعويضات عمال المطابع فيما بقي المحررون والكتاب والمراسلون والاداريون بلا تعويضات...

★ ★ ★

الذين بقوا هم الذين أسلسوا القياد. بطريقة أو بأخرى...

نصوح بابيل، صاحب «الايام»، استجار بعبد الحكيم عامر من جور عبد الحميد السراج، احتفى به فحماه.

وديع الصيداوي صاحب «النصر» سلم أمره للسراج فسليم وبقيت جريدته. فلم يخل الصيداوي في تأييد «السلطان الاحمر» ولا كان مقلا في تطريز المقالات لدعم سياسة السراج في الداخل والخارج على الرغم من كل الجور والعسف الذي مارسه في دمشق والتآمر والدس الذي برع فيه في الخارج. وتوطدت علاقة وديع الصيداوي بالسراج الى درجة ان زوجته اوغوستين أصبحت من نديات ملك.

عزت حصرية، صاحب «العلم»، كان لا بالير ولا بالنفير، جريدته محدودة الانتشار تركها السراج مرضاة لطبقة «الشعب الكادح» التي كانت تنشر فيها...

اما منير الريس فقد أبقي جريدته «بردى» في مأمن فسلم مفاتيحها واستسلم للسراج، بعدما كان طويلا يدافع عن مبادئ حزب فيصل العسلي الرجعية.

ولـ «الانباء» وصاحبها نذير فنصة عديل حسني الزعيم، الذي حاول السراج اغتياله، حكاية أخرى سنعود اليه واليه.

بين تلك الصحف وغيرها... بقيت «الرأي العام» محصنة. لم يطلها قرار الضم. يصول صاحبها في امبراطورية السراج ويجول. تنشر ما لا ينشر وتكتب ما لا يكتب. لا يزور مكاتبها زوار الفجر ولا يداهم رجال الشرطة مطابعها فيصادرون ويحطمون ويحرقون...

الا ان احمد عسه لم يكن وحيدا في تزلفه للسلطان، فلقد التف من حوله وحواليه العديد من الصحافيين الناشئين، يتوسلون لقمة عيش هينة ولو كانت مغمسة بالدس والكذب الاسود. في مقدمتهم بكري المرادي الذي صار ايام الاتحاد القومي نقيبا للصحافة، وهو الذي كان مشبوها على زمن الحكم الديمقراطي اليميني السابق لحكم السراج و«عصابة الضباط العشرة» البوليسي.

ومن هؤلاء الصحافيين المتزلفين واحد احتفظ باسمه للزمان. كان يعمل في وكالة أنباء عربية، يزودها يوميا بنشاطات الاشتراكيين والشيوعيين، وفي الوقت نفسه كان يعمل مخبرا بمرتب زهيد جدا في جهاز أمن عبد الحميد السراج، كان ينقل اليه ما كانت تلوكة الالسن عن نظامه. يندس بين الصحافيين يجاري كل من تسول له نفسه الخروج عن الصمت فيتناول جور السلطان وعسفه بمستطيل الكلام، فكان الصحافي المخبر يدبجه في تقارير يانس لمثلها عبد الحميد السراج، فيبطش وينكل ويرمي في السجون.

في طائرة الـ DC6 التي أقلت الوفد الرسمي السوري الى القاهرة للاجتماع. بجمال عبدالناصر، المنتشي بـ «النصر» في حرب السويس [الذي ما كان تحقق لولا

وقوف الجنرال دوايت ايزنهاور ونيكولاي بولغانين ضد الغزاة الثلاثة : بريطانية وفرنسة و«اسرائيل» [جلست خلف ميشال عفلق وكان في عداد الوفد الذي ترأسه وزير الخارجية صلاح الدين البيطار وضم بعض كبار معاونيه الى جانب احمد الشقيري ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية حينذاك

كنت الصحافي الوحيد على الطائرة . لم يكن هدفي من زيارة القاهرة تغطية اجتماعات الوفد السوري بالمسؤولين المصريين بقدر ما كان للكتابة عن معاناة مصر خلال فترة العدوان الثلاثي .

في فندق «شيدر» التقيت عباس الحامض وعبدالغني العطري صاحب مجلة «السنيا» . أمضينا اياما نحاول جهدا صحافيا فأعرض المصريون عنا . فلقد كنا برأيهم وراي استخباراتهم وتقارير عدلي حشاد [الملحق الصحافي في السفارة المصرية في دمشق] مجموعة من «الصحافيين اليمينيين الرجعيين غير الثوريين» !!! فعلقوا عيون استخباراتهم علينا . كنت أشعر أنني مراقب . اينما حللت كانت العيون ترصدني . كان يتملكني الانقباض كلما خرجت من الفندق ، فحرصت على ابلاغ عباس الحامض ببرنامج تنقلي اليومي من خوف ان تخطفني «الاشباح» التي كانت تمشي خلف ظلي «فأختفي» من شوارع القاهرة كما اختفى عشرات ، بقوا زمنا ذاك ، خارج عناوين الصحف وأخبارها

على مدخل قصر «القبة» الذي كانت تنعقد فيه اجتماعات المصريين والسوريين كنت مع جمع من الصحافيين نتظر ان يطل علينا أحد المسؤولين ليعطينا زادنا اليومي من اخبار ما يدور في الاجتماعات وما يريدوننا ان نكتبه بالطبع . . . فاذا بيد تربت على كتفي . فانتفضت مذعورا . استدرت بسرعة ، فاذا بعبد الحميد السراج ينتصب امامي . للملم الانقباض من وجهي بابتسامة مستحبة . استغرب وجودي في القاهرة . . . ثم سألني عن موعد عودتي الى دمشق فاجبته انني سأغادر بعد يومين . . . فانفجرت اساريه كأنه وجد شيئا كان يفتش عنه . استمهلني . دخل قصر «القبة» . غاب دقائق . ثم مد خطواته نحوي . شدني من ذراعي الى زاوية قصية . سحب من جيب سترته الداخلية مظروفا ابيض صغيرا وطلب مني همسا نقله الى «صديقنا» الصحافي في وكالة الانباء في دمشق .

كان في داخل المظروف صك بمئتي ليرة سورية ، مرتب ذك الصحافي «الوطني» الذي كان يعمل مخبرا مزدوجا عند عبد الحميد السراج والمصريين



عبد الحميد السراج وموافق فرنسي
حين كان في بعثة دراسية في باريس
أوائل الخمسينات

الفضل الثاني

أمّ أميرة السعودية



لا تدري ، وأنت تنزه عينيك في وجهه أنك أمام رجل اذا عُدَّت الرجال في قومه عُدَّ بالقوم جميعاً، فلقد كان في السياسة أبرعهم وفي الدبلوماسية أكثرهم حنكة ودهاء . . . فلا تنبئ ملامحه عما في نواياه وما يضمّر. ترامي به العمر. مشى بتوءدة على وجهه الدقيق. ترك تحت عينيه الزئبقيتين تعب السنين. تجاعيد بدأت تظهر ترسم على الجلد عند زاويتي الفم خطوطاً تشي بالكبر. في أعلى ظهره تحدب بسيط أحنى له رأسه قليلاً، مشيته المتمهلة كانت تزيد من مظهر العجز في مفاصله. يستر رأسه بكوفية تخفي ما بقي من شعر تربيع المشيب في خصلاته وتمدد الى بعض شعيرات تحت الأنف والذقن. طرزت الوجه بالوقار. لا يرسل الكلام على رسله. يتمهل فيه يتأنق في مخارجه التي تطلع من صوت خفيض ونبرات هادئة. هكذا كان يوسف ياسين، ثعلب الدبلوماسية السعودية في الخمسينات و. . . أكثر.

تحايل على الكرسي، يحاول أن يقف يساعده ابن عمه عبدالفتاح ياسين، لما دنا منها الصحافي السوري عدنان عناية [برد الله ثراه فقد توفاه الله في مغتربه القسري في كندة] ليشاركها الجلسة في باحة فندق «برنتانيا» في برمانا [أحد مصايف الطبقة اللبنانية الميسورة آنذاك].

كان يوسف ياسين، يعرف عن عدنان عناية ميوله العروبية وصلاته القريبة والوثقى ببعض قيادات «حركة القوميين العرب»، التي كانت تشكل، وقتها، من شباب الجامعة الاميركانية في بيروت، بعضه كان تخرج وبعضه كان في خواتيم سنوات التخرج. دار الكلام يتجول بين السياسة والسياسيين حتى استقر حول أحوال دمشق التي كانت تنوء وتتلوى، تدميها قبضة عبدالحميد السراج الذي استمر الأبهة والمناصب، وتشد على خناقها هجمة الماركسيين والاشتراكيين الذين كانوا يقفون خلف «السلطان الأحمر»، فتبادى في غيّه وجموحه نحو التطرف الماركسي والشيوعية العالمية. . .

بقي يوسف ياسين مطرق السمع يرمي بين الحين والآخر، بذوابة كوفيته الى

الوراء، تستهويه حمية الصحافي وهو يشرح بمستطيل الكلام و«برومانية» عرف فيها، عن العرب والعروبة والحاجة الى التفاهم لدرء الاخطار التي تتهددهم، بينما كان عبدالفتاح ياسين يرمي نظرة عجلى على الصحف اللبنانية التي كانت حبل بأخبار الشام وبجور «عصابة الضباط العشرة» القابعة مع «السلطان الاحمر» على أعنة الحكم في الجمهورية الفتية.

الدبلوماسيان السعوديان والصحافي السوري، كانوا مثل عشرات غيرهم من رجال السياسة والفكر والمكانة، اعتبروا ان معركة الحركة السورية القومية الاجتماعية مع عبدالحميد السراج هي «شأن خاص» بها وبه، فما صدقوا انه وقد أطبق السلطان عليها بعد مقتل العقيد عدنان المالكى [١٩٥٥] سيرتد عليهم وهم كانوا من شد على يده، يعمل السياط في ظهورهم، يكيل لهم التهم والنعوت، يرمي بهم في غياهب سجون المربعة، يشتتهم تحت كل كوكب باسم «الوحدة» و«العروبة».

حك يوسف ياسين رأسه كأنه يحرك ويخلط الكلام فيه. نقل نظره من أحضان حرش الصنوبر المترامي أمامه، وركزه على وجه عدنان عناية وقال بهدوء:

- ما رأيك لو وعدنا عبدالحميد [السراج] بالوصول الى رأس السلطة في سورية كما فعلنا مع أديب الشيشكلي قبل خمسة أعوام؟

تهالكت علامات التعجب على وجه عدنان عناية. كتم سؤالا كاد يقفز من بين شفثيه اكتفى بإشارات مستفهمة رسمها في عينيه، جمع الشيخ يوسف ياسين كل حيرة عدنان عناية بابتسامة تركها باهتة على شفثيه، وكأنه لم يبال لتعجب عدنان عناية ودهشته عاد ينتقي كلماته بهدوء:

- نحن في الرياض لن نطلب شيئا. لن نرسم له سياسة. لن نمنع عنه أي أمر. نغض الطرف ونسد السمع إن هو وجد في شتمنا والتعرض إلينا في العلن ما يخدم تفاهمنا في الخفاء. لن نقف عائقا أمامه ان هو استحسن انتهاج سياسة اقتصادية ضارة بنا... ليتصرف داخل سورية كما يشاء مقابل ان يحقق لنا شرطا واحدا.

وسكت يوسف ياسين ولم يزح نظره عن وجه الصحافي، كأنه كان يريد ان يللمم وقع الكلام عليه. مرر يده المعروقة المدبوغة على كوفيته، يسوي من وضعها على رأسه. انهمك عدنان عناية في سحب لفافة من علبة السكاير. أشعلها. أخذ نفسا طويلا. ارتبك. تكلف الابتسام. غدره الكلام:

- ما هو هذا الشرط اليتيم؟

مشط شعيرات ذقنه بإبهامه وسبأته. تملأ عدنان عناية للحظات. فتح فمه وأفرج عن الكلام:

- شرطنا ان يحافظ على «الكيانية» السورية. ان يبقى سورية في حدودها الحالية.

لا ان يتوسع شرقا أو جنوبا أو غربا . ان لا يقفز فوق فلسطين المحتلة الى مصر . ان لا يعقد حلفا دفاعيا او هجوميا مع العراق ، بمعنى آخر ان لا يتوحد مع اي «كيان» عربي . . . هذا هو شرطنا . . . ان نفذ فله السلطة والحكم ودعمنا الكامل . . . عرف أنه مسّ فكر عدنان عناية الذي كان يتغنّى بحلم «الوحدة» . فاستدرك الشيخ بدهاء :

- ان الوحدة والاتحادية والتوحد اذا شئت . . . أملنا جميعا كعرب .
امتألت عينا عدنان عناية بشيء من التعجب . فسَخَا الشيخ يوسف ياسين في كلامه :

- لكن . . . يا صديقنا إن قيام الوحدة بين أي بلدين في الوقت الحاضر ، سيؤدي الى القضية العربية لذلك نرى ، انه من الاجدى الحفاظ على الامر الواقع (ستاتوكو) لكل بلد مستقل حاليا حتى اذا ما تم استقلال الجميع يبدأ التعاون الاقليمي الذي لا بد انه عاجلا أم آجلا سيوصلنا الى الوحدة والتوحد .

في هاتيك الايام ، قبل عام ونيف على الزواج غير الشرعي بين دمشق والقاهرة ، كان بين السعودية ومصر عداوة خفية لا تموهها التصريحات . فالسعودية لا تريد وصلا وتقاربا مع الدول الشيوعية ، وغير راضية عن موقف جمال عبدالناصر من السوفيات بعد الغزوة الثلاثية عام ١٩٥٦ ، فانعكس هذا الخلف المستحكم بين البلدين على دمشق ، حيث تجلّى الصراع السعودي - المصري في مواقف عديدة حاولت الرياض خلالها التخفيف من النفوذ المصري ، الذي كان يتغلغل خلف الشيوعيين والبعثيين الاشتراكيين الى مجموعة نافذة من العسكر على رأسها عبدالحميد السراج . وما حاوله الشيخ يوسف ياسين بدهاء وحنكة وبراعة في حديثه الى عدنان عناية ، [الذي عرف انه سيحمل العرض الى صاحبه] ، هو ان يغري «السلطان الاحمر» ليستميله فيفض شراكته مع الشيوعيين والاشتراكيين ويبتعد بالتالي عن ركب الناصرية فيبطل مجاراته لصاحب مصر ، الذي كان انتشى بعد انكفاء الغزاة عن السويس ، بتهليل العرب له ، فبات يظن انه الناطق وحده باسم العالم العربي ، يترسم له ليقارع ويناكف الانظمة التي لا تقر له بالزعامة ولا تواليه وتجاريه في سياسته .

وكان أول الليل . لسع برمانا نسيم بارد . لفّ الشيخ يوسف ياسين عباءته حول جسده وقام يتقي البرد . مشّت عينا عدنان عناية خلفه . في تلك اللحظات كانت الافكار تتلاطم في رأسه حيرى . استرجع بسرعة كلمات شيخ الدبلوماسية السعودية وما عرضه على السراج فتأرجحت الظنون في مخيلته وتركته أرقا تلك الليلة .

قفز أمام عيني عدنان عناية فجاء وجه يوسف ياسين وهو يدير قرص الهاتف يجمع رقم منزل هاني الهندي . فلقد فكر ان يكون الهندي اول من يسمع منه تفاصيل العرض السعودي ، فالرجل كان أحد قادة «حركة القوميين العرب» ، رفيع القدر فيها ولرأيه عند عدنان عناية بالذات منزلة . فضلا عن ان السراج قد يسمع منه قولة الشيخ السعودي بأذن أقوى على السمع منها اذا تولى عدنان عناية نقل الكلام للسلطان بنفسه .

في تلك الفترة كان الامر يختلط على الرائي والسامع حول علاقة «السلطان الاحمر» بالقوميين العرب . فمن كان يحاول الافادة من الآخر؟ هل كان القوميون العرب يحاولون استغلال عبد الحميد السراج لطموحاتهم «الوطنية» والتنفيذية ، أم ان العسكري القابض بيد من حديد على مقدرات جمهورية الخمسة ملايين ، يحاول ان يستفيد من تواجدهم الهامشي على الساحات السورية واللبنانية والفلسطينية . . . ليمدد نفوذه ويستقوي بها عندهم عليهم وعلى غيرهم؟

تواعدا . ومن خوف على دسياسة يوقعها بهما الجواسيس الذين بثهم عبد الحميد السراج بين الناس يرصدون ويتنصتون ويشون ، قررا ان يكون لقاءهما مستترا . قاد عدنان عناية سيارته «الكاديلاك» الحمراء ، والى جانبه هاني الهندي ، على طريق وادي بردى ومتفرعات انهرها السبعة . اجتازا «كيوان» الى «الربوة» و«دمر» صعودا الى «الهامة» ومنها الى صحراء «الديماس» .

ما ان أخرس محرك السيارة حتى بدأ عدنان عناية بالكلام شارحا لهاني الهندي ما اتاه من حديث الشيخ يوسف ياسين ونسيبه عبدالفتاح ياسين .

كان هاني الهندي يصغي بانتباه لما ذكر له عدنان عناية ان العرض لا يتناول عبد الحميد السراج ووصوله الى قمة السلطة في البلاد فقط ، انها في العرض ايضا ما يهم «حركة القوميين العرب» ، فالرياض تعرض ان تدعم تلك الحركة ماديا بغية ايجاد روابط وصلات بينها وبين الحكومة السعودية !

شعر هاني الهندي بالاغتراب وان كان استمهل صديقه الصحفي للتفكير بمن سيقوم بمطارحة عبد الحميد السراج بالعرض السعودي . فاتجهت أفكار هاني الهندي نحو طلعت صدقي ، فالرجل مقرب من السراج الذي يأمن له ويثق به ويؤثره بمكان قصي في قلبه . . . وهو على ذلك الاصح والاجدر بأن ينقل العرض بشقيه الى «السلطان الاحمر» . . . فضلا عن ان طلعت صدقي على صلة بعبدالفتاح ياسين وصداقة ، تجعله يرتاح له ، يطمئن الى كلامه وعروضه واقتراحاته ، خصوصا اذا ما كانت مظلة بحضور «ريشيليو» الملكة العربية السعودية الشيخ يوسف ياسين . . .

تملكت عدنان عناية الراحه وهو يسمع كلام هاني الهندي . فلقد وجد ان صديقه قد أصاب باختياره طلعت صدقي لتمرير العرض الى السلطان، لكن خاطرا اشتعل في باله، فان باح طلعت صدقي بأنه هو الذي حمل العرض قد يستاء عبد الحميد السراج ، الذي بات معتدا بنفسه، وقد تفوت الفرصة على القوميين العرب في التحكم بالسلطة من وراء السراج ، لذلك يجب على صدقي الا يذكر المصدر الذي أوصل العرض اليه، وان تمادى عبد الحميد السراج في الشك والريبة ملحا على الاستفسار، فان على طلعت صدقي ان ينفي صلة عدنان عناية وهاني الهندي بالامر. . . .

وافق هاني الهندي صديقه عدنان عناية على ما كان يجول في خاطره . أدار عدنان محرك «الكاديلاك» الحمراء . رقصت ابتسامة زهو على شفثيه وهو يعود أدراجه الى دمشق. . . . ترك هاني الهندي عند باب منزله وعاد يطوف بسيارته في الشوارع . تبين عدنان عناية، وهو يسترد أنفاسه، ان وجه طلعت صدقي قد تغيرت ملامحه وهو يبدي اهتماما بكل كلمة . فشجعه ذلك على الاستفاضة في شرح ما قاله يوسف ياسين ، خصوصا ما يتعلق بالتعاون مع القوميين العرب. . . . فلقد كان طلعت صدقي من المقربين منهم ومن المناصرين لحركتهم داخل الجيش . وعاد وعاد عدنان عناية يطلب من طلعت صدقي ان لا يبوح للسراج باسمه او باسم هاني الهندي وأن يكتفي بنقل العرض عن لسان الشيخ يوسف ياسين الا ان طلعت صدقي نكت بالوعد . أخبر السراج بتفاصيل العرض السعودي وأتبعه بذكر اسم الصحافي وصديقه هاني الهندي . فاهتز «السلطان الاحمر» ، حنقا عند سماعه اسم الصحافي، وانه هو ناقل العرض من فم شيخ الدبلوماسية السعودية فلقد كان يفضل التعامل مع هاني الهندي⁽¹⁾ على الارتباط مع عدنان عناية ! لعله كان يعرف من يومها، سريرة الهندي ودخيلته التي تكشفت فيما بعد. . . .

- ٣ -

بتكر عبد الحميد السراج بكلام طلعت صدقي . قام من خلف المكتب وبدأ يتمشى أمامه في الغرفة المظلمة. . . . بدا له يوسف ياسين كساحر انتشله من ماضيه المعدم الوضع . نشر كلام «ريشيليو» السعودية في عروقه نشوة أحس معها للحظات انه أصبح تحت دوائر الاضواء العربية والعالمية . وبخيلاء راح يرى نفسه الحاكم الذي لا يشق له غبار ولا يرد له أمر . استيقظت في نفسه شهوة الحكم . ضجعت في رأسه الافكار: ان ترضى عنه الرياض يعني ان واشنطن راضية عنه ومعها كل الغرب الاوروي كله، فرضى الرياض من رضى واشنطن ورضى اوروبا من رضى الاثنين معا. . . .

تجمع الحقد في عينيه. تذكر الحي الفقير الذي تربى فيه في حماه. ضغط على أسنانه لما تذكر كيف كان أولاد الاقطاعيين ينعمون بالثروة والمكانة والجاه، وهو يرفل في الفقر المدقع، يعيره أترابه بأن والده يُسرج الحمير ليعتاش. تملكته لحظة انتقام. ضرب الحائط بقبضته. طارد الوجوه المتلاحقة من مخيلته. لا يريد أن يقفز الماضي من خلف حجب الايام فيحرمه نشوته بالحاضر. فجأة استولى عليه الارتباك. عصره خوف مقيم من أن تفلت فرصة التمسك بالحكم. اطرق مفكرا. أحس بانقباض. ماجت الافكار في رأسه. شعر بالحاجة الى رجل يسر له بها أتاها وبها يفكر به. وهو على استبداده برأيه وتشبثه بتنفيذ أوامره لجأ الى مشورة رجل مجرب حكيم. متبصر. محنك. عركته السياسة فعاركها عقودا، فبالآن حتى كسرتة في النهاية. وجد السراج نفسه يختلي بصلاح الدين البيطار، يسأله النصح والمشورة بعدما نقل اليه تفاصيل العرض السعودي. فأوغر رئيس الوزراء السوري الاسبق صدر «السلطان الاحمر» ضد السعودية، غير ناصح له بالتعاون مع حكومتها مخذرا من دهاء «ريشيليو» السعودية يوسف ياسين. مصورا له مضار «التبعية» لنظام على شاكلة النظام السعودي. ولعله وقتها، افضى اليه بمحاسن «التبعية» لنظام على شاكلة نظام جمال عبدالناصر. . . .

في قرارة نفسه ، كان عبدالحميد السراج يعلم علم اليقين انه أسير «عصابة الضباط العشرة» وانه مهما دفعت به أيادي السعوديين الى القمة، ومهما سخروا من أموال لذلك. . . فان أمرا لن يتحقق له أو لغيره لا يرضى عنه «الضباط العشرة» الذين كانوا معه يسيطرون على القطاعات العسكرية الضاربة، المحيطة بدمشق والمدن السورية الكبرى فلولا هؤلاء الضباط لما كان بقي هو في دمشق يتربع على عرش جهاز الرعب والقمع والارهاب والتسلط.

فلقد أصدر اللواء توفيق نظام الدين ، [كان وقتها رئيسا للاركان العامة]، قرارا بتعيين عبدالحميد السراج ملحقا عسكريا في السفارة السورية في باريس. فتنادى الضباط الى منع تنفيذ القرار فحرك طعمة العودة الله [الذي مات مقتولا في القاهرة] فوج دبابته فحاصر مبنى الاركان العامة وهدد اللواء توفيق نظام الدين بدكه على رأسه ورأس ضباط أركانه ان هو لم يُلغِ القرار بنقل السراج الى باريس. وقبل انتهاء انذار طعمة العودة الله بساعة، أصدر اللواء توفيق نظام الدين ، [الذي كان خَلَفَ شوكت شقير في رئاسة الاكان العامة للجيش السوري] قرارا ثانيا ألغى مفعول الاول وثبت عبدالحميد السراج على رأس المكتب الثاني [الاستخبارات].

هذه الحادثة سمعتها من فم طعمة العودة الله. ففي صيف عام ١٩٥٩ دعانا، زوجتي وأنا، للانضمام الى السراج وزوجته لتناول العشاء في مطعم «اشبيليه» في

«دمر». كانت «البيرة» قد دارت في رأسه، فتولاه الزهو والاعتداد بالنفس، فتح عينيه على اتساعهما وصاح بعبد الحميد السراج:
- أتذكر أبا حمد وكيف أنقذتك من النفي الى باريس، حين هددت اللواء توفيق نظام الدين وأركان حربه بدك المبنى على رؤوسهم ان لم يبلغ قرار نقلك؟
علقت نظري في وجه السراج، فاذا بالامتعاض يسرى في ملامحه. حاول ان يهرب من توتر علق في زوايا عينيه فمد على شفثيه ابتسامة حاولت بخفر ان تطرد عبسة استقرت على حاجبيه، وقال بصوت خفيض:
- أذكر... أذكر تماما. لكن هل نسيت يا طعمة انني عيتك وزيرا للشؤون البلدية والقروية؟

- ٤ -

حامت أفكار السراج حول طلعت صدقي. فلقد ساءه ان يكون معاونه الاول على دراية بالعرض السعودي. وعلى الرغم من ثقته به، خاف وهو الغدار، ان يغدر طلعت صدقي به فيستجير بالقوميين العرب فيواطئونه سرا عند الشيخ يوسف ياسين يجرون معه تفاوضا مستترا يفضي به خارج السلطة والبلاد.
وبدا يفكر بالتخلص من طلعت صدقي.
رفعه من رتبة مقدم الى رتبة عقيد، بعدما ندبه الى دورة أركان حرب في محاولة لابعاده عن الانغماس بالعمل السياسي اليومي. وبعدما أيقن ان انشغال طلعت صدقي في العمل العسكري لم يبعده عن التواصل مع «حركة القوميين العرب» صمم على ابعاده عن دمشق، فعينه معاونا للملحق العسكري المصري عبدالمجيد فريد في بغداد. واستبدله ببرهان أدهم [ابو ابراهيم] الذي كان على علاقة حميمة بالنائب عزيز عباد وعائلته.
كانت صالونات عدد من العائلات الارستقراطية في دمشق وحلب وغيرها من المدن السورية، تفتح صدرها للضابط برهان أدهم، فلقد كان لين العريكة والمعشر والمعاشرة، يعرف كيف يوظف طلاوة لسانه ووسامته لكسب ثقة من يندس فيهم. ناقلا عنهم الاخبار مُعداً التقارير، حتى اذا ما غرر بالمناصب، وكان من المولعين بها ومن عبدتها، استشرس وتحول الى جلاذ قُدُّ قلبه من حجر.
بث «السلطان الاحمر» ضابطه المطيع برهان أدهم في صالون عزيز عباد. فلقد كان بيت النائب الاسبق يجمع من كان يهم السراج، خلال طرحه أسئلة حول العرض السعودي، ان يعرف الاجوبة عن تساؤلاته منهم. وأثنى له أطوع واقدر على التجسس من أبي ابراهيم الذي كان رب البيت وزوجته يوسعان له المطارح ويفسحان له الصدارة؟

من رواد صالون عزيز عباد، كانت السيدة أم خالد بن سعود بن عبدالعزيز ،
[أحدى الزوجات المفضلات لدى الملك السعودي الراحل سعود بن عبدالعزيز]
لنسابة جمعتها بالنائب السوري السابق . فيه التقاها برهان أدهم غير مرة ومرة ، ولا
أجزم أن عبد الحميد السراج وزوجه مَلَك. هناك أيضا ، لكن محمد خليفة [أبو
عبدالله] أحد أعوان «السلطان الأحمر» ومن مناضلي «حركة القوميين العرب» [الذي
قام بتفجير ترامواي في باب ادريس في بيروت خلال صيف الدم في لبنان عام
١٩٥٨] تلقى من مدير مصرف عربي في الرياض كان ينتمي - مثله - الى حركة
القوميين العرب ، إشعاراً بمبلغ مليوني جنيه استرليني كتمويل لما سمي بـ «المؤامرة
السعودية» والذي نال عزيز عباد منه «نسبة مئوية»!

كان برهان أدهم عند حسن ظن عبد الحميد السراج ، فما نقله محمد خليفة عن
لسان مدير البنك ، أكدّه أبو ابراهيم الذي استغل ثقة عزيز عباد وزوجته فوشى
بهما عند «السلطان الأحمر» ، فتم بينه وبين النائب السابق «تفاهم» حول كيفية
التصرف بالمال . . .

لما تيقن عبد الحميد السراج من حقيقة الدور السعودي ، استغله عند عبدالناصر
الى أقصى مدى مصوّراً لـ «الرئيس» ان في الامر «مؤامرة» تستهدف «الوحدة» وانه
قد كشفها ! فجازاه صاحب مصر بأن عينه نائباً له في الاقليم الشمالي . فلقد وجد
جمال عبدالناصر فيما قاله السراج ذريعة للانقضاض على السعودية .

★ ★ ★

في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٥٨ قامت «الوحدة» .
في أوائل آذار (مارس) ١٩٥٨ حطت طائرة جمال عبدالناصر رئيس «الجمهورية
العربية المتحدة» فجأة في مطار «المزة» في أول زيارة له لسورية التي يجهلها .
يومها كان السراج ، [وزير الداخلية في الاقليم الشمالي] ، يندفع وعناصره ،
يحمي معها سيارة «الرئيس» فيدهش السوريين لرؤيته وهو الوزير يمارس دور
الحارس Body Guard المصري ، فيما أعوانه يسترون بأجسادهم حديد السيارة من
الامام والخلف وعيونهم تتوزع على وجوه الآلاف الذين زرعوا الشوارع طوعا او
بالاكراه لرؤية جمال عبدالناصر ، الذي ترسمل بتأييد العالم العربي بأكثر مما يستلح
بها في مصر من قوة ذاتية .

مدّ صوته في «الجماهير» الذي كان يتقن فن تهيجها ، ينغم الكلمات على عادته
يستثير اهتاف الغوغائي الذي يطرب به . يتمدد صوته من شرفة قصر الضيافة
في ساحة الجلاء على آذان الآلاف ، كاشفا ما سمي بـ «المؤامرة السعودية» ،
مسوّقا عبد الحميد السراج للسوريين ، ومؤكدا لهم نزاهة السلطان واخلاصه وایمانه

بـ «القومية» العربية وبـ «العروبة الاصيلة» . . . شارحا بكلام فيه الكثير من الاعتداد كيف رفض «السلطان الاحمر» ان يوافق الملك سعود بن عبدالعزيز على حكم سورية بدلا عن «الوحدة» مع مصر مقابل الصك اياه . . . المعطى للضابط «ع. س» [عبد الحميد السراج] الذي صار الشارع الدمشقي يتندر به هزئا وسخرية.

بين ضباط عبد الحميد السراج الذين سمعوا قوله «الرئيس» في السوريين عن «المؤامرة السعودية» كان طلعت صدقي ، فبانت الدهشة على ملامحه ، فأسرع يبحث عن السراج . شده من ذراعه وانتحي به جانبا :

- مؤامرة . . . أية مؤامرة؟ هل هناك ما لا أعرفه؟ هل تسمي ما جاء يوسف ياسين يعرضه عليك مؤامرة . اذكر يا ابا فراس اني يوم نقلت اليك العرض لم تبد رأيا . فلا عارضت وما رحبت . طلبت وقتا للتفكير.

احتواه عبد الحميد السراج بنظرة عجلى . ربت على كتفه وقال هامسا :

- يومها لم يكن وقتها قد حان . . .

قال كلامه و . . . مشى من جديد الى الشرفة ووقف خلف الرئيس جمال عبدالناصر .

(١) الشهيد باسل الكبيسي ، كان أحد قادة «القوميين العرب» . قدم أطروحة لنيل الدكتوراه عنوانها «حركة القوميين العرب» ، فيها نقرأ عن بداية العلاقة بين عبد الحميد السراج وهاني الهندي وحركة القوميين العرب . في الصفحة ٣٦ من الأطروحة ويقول باسل الكبيسي :

«لقاء عبد الحميد السراج بهاني (الهندي) تم في مكتبه وتعدد وأصبح روتينياً ، فقد أدى نشاط حركة القوميين العرب في الاردن وخاصة مقاومتها العنيدة للحكومة في اعقاب اقالة حكومة النابلسي التي اكسبها قطاعات واسعة في صفوف الجماهير . في حين لفتت اعمالها البطولية انظار السلطات المصرية والسورية .

ولقد اهتمت سورية اهتماما خاصا بنشاط القوميين العرب ، فقام عبد الحميد السراج -رجل سورية القوي حينئذ - بتدريب اعضاء من الحركة من سورية ولبنان والاردن والعراق ، ومدّهم بالسلاح ، من أجل النضال في صفوف الحركة السرية ضد الحكم الهاشمي في الاردن (. . .) .

زواج عبد الحميد السراج بالقوميين العرب ، الذي عقد بينه وبين هاني الهندي ، لم يكن زواجا مسيحيا او مصالح مشتركة ابدية ، عبد الحميد السراج كان يبحث عن قاعدة يدعي الانتماء اليها والسيطرة على توجيهها ويحمل هويتها لجمال عبدالناصر . والقوميون العرب ، حسب رأي هاني الهندي كانوا يتطلعون الى وجود سريع وانتشار في العالم العربي بحثاً من امتداد «البعث» (. . .) .

* راجع كتاب «عبد الناصر وتجربة الوحدة» لصلاح نصر



فossil of a large animal, possibly a mammoth, found in the same strata as the fossil of a small animal, possibly a mouse, found in the same strata.

الفصل التاسع

موت البرلمان



ما كان لعبد الحميد السراج أن يحكم ويتحكم في الشام على مدى سنوات ست طويلة بفظائعها ومرارتها وقساوتها، لو لم يقض على الحياة الديمقراطية في البلاد. ولو لم ينشب أظفاره في جلود الأحزاب يمزقها ويقطع أوصالها إربا، يخرس بعض قادتها ويشتت من رفض المبايعة والعمالة له تحت كل كوكب.

وما كان عبد الحميد السراج قد قدر على ارتكاب التلاعبات السياسية الخرقاء التي شغلت الشام وتمددت بشرها تؤجج النار في الجوار، لو لم يلغ وسائل فضحه ومنها الصحافة.

تسلل الى البرلمان، الذي كان حتى عشية قبضه على أعنة الحكم وتحكمه بالقرار، يحاسب ويناقش ويراقب. امامه انحنت هامات العسكر. حسني الزعيم لم يجرؤ على المساس بالمجلس النيابي. في اليوم الأول للانقلاب، زار بنفسه رئيس المجلس فارس الخوري في منزله وأطلعه على ان ما كان يهدف إليه من الانقلاب هو اقامة «حكم ديمقراطي صحيح» . . . وبينما كان حسني الزعيم في منزل فارس الخوري، كان جمع من السياسيين وقادة الاحزاب يتشاورون في العلن في فندق «أوريان بالاس». ولم يحل حسني الزعيم المجلس النيابي إلا بعدما اخفق فارس الخوري في جمع النواب والوزراء والاحزاب على كلمة سواء للخروج من المأزق الدستوري. أديب الشيشكلي، أبقى اللعبة البرلمانية التقليدية، وان كان تلاعب بالانتخابات واوصل من يريد الى الندوة البرلمانية، لكنه نزل عند رغبة النواب، لما قصده النائب زكي نظام السدين يطلب اليه التنحي باسم النواب والشعب. وما كان سامي الحناوي قبله، لو قدر له ان يطول به الحكم، ان يهتك بالحياة النيابية والبرلمانية. كما فعل عبد الحميد السراج الذي نحرها برعونة وحقد وتسلب من الوريد الى الوريد.

- ١ -

أمسك نذير فنصة وجه عبد الحميد السراج بنظرة مستفسرة، لما أطرق الضابط رأسه بالأرض وهو يفتح باب السيارة الخلفي عند مدخل فندق «بلودان الكبير»

ليخرج منها حسني الزعيم وهو يضع «المونوكل» [عدسة واحدة توضع على إحدى العينين] مقطبا يسكب على وجهه وقارا وعلى مظهره مهابة وفي مشيته المتمهلة عظمة مقلدا الجنرالات البروسيين، يدخل بين صفين من المستقبلين إلى قاعة الفندق الكبرى، حيث كان الليل لا يتعب من السهر والرقص مع الأجساد المترنحة على انغام الموسيقى الحاملة.

لقد اعتاد نذير فنصة منذ أن أصبح سكرتير عديله حسني الزعيم [تزوج حسني الزعيم من نوران كريمة أحمد باقي وكان يكبرها بثلاث وعشرين سنة] يكلفه بمهام سياسية ودبلوماسية تاركاً جريدة «الأنباء» التي كان يرأس تحريرها لشقيقه بشير، أن يرى الضابط رياض الكيلاني يرافق عديله. وقد استغرب أن يستبدله حسني الزعيم بضابط خجول لا تبدو على محياه أمارات العزم والقوة. وهو الذي أمن جانب الكيلاني وكلفه بمهام سياسية كثيرة أحداها يوم أوفده إلى منزل رئيس مجلس النواب فارس الخوري ليسلمه رسالة حل المجلس.

لكن مودة حسني الزعيم لمرافقه الجديد بددت استغراب نذير فنصة. فلقد كان الزعيم يؤثر السراج بمنزلة خاصة في نفسه لم يخفها عن أحد. وبالمقابل لم يظهر عبد الحميد السراج خلال مرافقته لحسني الزعيم ما يستثير الشكوك حول ما كان يخفيه ويضمّره. فما بدا منه أي طموح وما تصرف بغير الطاعة للأوامر. صامت. متواضع. لين هين مطواع.

ولم يكن يبدر إلى ذهن من عرفه في تلك الفترة أنه كان ذئبا استنمع.

★ ★ ★

ويصبح الشرق الأدنى محط تجاذب بين فرنسا وبريطانية والولايات المتحدة الأميركية. ويكثر الحديث وقتها، عن مؤتمر للشرق الأدنى يضم الدول الثلاث للنظر في قيام نوع من «الشراكة» فيما بينها على النفوذ في المنطقة.

حكومة «حزب العمال» في بريطانيا، كانت ترى انكفاء الجنيه الاسترليني أمام الدولار، فعادت تعيد خلط أوراقها السياسية في المنطقة؛ تجمع في قبضة نفوذها رجال الحكم في العراق والأردن ومصر، بينما افلكت سورية منها وعصت بعدما وقف حسني الزعيم معارضا للمشاريع البريطانية والهاشمية في المنطقة التي يتزعمها ملك الأردن عبد الله وتسانده المملكة العراقية. فبدأت بريطانيا تنتظر سnoch الفرص لازاحة حسني الزعيم الذي كان يحايي الأميركيين ويميل إليهم.

في ظل هذه الأجواء، استدعى حسني الزعيم الدكتور محسن البرازي، وطلب منه تشكيل الحكومة [١٩٤٩/٦/٢٦] فشكلها. وأصدر قراراً فور تسلمه مهامه الدستورية بتنحية الدكتور أسعد طلس [عديل اللواء سامي الحناوي] عن جميع مناصبه في الخارجية والدفاع الوطني وإعاده إلى سلك التعليم.

شعر أسعد طلس بالغبن يلحق به . فأوغر صدر عديله اللواء سامي الحناوي ضد حسني الزعيم ومحسن البرازي . ولقد كانت للدكتور طلس صلات قريبي بعائلة الالوسي في العراق الواسعة النفوذ والمؤيدة والحامية لحكم نوري «باشا» السعيد ، فاستعمل تلك الصلات للوصول الى «الباشا» وتقديمه الى «اللواء» . . فبدأ الاعداد للانقلاب العسكري الثاني الذي عرفته سورية .

سارع نوري السعيد الى التفاهم مع اللواء سامي الحناوي بايعاز من بريطانية ، وأخذ يغذي ويستغل العداوات والمناكفات الداخلية في سورية لتأجيج نار تحرق بها نظام حسني الزعيم وتقضي على النفوذ الاميركاني الذي كان قد بدأ يتوطد في دمشق .

الثالثة والربع من فجر الرابع عشر من آب (اغسطس) ١٩٤٩ سدد الضباط عصام مريود وحسين الحكيم وفضل الله ابو منصور (وجميعهم آلمهم اعدام انطون سعاده مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي) . نيران أسلحتهم على حسني الزعيم ومحسن البرازي . صار اللواء سامي الحناوي سيد الشام . بعد خمسة أشهر عثر على جثة حسني الزعيم مدفونة في تابوت خشبي تحت حجارة في منطقة أم الشرايط بالقرب من النهر الاعوج في السهل الذي يفصل سفوح جبل حرمون عن حوران . . .



ارتاحت ملامح عبد الحميد السراج لما تكاف المقدم محمد معروف رفع رأسه عن الاوراق المبعثرة على المكتب . فرمى على الضابط الواقف أمامه تأهباً نظرة متشائلة سالت على قسما وجهه .

كان محمد معروف ، بعد نجاح الانقلاب يربط في مبنى الشرطة العسكرية في يده مفاتيح الحكم والامان . ولقد جاءه السراج متوددا ، غاسلا ذنوبه كونه كان مرافقا لحسني الزعيم ، مبتغيا رضى الانقلابيين الجدد . فلقد تملك «السلطان الاحمر» شراسته في التزلف يريد عبره ان يصل الى المناصب ، يستبيح من اجلها كل المحرمات ويهتك كل الاسرار . خاف من دسيمة يوقعها به احدهم فيوغر صدور الانقلابيين ضده ، على انه كاتم اسرار الزعيم . فعرض على المقدم محمد معروف ان يفضي إليه بكل ما يعرفه عن حسني الزعيم وبكل ما إئتمنه عليه وما سمعه منه ، وكل ما كان كشفه اثناء تنصته على مكالمات الزعيم من اتصالات بشخصيات سياسية سورية وعربية ودولية .

كتم السراج غيظا كان تسلل الى عينيه فثقلت عباراته الهامسة ، لما وقف محمد معروف من خلف مكتبه ومشى الى الباب يفتحه ولما يكن قد أنهى بعد كلامه . لملم السراج بعينه حركة يد محمد معروف التي أشارت الى الباب :

- أخذنا علماً بما قلته .

لسعته نبرات محمد معروف الحادة . أوشك ان يقول كلمة أخيرة ، فاستبدلها بابتسامة بالكاد أفسح لها مجالا على شفثيه . تنبّه وهو يحاول الخروج انه نسي ان يرفع يده بالتحية فاستدار . كان محمد معروف قد ردّ الباب خلفه .

- ٢ -

أخذوا نذير فنصة بجريرة عديله . رموه في سجن المزة . بقي ستة اشهر بعدها على أصابعه : ليخرج مسلوب الحول . بعد سنة من اشتغاله مع يوسف سالم [وزير الخارجية اللبنانية آنذاك] في اعمال تجارية حرة . عاد الى الصحافة التي كان هجرها طوال فترة حكم حسني الزعيم . فأسس مع حسني البرازي جريدة «الناس» وترأس تحريرها وادارتها .

يوم مقتل عدنان المالكي ، كتب حسني البرازي ، في غفلة من نذير فنصة [الذي كان تغيب عن مكاتب الجريدة ليلتها] مقال «الناس» الافتتاحي ، فما استنكر فيه القتل بلغة كان عبد الحميد السراج يملئها على الصحافيين لتأجيج الغضب في صدور السوريين ، وما ساير النقمة التي انصبت على القوميين ، ليس بداعي مناصرتهم والميول الى عقيدتهم وفكرهم بقدر ما كان يرى ان شيئا مبيتا قد ظهر من الهجمة المتسارعة عليهم التي استبقت التحقيق العسكري وخالفت كل الاعراف . مدّ رجل ربعة في القامة بدينها ، الخطى امام نذير فنصة في عمر طويل اصطفت على جانبيه مكاتب ضباط «الشعبة الثانية» [الاستخبارات] ، وقف امام آخر مكتب . بالكاد دق على بابه حتى دخل ثم اوماً الى نذير فنصة فإذا به امام عبد الحميد السراج .

تحركت كلمة على شفثي نذير فنصة . استرجعها لما بادره عبد الحميد السراج :
- هل انت راض عن «الناس» يا استاذ نذير؟

إخفتى بريق كان قد مر على عيني السراج . تجمع الامتعاض في حاجبيه فقطبهما . طافت الظنون في رأس نذير فنصة . سقطت نظراته على يد السراج وهو يمسك جريدة «الناس» :

- كيف تكتب مثل هذا المقال؟

قرأ عنوانه بغضب . ثم رمى الجريدة على المكتب . هدأت ملامح نذير فنصة .
- لقد قرأته مثلك هذا الصباح .

تنبّه الى تغير في ملامح وجه السراج

- ليلة البارحة لم اكن في الجريدة ولا علم لي بما نشر فيها .

شعر عبد الحميد السراج بالامتنان لنذير فنصة . غابت عن وجهه علامات

الامتعاض . أخذ نفساً طويلاً وبدأ بهدوء يدعو نذير فنصة الى فض شراكته مع حسني البرازي ، وان يعاود نشر جريدة «الانباء» واخذ بمديح الكلام مغدقاً على فنصة الوعود الرجراجة إن هو اقدم على ما يطلبه منه .

تولاه الزهولما لم يبد نذير فنصة اعتراضاً . ظن ان قلم صاحب «الانباء» اصبح في جيب سترته الداخلية . يومئذ فيلبي ويأمر فيكتب .

وعادت «الانباء» الى الصدور . طلب السراج من صبري العسلي رئيس الحكومة ووزير الخارجية ، التوقيع على امتياز جديد للجريدة . وانتظر «السلطان الاحمر» ان تصطف «الانباء» الى جانب «الرأي العام» و«بردي» و«النصر» فتتقش صدور صفحاتها الاولى بالعناوين التي تحاييه وتتزلف ، تسلس القياد له ، حبرها من حبره وكلامها من فمه . . . إلا ان نذير فنصة كان يميني الهوى والنزعات ، حوّل «الانباء» للغمز من قناة الرباعي صلاح الدين البيطار وميشال عفلق واكرم الحوراني ونخالد بكداش الذي كان السراج يستجير به ليوطد حكمه وتسلطه .

وبدأت «الانباء» تضايق «السلطان الاحمر» فبدأ يعد العدة للتخلص منها ومن صاحبها .

وحدث ان استدعى الرئيس شكري القوتلي ، صاحب «الانباء» الى القصر . طلب منه بحضور اللواء توفيق نظام الدين ، القيام بمهمة «سرية» الى الولايات المتحدة الاميركية . فلقد توطدت علاقات نذير فنصة مع جون فوستر دالاس خلال عهد حسني الزعيم وتمددت الى ما بعده حتى اصبح له عند الاميركان كلمة مسموعة . الا ان نذير فنصة توجس من شر نخبوء فلم يخف امام شكري القوتلي خشيته من عبد الحميد السراج ، وجاؤل الاستفسار ، إن كان رئيس المكتب الثاني [الاستخبارات] على دراية بتفاصيل هذه المهمة . فرد الرئيس القوتلي بأن لا علم للاستخبارات بما يطلبه منه وانه هو سيتدبر امر السراج .

وغادر نذير فنصة دمشق الى واشنطن . استمرت غيبته عشرة أشهر ، قابل خلالها الرئيس دوايت ايزنهاور ووزير خارجيته فوستر دالاس عدة مرات . ولم يكن يدر في خلده يوم عاد الى دمشق أن السراج يبيت له شراً وانه سيكون موضع ملاحقة الاستخبارات . فلقد ساء «السلطان الاحمر» ان لا يطلع الرئيس شكري القوتلي على طبيعة مهمة نذير فنصة الى واشنطن ، وساء اكثر ان لا يقوم صاحب «الانباء» بنفسه بإبلاغه عن «المهمة السرية» وكتابة تقرير عما جرى بينه وبين القوتلي بحضور نظام الدين ، وهو الذين اغدق عليه «معروفا» يوم ساعده على اعادة اصدار «الانباء» . . .

بعد ثلاثة ايام من وصوله الى دمشق . بعث راشد القطيفي يطلبه . فاقتاده سامي جمعة الى مبنى الاركان العامة . حاول في البداية ان يستدرج نذير فنصة للكلام عن

مهمته الى واشنطن وسبب غيبته الطويلة . ولما لم ينل منه مراده . غير القطيني لهجته وبدأ يجبل الكلام بالتأنيب واللوم لانه غادر دمشق من دون ان «يستأذن» السراج وهو «المفضل» عليه ولولاه لما كانت صدرت «الأنباء» . . وتغرغرت حنجرة القطيني بالتهديد والوعيد .

ولم يكتف السراج بذلك . ارسل من وضع عبوة ناسفة امام بيت نذير فنصة في حي ابو رمانة لاختافته . وبعد يومين وضعت عناصر السراج قنبلة في مكتب فنصة في شارع البرازيل قبالة فندق امية الجديد . ثم اوعز الى سامي جمعة فكان كل نصف ساعة يتصل بمنزل نذير فنصة ويُسمع من يرفع سماعة الهاتف ما لا يحبون سماعه ! حمل نذير فنصة ظلامته وشكواه من عبد الحميد السراج الى الرئيس شكري القوتلي . كان في صالون القصر مجد الدين الجابري الى جانب عدد من الوزراء . صوت نذير فنصة كان يتغير تبعا لانفعاله . شكري القوتلي ظل مطرق السمع يهز برأسه وينقل نظره على وجوه الوزراء كأنه كان يريد ان يلملم ردود الفعل من العيون المستغربة حيناً والمندهشة احياناً ، فرآها تتجمع على وجه نذير فنصة تميل ما مالت يده اليمنى مرة واليسرى مرات ترسمان في الفراغ اشارات ودوائر ولا ترتاح من التعجب .

سكت نذير فنصة . اخذ نفساً طويلاً . مسح وجهه بمنديله . ساد صمت ثقيل بين الحاضرين . تحولت العيون الى الرئيس شكري القوتلي . انتظروا ان ينفعل . ان يضرب الارض برجله . إلا ان الرجل بقي مطرقاً سارحاً . فوجيء بالصمت . شعر بأن العيون تلكزه . تفرس بنذير فنصة هنيهات . دارت عيناه على الحضور . ثقلت عباراته على صدره :

- يا نذير . ماذا لو غبت عن البلد بضعة أيام ؟ .

ادرك الدهول نذير فنصة . تمدد الاستغراب على وجوه الحاضرين . لم يزد شكري القوتلي بكلمة واحدة . تلهى بربطة عنقه . انقذ مجد الدين الجابري موقف الرئيس . . . فغير الحديث .

لقد كان شكري القوتلي لا يقوى حيال تسلط عبد الحميد السراج . فلقد أفلت الأمر من يده بعدما استقوى «السلطان الاحمر» و«عصابة الضباط العشرة» عليه . وهسو ، السياسي المجرب . عرف ان انغماس العسكر بالسياسة هو نهاية الحياة الدستورية والسياسية .

في ذلك الوقت لم تكن الشام تحكم من القصر الجمهوري المدني انما من مبنى «الاركان العامة» حيث العسكرا !

- ٣ -

ما ظن ان زيارة الاسبوعين الى ايران ستستمر ربع قرن في رحاب صاحب عرش

الطاووس . فلقد التقى نذير فنصة في بيروت التي استجار بها من غضب «السلطان الاحمر» بالجنرال تيمور بختيار . يحمل إليه دعوة الشاهنشاه محمد رضا بهلوي لزيارة ايران .

وان كان نذير فنصة قد غاب عن دمشق فهو لم يغيب عن بال عبد الحميد السراج وما افلتت من مكائده . فبعث الى طهران من يحاول اغتياله .

احتدّ رنين الهاتف في منزل نذير فنصة . ما كاد يرفع السماعه حتى وصله صوت خشن يطرز عباراته ولكنها حلبيه رفّ لها قلبه . لم يبد في صوت المتكلم اي تلثم او ارتباك وهو يقول له انه يحمل إليه سلاما وكلاما من شقيقته نهاد وزوجها عدنان ميسر واشواقا في رسالة من والدته .

تركه نذير فنصة يكمل . تولاه شوق مقيم . طافت في رأسه صور شقيقته . وبانت أمامه ملامح وجه امه . سأل الحلبي اين ينزل في طهران . فذكر له اسم فندق في أحد أحياء العاصمة الايرانية الشعبية الوضيعة . لم يرتب نذير فنصة به اول الامر . ظنه عاملاً مهاجراً غير ميسور يبحث عن رزق له في طهران لذلك انتقى السكنى في حي شعبي فقير . ولعله كان يريد التأكد في صحة ظنه فرمى السؤال عليه :
- ما جاء بك الى طهران؟

لم يدعه الحلبي يكمل السؤال . فبدأ أبله من الحبارى لما قال انه تاجر مجوهرات يشتري ويبيع . أحس نذير فنصة بانقباض يدب فيه . مشى الظنون متضاربة عجلت في رأسه . كيف يكون تاجر مجوهرات يشتري ويبيع وينزل في فندق حقير في حي شعبي فقير؟

تحايل على نفسه . تمالك نبراته فما تغيرت . تواعد معه ان يلتقيه في الفندق في الساعة الثالثة بعد الظهر . ما عرف كيف تخلص من صوت الحلبي الخشن . وضع سماعة الهاتف بارتباك ظاهر . إنتابته رعدة ذعر : من يكون ذلك الرجل؟ فكر في كل شيء ، إلا ان يكون الحلبي من اعوان عبد الحميد السراج .

تسابقت الافكار في رأسه . استقر على واحدة . ادار قرص الهاتف يرسم رقم مدير الأمن العام الجنرال بكرفان . جمع له قصة المكالمات الهاتفية بكلام مرتبك فطلب الجنرال الايراني منه ان يذهب الى الموعد المضروب من دون وجل وحذر واوصاه بعدم الصعود الى غرفة الرجل انها محاولة استدراجه من الفندق الى الشارع .

كان عامل الاستعلامات يتسلى بقصص شاربیه بمقصص صغير امام مرآة صغيرة مسمرة على الحائط . وبين الفينة والفينة يطلق شتيمة ويمرر ابهامه على ما تبقى من الشعيرات التي اجهد النفس في قتلها .

نفر في وجه نذير فنصة لما سأله عن اسم الحلبي ورقم غرفته :

.. رقم ٥ آغا .

وعاد الى المقص والشتم والتمتمة . ربت نذير فنصة على كتفه وقبل ان يستدير كانت ورقة نقدية تنام في كف عامل الاستعلامات . فانفجرت أساريه . تشجع فنصة بعدها وطلب اليه الصعود الى الغرفة رقم ٥ واستدعاء الرجل . . .
لوى عنقه بخفة فخرجت من التواء فقراتها فرقة ، وأسرع الى السلم و . . . غاب .

انتصب امامه . طويل القامة ممتلىء الجسم عارم الصدر والبطن . له شاربان صغيران يزينان وجهاً اسمر حاد القسبات قبيحها . تدور فيه عينان عسلتان كبيرتان تحت حاجبين رفيعين . ما ان عرف نذير فنصة عن نفسه حتى لفه الرجل بذراعيه وانهاى على وجنتيه تقبيلًا ، ثم قال انه يحمل له رسائل من شقيقته وأمه . ودعاه الى غرفته ليسلمها له . فانتحل نذير فنصة الإعداء فلا عجلة في الامر . . . ثم طلب منه ان يخرج من الفندق القذر الى الهواء الطلق في الشارع .

انطلقت الحيلة على الحلبي . خرج مع نذير فنصة . تعمد الحديث عن تاريخ عائلة فنصة في حلب كأنه كان يريد ان يوهمه بأنه فعلا يعرف شقيقته نهاد وزوجها وأمه .

في تلك الاثناء تسلل رجال الامن الايرانيين الى الغرفة رقم ٥ . عثروا فيها على قنينتي «فودكا» فارغتين ، ومسدساً كائماً للصوت وبين اغراضه على سكين لحام طويلة .

انتظروا عودته . ألقوا القبض عليه فاعترف بأنه من الشرطة العسكرية وان عبد الحميد السراج قد ارسله لقتل نذير فنصة .

لم يمض وقت . لعله سنة ونصف ، لما طرق باب مكتب نذير فنصة في مجلة «الانحاء» التي كان يصدرها في طهران باللغة العربية ، شاب في مقتبل العمر ، أت من اللاذقية ، حمل اليه توصيات من أصدقاء له في دمشق وحلب يوصونه فيها الاهتمام بالشباب ومساعدته على التسجيل في جامعة طهران لدراسة الادب الفارسي . لم يعرض نذير فنصة عنه . ساعد الشاب واغلق عليه وأجزل ، ووظفه محرراً مساعداً في «الانحاء» .

لم يرتب نذير فنصة بأمر الشاب . فلقد كان فطنا مواظبا ودؤوبا . قليل الكلام سريع التلبية . الا ان أحد عمال التنظيف في المجلة أخذ يرتاب من تصرفاته الذي أصبح يأتي الى المجلة باكراً ، يدخل مكتب نذير فنصة يفتش في الادراج والملفات . ينسخ بعضها . فما كان من عامل التنظيف الا ان أسر لنذير فنصة ارتيابه بالشباب . فاستدعى الشاب وأخبره ان صاحب المؤسسة خفض ميزانية المجلة لذلك عليه ان يبحث عن عمل في مكان آخر . . . ثم أعلم رجال الامن بما كان من أمر الشاب لما تنبه الى فقدان بعض الملفات من رفوف مكتبه ، فراقبوه في الجامعة ودهموا غرفته

فعثروا بين اغراضه على مسدس وبين اوراق المحاضرات على تقارير عن تحركات نذير فنصة واجتماعاته ولقاءاته وعن عدد من السياسيين العرب الذين يزورون طهران اضافة الى تقارير مطولة عن بعض السياسيين الايرانيين ونشاطات التجمعات المعارضة واتصالاته بها. . . . فألقي القبض عليه . حوكم وحكم عليه بالموت شنقا.

عندما لاكت الصحف اسم الشاب وانكشف دور عبدالحميد السراج والاستخبارات السورية أوعز «السلطان الاحمر» بالقاء القبض على تاجرين ايرانيين كانا يملكان في دمشق مخزن «نايبي» لبيع أقمشة السيدات في شارع الشهداء بحي الصالحية «بتهمة التجسس» فاودعها السراج سجن «المزة» العسكري . وبعد محاكمة صورية، كعادة المحاكم على عهده، حكم عليهما بالاعدام . . . لتجري بعد ذلك مفاوضات بين دمشق وطهران تم بتتبعها اطلاق سراح الشاب اللاذقاني وترحيله مقابل التاجرين الايرانيين . . .

- ٤ -

لم ينتم السراج الى تنظيم سياسي او حزبي . كان وحيدا، يستند الى «عصابة الضباط العشرة» ، يستقوي بسياسة القمع والغدر على خصومه السياسيين . عبر آلة قمعه وارهابه مزق الاحزاب وشنت التكتلات النيابية . فاذا «بحزب الشعب» يصبح نتفا من أحزاب . و«الحزب الوطني» شيعا متعددة . عبدالوهاب حومد، المحامي والنائب والوزير، كان عضوا في «حزب الشعب» ، احتواه عبدالحميد السراج فانقلب على الحزب وأصبح من دعاة نظام «السلطان الاحمر» ومن أشد المروجين له وللإشتراكية التي ما كانت الا للميات لافكار غير علمية .

فاخر الكيالي كان من الغلاة في «الحزب الوطني» . استماله السراج فكفر بقناعاته وكفر «الحزب الوطني» ، وانضم الى احدى حكومات «السلطان الاحمر» . . . صار يقف في الناس واعظا في محاسن حكم الاستخبارات الذي روع الشام وأدماها . بعد مصرع عدنان المالكى . تعقب عبدالحميد السراج المحامي والنائب عن الحزب السوري القومي الاجتماعي حنا كسواني . ارسل مفارز الاعتقال يطلبه على الرغم من حصانته النيابية .

زئر قرية «داريا» [جنوب غرب دمشق] بالعساكر فحاصرتها . سدت منافذها . قطعت كل الدروب اليها . كانت قرى سورية تستسلم لخور السلطان الواحدة بعد الاخرى تسقط في التجربة . . . الا «داريا» .

كانت العساكر تزرع الرعب في أحيائها . تندد وتنكل . فظلت «داريا» واقفة

بيوتها الشتيتة المعممة بعرائش العنب... ترفض المبايعة والاوامر التي تهدد بأن الحصار لا يفك الا متى استسلم النائب حنا كسواني الذي لم يكن قد مضى على فوزه في الانتخابات اكثر من ثلاثة اسابيع ، وما كان حضر اكثر من ثلاث جلسات برلمانية الى جوار رفيقه القومي الاجتماعي الآخر بديع اسماعيل ، نائب مدينة طرطوس الساحلية.

حنا كسواني . لم يكن في داريا . ففي فجر الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ بعد يومين على مقتل عدنان المالكي ، اجتاز منطقة دير العشائر الواصلة بين الشام ولبنان... فلقد تأكد له ولقيادته الحزبية في لبنان ، ان عملية الاغتيال المؤسفة في الملعب البلدي ، لم تكن تهدف الى تصفية ضابط تلمع على صدره اوسمة الجيش السوري فحسب ، انما استهدفت هز الاستقرار السياسي في الشام واكمال مسلسل الانقلابات العسكرية الذي باشره مايلز كوبلاند ضابط الاستخبارات المركزية الاميركانية C.I.A مسندا ظهره بمن تراطوا معه وعاونوه في العالم العربي والدولة العبرية.

... وجاء من يقول لعبد الحميد السراج ، ان اعتقال حنا كسواني وبديع اسماعيل لا يتم بالتعقب وبالحصار. وان استسلما فلا يحق له سجنهما واحالتهما على المحاكمة لأنها يتمتعان بحصانة نيابية مصانة دستوريا . والاجدى هو دعوة المجلس النيابي الى رفع الحصانة عنهما.

يومها . [كما روت لي زوجته في أواخر ١٩٥٨] لم ينم عبد الحميد السراج . جلس الى اعوانه يخططون لاحتواء اكثرية نيابية تقترح الى جانب النواب الاشتراكيين وخالد بكداش النائب الشيوعي الوحيد ، لرفع الحصانة عن النائبين القوميين الاجتماعيين . فاذا بهم يكتشفون بعد استعراض أسماء النواب وميولهم واتجاهاتهم السياسية ان ثلثي الاعضاء لم يكونوا الى جانبهم وان المعركة اذا ما نودي بها للتصويت ستكون خاسرة...

ترك السراج طاولة الاجتماعات . انسل الى زاوية قصية في الغرفة الكبيرة . غرس رأس قلمه في ورقة بيضاء وكتب بعض الاسماء . سطر تحتها واعطى الورقة لطلعت صدقي وعاد الى قاعة الاجتماعات . دار بعينه على وجوه المجتمعين . ملم أوراقا مبعثرة دفنها في حوض ملف . لم ينطق بكلمة . وزّع ابتسامة باهتة على الحاضرين . حمل الملف وخرج .

ما كاد جلد الليل ينسلخ عن النهار ، حتى كانت عناصر مفرزة سامي جمعة [زوار الليل... ١] قد جابت بيوت النواب الذين كتب السراج أسماءهم على الورقة الصغيرة البيضاء . في جلسة رفع الحصانة فوجيء السوريون ان أكثر من نصف أعضاء البرلمان اقترحوا الى جانب قرار تبناه النواب الاشتراكيون لرفع الحصانة عن

حنا كسواني وبديع اسماعيل . وحده الدكتور منير العجلاني ، انتصب واقفا . ترك صوته يهدير تحت قبة المجلس :

«وصلنا الى يوم لم يعد للنائب من حصانة او حرمة . وصلنا الى يوم صرنا نستدعى من بيوتنا واسرقتنا لتملى علينا شروط وتفرض مطالب»
واشتعلت حنجرتة بالصراخ ليحفظ التاريخ قولته :

« . . . سجلوا . سجلوا قولي هذا . سجلوا انكم وقت نزعتم الحصانة عن زميلين لكم ما فرحا بعد بمقعد النيابة وما ألف منبر المجلس صوتهما . سجلوا ان الاشباح تعاملت مع قضيتهما . وغدا ستتعامل مع قضيتنا نحن . اليوم كان دورهما وغدا دوركم . وتذكروا . تذكروا انكم اليوم يا سادة شددتم وباركتكم اليد التي طعنت الحياة البرلمانية في الصميم» .

وكان الدكتور منير العجلاني ، الذي ما يزال يعيش في غربته متنقلا بين السعودية والعواصم الاوروبية ، كان يستشرف بكلامه مصير الحياة النيابية في سورية الى عقود آتية .

قد تخون الذاكرة الاسماء ، الا ان ابقاها اسماء خالد العظم . صبحي الشوربجي . فاخر الكيالي . عبدالوهاب حومد . رزق الله انطاكي . الشيخ دهام المهادي [شيخ قبيلة شمر الخرسا] الشيخ دحام الدندل . . . هؤلاء وغيرهم من من تغيبهم الذاكرة وقعوا تحت تأثير السراج فاستهلمهم . اغراهم بالمناصب وكانوا من عبدتها ، فتلاعب بهم واستقوى بهم عليهم وعلى غيرهم وليحكم من خلالها فاسهموا معه في تقويض دعائم الحياة السياسية والبرلمانية في الشام التي لم تقم لها قائمة حتى . . . بعده .

- ٥ -

ان بسالت عن «ابي شجاع» دلوك على صبري العسلي . فتلك كنية الرجل لبلائه ضد عسكر فرنسة ولإقدامه في قتال جبل حوران ومعركة الغوطة التي قادها حسن الخراط .

على ان صبري العسلي ورث الاقدام في المعامع والوطنية في المواقف عن أبيه الشهيد شكري العسلي الذي كان في عديد قوافل الشهداء الذين علقوا في ساحة المرجة في دمشق وساحة البرج في بيروت على زمن الضابط الطوراني جمال باشا .
وقد أضاف صبري العسلي العلم الى تلك الخصال الحميدة فكان رجل قانون وقضاء ، وفي السياسة لمع اسمه في «الحزب الوطني» وأصبح أميناً عاماً له .

فما كنت تنتظر منه وفيه كل محمّدة : الاقدام والوطنية والعلم ، ان ينضم الى ركوب السائرين خلف رجل دونه اقداما ووطنية وعلم . ان يصبح واحدا من

الساكتين على امتهان الدستور والقانون والحريات والكرامات . !
فمن غامض علم الله تحول صبري العسلي الى منفذ لما رب «السلطان الاحمر» عن
خوف لا عن قناعة، يمسك معول الهدم في البنى الدستورية والقانونية والحقوقية
للبلاد. فيقف في الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ في المجلس النيابي
يعلن حل الحزب السوري القومي الاجتماعي واغلاق مكاتبه ومطاردة محازبيه
ومناصريه. ويغض الطرف خلال فترة رئاسته الحكومة، عن الانتهاكات والفظائع
والمعاصي والمنكرات وكل القمع والارهاب والتنكيل. ويسد اذنيه عن نحيب الشكالي
وصراخ الامهات واليتامى فلا يستقبل احتجاجا . !

اذكر ، انني مرة زرته برفقة المحامي نزار المحاييري ونسيبي تاج الدين خياط في
منزله في حي المهاجرين في بداية عام ١٩٦٢ نطلب منه المساعدة لاطلاق سراح
الاسارى القوميين الاجتماعيين الذين دفنهم السراج احياء في معتقلات التعذيب
والتنكيل قبل اعوام سبعة، معللين الامر بالنظام الديمقراطي الذي قام بعدما تحكم
بالبلاد عسكرها، فتظللوا بمظلة جمال عبدالناصر ليحكموا ويتحكموا بالجور
والعسف. فاذا به يفاجئنا برد من لا يبالي، فرك الهواء بيديه كأنه يغسلهما مثل
بلاطس البنطي :

«اطلبوا مني أي شيء آخر. . . عدا تعاملي مع العسكر. صحيح ان قضية عدنان
المالكي ارتبطت باسم السراج وذهبت معه ، لكن الصحيح اكثر ان العسكر
عسكر. سواء كانوا عسكر السراج او غيره. . . ان قضية انغماسهم بالسياسة والقرار
لا يحلها الا الله . . . فأمرنا وأمركم اليه وحده» !

بعدها . . . زرنا رئيس الجمهورية ناظم القدسي في قصر المهاجرين. دخلنا عليه
مع الوزير رياض الميداني. تلونا عليه الآية. كبرنا في نظامه وحمدنا على الديمقراطية
بعد حكم العسكر واثينا على ظلال الشام من مصر. أملنا ان نكون فعلا قد عدنا
الى الديمقراطية.

سوى ناظم القدسي من وضع نظارته الطيبة على انفه الدقيق، تمهل بالكلام.
تأنق في لفظ مخارجه. رفع يده اليمنى يرسم اشكالا في الفراغ وهو يتكلم :
«يا اخوان . . . تطلبون منا اصدار عفو عام عن المعتقلين وبعضهم ما يزال في
السجون منذ سبعة اعوام . . . ليتنا نستطيع . انها قضية عسكر وأنا لا أتعاطى بها» .
عسكر وديمقراطية ورئيس جمهورية .

العسكر يكرهون الديمقراطية ويتربصون برئيس الجمهورية . ورئيس الجمهورية
يفضل الديمقراطية ويخاف من العسكر.
تلك قصة الشام منذ عام ١٩٤٩ .

صحيح ، وقت التقينا العسلي والقدسي ان عصر السراج كان قد مضى لكن تبين

لي ان زرع السراج بقي ينبت من بعده على مدى عقود طويلة . فللسراج في حصيد
الشام مرعى .



عبد الحميد السراج وحاضماً بين نور الدين كحالة [رئيس المجلس التنفيذي في إحدى حكومات الوحدة السورية - المصرية] والشيخ الراحل
 أبو اليسر عابدين مفتي الجمهورية السورية والأمير، اخن الثاني عاهل المغرب
 عندما زار دمشق لما كان ولياً للمهد عام ١٩٥٩

الفصل العاشر

صوت سيده و... سيفه!



- ١ -

الاسكندرية ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦ .

كان صوته يتمدد عبر مكبرات الصوت ، يلفّ آلاف الوجوه التي جاءت تمحضه تأييدها . توهج ذلك الرجل الاسمر . اشتعلت حنجرته . انتشى بمرأى الايادي الملوحة وبالهتافات التي كان يطرب لها فتثيرة . فليس مثله من يعرف كيف يلمس أحاسيس «الجماهير» . يلهبها . ينشئها . كلماته تلعب بالرؤوس وعنده خبرة التلاعب في انفعالات الناس .

- أنا اليوم اتجه الى اخوان لنا في سورية . . . سورية العزيزة . . . سورية الشقيقة !

ترك صوته يأخذ مداه . التهبّت الهتافات . اصبحت الايادي المرفوعة تتمايل مثل الموج في مدّ وجذر . دار رأسه حول المكان الفسيح بسرعة ثم . . . عاد صوته يسكت الحناجر المبحوحة :

«لقد قرروا ان يتحدوا معكم اتحادا سليما عزيزا كريما لندعم سويا مبادئ الكرامة ولنرسي سويا القومية العربية والوحدة العربية . نرحب بكم أيها الاخوة . . . وسنسير معا أيها الاخوة متحدين بلدا واحدا . . . قلبا واحدا ورجلا واحدا . . . لنرسي مبادئ الكرامة الحقيقية . . . استقلالا حقيقيا واستقلالا اقتصاديا حقيقيا» (. . .) .

لقد كان جمال عبدالناصر يعرف ان كل شيء قد تم . وان سورية سقطت في قبضة نفوذه ، بعد فشل العراق في ايقاف المد المصري في سورية ، لما رفض رشدي الكيخيا [زعيم «حزب الشعب» الموالي لبغداد] ترشيح نفسه في الانتخابات الرئاسية التي جرت في الثامن من آب (اغسطس) ١٩٥٥ ، فخاضها خالد العظم وفاز بها شكري القوتلي في اقتراع ثانٍ بعدما فشل في الحصول على أغلبية الثلثين في الاقتراع الاول .

استقال صبري العسلي . طلب شكري القوتلي من المحامي سعيد الغزي

تشكيل حكومة، رفضت في بيانها الوزاري الاول الانضمام الى الحلف التركي - العراقي، ووقعت حلفا دفاعيا مع مصر أنشئت بموجبه لجنة عليا وهيئة للشؤون الدفاع، وقيادة عسكرية مشتركة على رأسها المشير عبدالحكيم عامر.

واكملت مصر إحكام نفوذها في الشام، في الاشهر القليلة التي سبقت غزوة السويس. فحرضت الاجهزة الموالية لها في دمشق على تدريب الطلاب الجامعيين على حمل السلاح وقيام وحدات المقاومة الشعبية، وفي العرض العسكري التقليدي في الذكرى العاشرة للجلاء يوم السابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٥٦ ظهرت وحدات مصرية الى جانب وحدات الجيش السوري.

محمود رياض، تحول من سفير الى والٍ بيده الامر والنهي، الامان والطاعة. اذا أفسح الزمان لهدف يتوق اليه خاطره لاحكام سيطرة القاهرة على دمشق، ما تمالك عن ابدائه وهو الموقن ان رئيس البلاد شكري القوتلي لن يشج به عليه. فقد وثق علاقته به وشدد تحكمه بالزمرة العسكرية «الوطنية» و«التقدمية» التي كانت تتحكم بدورها بقصر المهاجرين وبالرئيس والعباد والبلاد. و«السفير» عبر أجهزة سفارته كان النبض في قلب الحياة السياسية السورية، والمحرك الاساسي في تبدل الحكومات وفي كم أفواه المعارضين للتمدد الناصري في الشام. وعبر ملحقه الصحافي عدلي حشاد، اشترى الاقلام وباع. من بيته [حيث كانت السفارة ايضا] المطل على نهر «تورا» في منطقة «ابورمانة»، كان يحكم الشام ويخطط مع أركانه وعملائه والجواسيس للتأمر على لبنان والعراق والاردن، فأصبح شجعة المنتفعين وعبد المناصب، فكان محمود رياض يلتفت الى من حوله فلا يرى الا من يلوون أزياء الرقاب ويستزلون، فتهادى وأمعن في التحكم تحت ستار الدبلوماسية وقضية «الشعب الواحد» و«المصير المشترك»!

قرب محمود رياض البعثيين منه وأجزل لهم، فهم كانوا يغالون في تأييد مصر ويروجون للوحدة معها. وضرب عن طريق عبدالحميد السراج وأعوانه كل ما عداهم وعاداهم من تنظيمات وأحزاب. واستغل رشاوى الرياض التي استهدفت تدمير مركز العراق في سورية وتدعيم مركز مصر والسعودية، كما استغل القرض السعودي الذي حصلت عليه دمشق في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ ومقداره عشرة ملايين دولار، للانفاق على شراء ضباط السياسيين في دمشق وبيروت وعمان وتجنيد العملاء والجواسيس في تلك العواصم، فوضعهم بتصرف عبدالحميد السراج حتى اذا دنت الساعة وأوما «السلطان الاحمر» تحرك بعض العسكر في عمان والعراق وفار الدم في صيف لبنان عام ١٩٥٨.

★ ★ ★

ودق نكير الحرب. الغزو الثلاثي الفرنسي - البريطاني - الاسرائيلي طوق السويس

بالنار، فكادت تنكس بيارقها وتسقط.

في التاسع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ تقدم الجيش الاسرائيلي الى سيناء. يومها كانت الشام تغلي وتفور. ضجعت العساكر. شنت حرايبها وانتظرت أوامر القيادة.

كان يسوي من وضع نظارته الطبية بعصبية على انفه. يزيحها بين الحين والآخر عن وجهه الاسمر. استولى عليه التعب. زحف الى عينييه. ترك تحتها خطا أسود. كان محمود رياض يطرق السمع الى مجموعة من الضباط السوريين الذين أموا السفارة المصرية يلحون عليه الطلب للقتال الى جانب مصر في سيناء وعلى ضفاف السويس، وعلى شن هجوم معاكس على جبهة طبرية وسهل بيسان... فحاول بدبلوماسية ان يهدىء من حماسة هؤلاء الضباط الذين كانت تضج فيهم روح وثابة وهاجة بالعنفوان القومي. وقد ساءهم، وبين مصر وسورية اتفاقية دفاع، ان لا يسمح لهم في المشاركة بدحر العساكر العبرانية الغازية.

امتلاً المكتب بصوت محمود رياض وبما أوتي من فصاحة راح ينثر الكلام بنبراته الهادئة على آذانهم مغدقا عليهم الوعود بأن ينقل طلبهم الى القائد العام المشير عبدالحكيم عامر ليفتي به ويقرر.

في اليوم التالي، نقل محمود رياض الى الضباط رفض المشير عبدالحكيم عامر طلبهم القتال على الجبهات، فتلقى الضباط صدمة، بدأ معها بعضهم يشكك في نوايا مصر ومن جدوى اتفاقية الدفاع المشترك، وبعضهم الآخر يطرح علامات الاستفهام حول المشير عبدالحكيم عامر نفسه.

ولقد لعب عبدالحميد السراج دورا كبيرا في ثني المشير عامر عن تلبية رغبة الضباط في القتال من خوف ان يرتد هؤلاء في حال الانكسار عليه... ولقد كنت ارقب عن كثب الاجتماعات المطولة التي كان يعقدها عبدالحميد السراج، تارة في منزله وطورا في منزل محمود رياض وحيناً في مبنى الاركان العامة وآخر في منزل أحد الضباط، ليجنب الجيش السوري دخول الحرب الى جانب الاردن [حسب ما نص عليه الحلف العسكري الذي قام بين الاردن وسورية ومصر في الثالث والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦] على الجبهة الممتدة من سفوح جبل حرمون الى شواطئ البحر الميت، فما كان يخافه «السلطان الاحمر» هو ان ينهزم الجيش السوري أمام الزحف العبراني فتخسر الشام بعض اراضيها وترتد عندها العساكر المنكسرة من الحدود الى قلب العاصمة، ويحتاج القوم خلفها ويعلو هدير الغضب على الرغم من القمع والارهاب والتسلط، فتدك الدعائم التي بناها عبدالحميد السراج لحكمه بالجور والتسلط وجبل طينها بدم الابرياء، على رأسه ورؤوس اعوانه فينتهي كما انتهى غيره من قبل...

وحاول عبدالحميد السراج اثناء لقائه بالمشير عبدالحكيم عامر في منزل محمود رياض ، ان يشرح للقائد العسكري المصري مغبة اي هزيمة يمني بها الجيش السوري ، ليس فقط على الحكم في الشام انما على اية وحدة او اتحاد يمكن ان تقوم به دمشق والقاهرة ، بينما اذا تم تجنب انغماس عسكر الشام في القتال فانه يمكن عندها السيطرة على الموقف السياسي المهزوز في البلاد عبر ضرب التنظيمات السياسية التي وجدت في الحرب سانحة للمعارضة ، والقضاء بسهولة على ظاهرة التملل في صفوف الضباط الذين خذلوا وباتوا يفكرون بالانتفاض .

وافق المشير عبدالحكيم عامر . اثنى السفير محمود رياض . خرج عبدالحميد السراج من عنق الزجاجاة وبقي العسكر في الثكن .

وقد تستر عبدالحميد السراج على فعلته هذه بأن ترك الناس يظنون ان نسف خط انابيب النفط العراقي التي تتمدد في الاراضي السورية في اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ كان بناء على أوامره ، في حين ان الذين قاموا بنسف خط الانابيب هم بعض الضباط الذين شعروا بخيبة من موقف المصريين واعتبروا ان استعمال سلاح النفط هو الاجدى للضغط على الولايات المتحدة الاميركية ودول الغرب الاوربي ، على رأس هؤلاء الضباط كان احسان اديب الشيشكلي ، الذي دخل الكلية العسكرية ايام كان والده يقبض على أعنة الحكم في دمشق ويتحكم بالمنصب وبالفعل والقرار فلما تنحى والده وغادر الشام ، بقي هو في صفوف الجيش يتدرج في الرتب . . .

وقت قام احسان اديب الشيشكلي ومن معه بتفجير أنابيب النفط العراقي كان عبدالحميد السراج يحبك الدسائس لاستغلال الحماسة والاندفاع العسكري والمدني لنصرة مصر في تشديد قبضته على المعارضة السورية التي كانت تجمعت في العراق ولبنان والاردن محاولة بشتى الطرق وكل الاساليب دك دعائم حكمه وانهاء تسلطه وجوره وشهوته للحكم والسلطان . !

- ٢ -

انتشى بالنصر . ولولا ان دوايت ايزنهاور فرض على انطوني ايدن الانسحاب من قناة السويس ، ولولا صوت نيكولاي بولغانين الذي هدر من الكرملين ، لما كان صاحب مصر قد تجرع كأس النصر وصار سيد العرب ، في يده مفاتيح عواصمهم ، وحده الناطق باسمهم ليتجدد حلم الوحدة .

في الشام اشتد عزم الذين بايعوا مصر وشايعوها . اختفوا وراء «السلطان الاحمر» لما عاد يجرد على المعادين لهم حملات الدس والختل والوقية .

خلال المحاكمات العرفية التي جرت عقب الكشف عما سمي بـ «المؤامرة العراقية اعار السراج صوته للنائب العام محمد الجراح تحرك بين ١٩٨٨ و ١٩٨٩ لفترة في

صفوف المعارضة السورية في باريس وبغداد] الذي وقف امام قوس المحكمة العسكرية يندد «بالمتمردين» ويتهمهم بالخيانة العظمى ! قال، بينما كان السوريون الوطنيون يحاولون بشتى الطرق اقناع القيادة المصرية والرئيس جمال عبدالناصر بقبول اشراكهم في القتال وشن هجوم على الاعداء على جبهة الجولان وقبولهم متطوعين في جبهة سيناء... كان «المتمردون» في لبنان يخططون مع البريطانيين والفرنسيين والاسرائيليين [هكذا بكل بساطة] للوثوب على دمشق والاطاحة بنظامها الوطني...!

صحيح ان السوريين القوميين الاجتماعيين في لبنان، قبل تأميم السويس في السادس والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٦ كانوا يعدون العدة مع من حالفهم من الهاريين من جور «السلطان الاحمر» للانقضاض على الحكم في الشام ولوي عنق السراج، وهدفهم في ذلك ليس اطلاق اسراهم من معتقلات التنكيل والتعذيب، ولا القيام بانقلاب عسكري يستبدل عسكرياً بآخر والذي اعتاده السوريون منذ عام ١٩٤٩، انما استشارة غضبة الناس ضد العسكر فتقوم ثورة شعبية تحرك وازع المسؤولية عندهم بعد استكانة مميتة حكمت العسكر بهم. وكانوا على ذلك يعرفون ان الذين دفعوا بالسراج الى الواجهة واختفوا خلفه من أجهزة في واشنطن وتل ابيب والقاهرة في آن معا، كانوا يتعاملون معه كأداة تنفيذ ليس الا، لمخطط كبير، بدأ بحسني الزعيم واستمر مع سامي الحناوي وتمهل عند اديب الشيشكلي، فلما اراد الانغماس به، استوعبه عدنان المالكي وغسان جديد كل من موقعه الوطني.

ولقد تجمعت مصالح واشنطن وتل ابيب والقاهرة عند الرأي ان لا أمان لها ولا نفاذ لمخططاتها الا بازاحة عدنان المالكي وغسان جديد من موقعهما، فلجأت أجهزة تلك العواصم الى خطة طالما جربتتها واشنطن في غير دولة من اميركة اللاتينية وجنوب شرقي آسية ودول العالم الثالث.

ولقد قضت الخطة بأن يحتوى قائد عالي القدر والوطنية والنفوذ مثل جورج عبدالمسيح، فتمت مساومته على سلامته الشخصية، ودغدغ طموحه في السلطة والسلطان ليشارك في عملية التخلص من قائد مثل عدنان المالكي، كي تتوجه التهم الى غسان جديد، فاذا انقضوا عليه عبر ادواتهم المحلية - كما فعلوا فيما بعد - تكون الترتيبات قد انتهت، فما عاد لعدنان المالكي ان يمنع الانقلابات العسكرية ولا قدر لغسان جديد ان يبقى الضابط القدوة لآترابه في الجيش، ولرفقائه ومحازبيه، العاملين على تشكيل جبهة متماسكة تأخذ تعاليمها وأوامرها مما يرون انها الخطة النظامية الوحيدة في مواجهة خطة تيودور هرتزل وحاييم وايزمان ودايفيد بن غوريون وغولدا مائير... قضية الدولة العبرية الاوائل وبناة مجد صهيون.

وتمت المؤامرة . قتل عدنان المالكي . اتهم غسان جديد بالقتل . هرب الى لبنان ، ليعود فيقتل فيه . " تصرف جورج عبدالمسيح بمعزل عن الحزب . في أدبيات ومذكرات بعض القادة القوميين الاجتماعيين ، عبدالله سعادة ، أسد الاشقر ، سعيد تقي الدين ، ان عبدالمسيح . رتب عملية القتل مع اسكندر شاوي (الراحل) فلم يطلعا الحزب بقيادته التشريعية والتنفيذية ، الامر الذي لحظته المحكمة العسكرية عند محاكمتها القيادة القومية الاجتماعية . فبرأت الحزب في مؤسساته من قضية المالكي . وجرمت جورج عبدالمسيح واسكندر شاوي بالقتل . اما الذين حوكموا فلأنهم أعضاء قياديين في الحزب من ضمن خطة الانقضااض على الحزب السوري القومي الاجتماعي . لينتزعوه من قلب الحياة السياسية السورية وقد كان له فيه المكان والمكانة ، كذلك لم يصدر عبدالحميد السراح حتى مذكرة توقيف بحقهما .



في الثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٩٥٥ ، قبل شهر من اغتياله ، كان عدنان المالكي في مكتبه في وزارة الدفاع ، يستعرض ملفا تضمن تنقلات عدد كبير من ضباط الجيش كانوا يوالون اديب الشيشكلي ، وبعضهم كان مقربا منه .

كانت الاوراق ممهورة بخاتم رئيس الاركان العامة اللواء شوكت شقير ، الذي ارفق لائحة التنقلات بأمر عسكري ان تتم بسرعة ومن دون اية ضجة إعلامية ، مقابل تعويضات مالية سخية .

نشر الاوراق على مكتبه . تنقل نظره عليها باشمئزاز . تناول واحدة بعصبية . علكها بين أصابعه . تناول أخرى ، ضغط عليها . بدأ يقرأ الاسماء أمام نقيب [متعه الله بالعافية فاني ابقى اسمه للزمان] يلحق الاسم بهزة رأسه . صوته كان يعلو . شرايين رقبته تكاد تمزق الجلد من انتفاخها :

« هذا غير معقول . . . غير معقول . . . لن أقبل به » .

ابصر في عيني النقيب حيرة . طافت برأسه لحظة غضب . هوى بقبضته على المكتب . بعثر الاوراق . بحنق :

- لو وقعت على تنفيذ هذه اللوائح لما بقي في الجيش لا قائد ولا ضابط صغير . هذا التجني لن أقبل به . . . لهذا الدرك وصلنا ؟ .

اطعم النقيب سيكارتة صحن الدخان . خرج دخان رمادي من فمه ومعه سؤال :

- من اعطاك هذه اللوائح لتعرضها عليّ .

استسلم عدنان المالكي للسؤال . ترك النقيب يعصر لفافة ثانية بين شفثيه . يمتصها بعصبية . وهو يجمع شتات الورق من أطراف مكتبه . أجاب بكلمات بدأ الهدوء يتسرب الى مخارجها :

- هذه اللوائح اقترحها اللواء شقير ووقع عليها وزير الدفاع وارسلها اليّ للتنفيذ.
رافق النقيب بعينه حركات عدنان المالكي وهو يدفن الأوراق في حضان الملف،
يغلقه بحنق. ثم يحشره تحت ابطه و... يخرج.

لم يعرف كيف هبط درجات السلم الى الدور الثالث. مدّ خطوات مسرعة في
الممر الطويل باتجاه مكتب وزير الدفاع معروف الدواليبي. تسارعت الافكار في
مخيلته. احسّ بالامتعاض. حاول ان يطرد غضبا مقيما. تجمع في عينيه، فكان
يتحایل على ابتسامة غاصبت شفّيته يشلحها على وجوه المارين به من الموظفين
والعسكريين. لقد ساءه ان يصل الحقد بقيادة الاركان الى الضغط على الوزير المدني
لتصفية عناصر كان كل ذنبها انها عقدت الولاء لرئيس البلاد. فما كان عدنان
المدني يخفي في مجالسه الخاصة رفضه مثل تلك التصرفات، فمسلسل التسريجات
كان في نظره مثل كرة ثلج كلما تدحرجت كلما كبرت، تبدأ في أول المنحدر كرة صغيرة
وتنتهي في آخره كبيرة ليس في وسع قدرة أحد على ايقافها... وعلى الرغم من ان
اديب الشيشكلي قد سرّحه وسجنه في المزة فبقي فيه اشهرا طويلة، لكنه لم يكن
ليوافق شوكت شقير ومعروف الدواليبي بأن تسريح الضباط هو عمل عسكري ينهي
وضعا سارت اليه القوات المسلحة السورية منذ انقلاب حسني الزعيم الاول ثم
اعدامه...

تسربت الافكار فجأة من رأسه وتلاشت. تملكه التحفز لما رأى الوزير معروف
الدواليبي يخرج من مكتبه وخلفه احد مرافقيه يتوجه مسرعا الى المصعد الكهربائي.
فلقد كان الوزير على موعد. انتصب عدنان المالكي امامه. رفع يده بالتحية. انزلها
بسرعة. نقل الملف بين يديه. قال بهدوء يتلمس انتباه الوزير:

- سيدي... هل لي من وقتكم بضع دقائق... فعندي ما أريد ان أعرضه
عليكم حول ما جاء في هذا الملف.

احتارت نظرات معروف الدواليبي بين الساعة في معصمه ووجه عدنان المالكي
والملف بين يديه:

- أي ملف... الا تراني على عجلة من امري؟

تملاه عدنان المالكي جيذا. استأنف تلمسه:

- سيدي... ان الموضوع لخطير جدا. أرجو ان تفسحوا لي بعض الوقت
للهديث حوله...

تضايق معروف الدواليبي. استرجع نفسا طويلا. انكمش الامتعاض على
شفّيته. دفع الكلام دفعا ثقيلا:

- ان كان الامر يتعلق بتسريجات وتنقلات بعض الضباط فقد وافقت على لائحة
اللواء شوكت شقير ووقعت قراراتها وأمرت. بتنفيذها فصارت مبرمة لا رجعة عنها ولا

بحث فيها وعليك أنت في الشعبة الثالثة تنفيذها بالحرف . . .
اتجهت العيون اليه وهو يصرخ في وجه الوزير. تجسدت لعدنان المالكي قدرته
على الرفض. تخلى عن رصانته. قال ناهرا:

- لن أسمح لك بدخول هذا المبنى بعد اليوم. لن أسمح لك بتسريح اي
ضابط. فعدا الملازم عبدالحق شحادة الذي غادر مع أديب الشيشكلي [كان مجيب
سلمان المرشد كما مر معنا من ضحاياه] لن أقبل بتسريح اي واحد منهم. ثقي ان هذا
الموقف لا يعبر عن رأيي فقط انما عن رأي غالبية الضباط . . .

همد معروف الدواليبي في مكانه لا يقوى حراكا، كأن طنين نبرات صوت عدنان
المالكي الحادة في اذنيه قد شلت مفاصله. تولاه انقباض. مسح وجهه بمنديله.
تراجع عدنان المالكي خطوات الى الوراء. وقفت يده عند صدغه وهو يلقي التحية.
أدار ظهره و. . . مشى.

معروف الدواليبي، خرج من وزارة الدفاع ذاك اليوم ولم يعد اليها . . .
ما رويت هذه الحادثة الا لتكون مثالا للجموح والتخبط السياسي والعسكري في
تلك الحقبة السورية التي تداخلت فيها مصالح الدول الاوروبية والأميركانية والعربية
خصوصا المصرية والسعودية.

- ٣ -

ما تنسلت ايام عام ١٩٥٧ حتى كان الانحلال يدب في أوصال الشام. وبدأ
جليا ان الزمرة العسكرية التي كانت تتحكم في البلاد بدأت تفتقر الى القواعد التي
تحدد السلوك السياسي. عبد الحميد السراج الذي كان على رأس جهاز الامن المولج
بحماية النظام من الانشقاقات والصراعات، دمر البلاد بحيث لم يبق ما يمكن
الانشقاق والصراع حوله.

سَخَا السراج في ارهابه وتطويعه الناس. دخل في صراع بين مصالح الفئات
الاجتماعية. ووقف لا يقوى على شيء وسط استعار الخلف والتنافس بين البعثيين
والشيوعيين. الا ان ذلك لم يمنعه بالتالي من نشر الدسائس في الجوار. وكان سلاحه
في التمهيد للفتن اجهزة اعلامية احترفت الختل والدس والابتكار المشين للتعابير
التي كانت تتغرغر بها حناجر المذيعين وتتفنن الجرائد المأجورة للسلطان في نقشها على
صفحاتها الاولى.

لم يسلم الحسين بن طلال من لسان جهاز عبد الحميد السراج، الذي كان
يسيطر عليه الشيوعيون والاشتراكيون، فكانت اذاعة دمشق تطلق عليه اسم
«الحسين بن زين» نسبة لوالدته الملكة زين. كذلك لم يرحم الرئيس كميل شمعون
من النعوت والوصاف والهجمات الاعلامية المنظمة التي كانت تصطاد في مياه

الطائفية العكرة وتحضر لفتنة وقف خلفها برهان ادهم، اكرم الصفدي، ومحمد خليفة وغيرهم . . . من الذين بثهم عبد الحميد السراج في بيروت ليعيثوا بها خرابا . وما كان يتعب الاثير من حمله كان الخبر الاسود ينقشه في الجرائد باقلام احمد عسه في «الرأي العام» واحمد علوش في «الصرخة» ويتباهى به صحافيو الدرجة الثالثة أمثال عدنان ملوحي في جريدته «الطلیعة» [صدرت مذكراته مؤخرًا] وما يفضل عنهم وتضيق له صفحات جرائدهم يدبجه الشيوعيون في جريدتهم «النور» التي كان يرأس تحريرها عبد الباقي الجمالي .

وكما استغل عبد الحميد السراج الصحف والاذاعة لبث الدسائس والتخريض على الفتن في الجوار، استغلها في صراع المصالح بين الفئات الاجتماعية ولتقويض البنى الاقتصادية للبلاد ولترسيخ «اشتراكية» ممطوطة المفاهيم خادعة، ليس فيها من الايديولوجيا غير اسمها . فتبدى الصراع الطبقي حادا بين العامل ورب العمل . الفلاح والملاك، التاجر والمستخدم وحتى بين الموظفين في القطاع الخاص والعام . . .

لقد كان للشيوعيين والاشتراكيين رجالهم في نقابات العمال وغيرها . . . غير انهم لم يعطوا لحقوق العمال والاجراء والموظفين بالا، انما حولوا نفوذهم في تلك النقابات وفي الطبقة العاملة لتعزيز اهدافهم السياسية الخارجية المصرية والسوفيائية ضد ما راج من احلاف واتفاقات ومعاهدات وارتباطات مع الغرب الاوروي . وبدلا من ان يكونوا عونا للناس اصبحوا عالة يشدون من أزر «السلطان الاحمر» ويساعدونه على نشر ظلمه وجوره وعسفه .

حام دس السراج حول «الشركة الخماسية» ونعق بومه فوقها . اتهمها بالعمالة والارتباط بالخارج . فما كان أهون على زمن «السلطان الاحمر» من قذف الناس بالاوصاف والنعوت ورجهم بالتهم القاذعة . اندارات الصحف تهاجم «الخماسية» تتهمها بأنها تقف وراء كل محاولة اصلاحية او تغييرية تناقض الحكم السراجي وتتهم الشركاء الخمسة [انور الدسوقي . انور القطب . عبد الحميد دياب . أنور الخجا . عبد الهادي الرباط] بارتباطات خازجية ثم تكشف ان الرئيس شكري القوتلي يملك اسهما في «الخماسية» وهبوا له لتمرير صفقات واتفاقات مشبوهة ! وحضروا الناس والعمال الثلاثة آلاف الذين كانوا يرتزقون من خيرات «الخماسية» للاعظم . . . للتأميم .

صحيح انه كان للشركاء الخمسة ومعهم رئيس البلاد، ارتباطات اقتصادية خارجية . ولكنها لم تكن تتعدى المجال التجاري الذي كان يؤمن لشركتهم رواج نتاجها ويفتح امامها الاسواق . فليس من يشك في مدى وطنية ذلك الصرح الصناعي الضخم، فعندما احتدمت معارك الاستقلال التي خاضها السوريون ضد

فرنسة وجيوشها كانت «الخناسية» تمول الثورة والثوار وتنفق على أسر المعتقلين والاسرى في سجون الاحتلال الفرنسي وسراديه وأقييته . فما نالت من عبد الحميد السراج غير الاذى والجحود . فأنهى «الخناسية» كما انتهى غيرها باسم الاشتراكية والعروبة .

- ٤ -

مثلما حاول قلب الحسين بن طلال مرة بوساطة اللواء علي أبو نوار ومثنى علي هدير دبابات اللواء علي الحيارى ، احتضن «السلطان الاحمر» منيف الرزاز [الامين العام الاسبق لحزب البعث العربي الاشتراكي] وعشرات معه من البعثيين والاشتراكيين والشيوعيين الاردنيين . وتبنى المعارضة العراقية ضد الوصي على العرش العراقي عبدالاله ونوري السعيد ، فكان صدام حسين [الرئيس العراقي] وصحبه «ضيوف» عبد الحميد السراج في دمشق قبل أن قرر الرئيس جمال عبدالناصر «استضافتهم» في القاهرة .

رجال المعارضة اللبنانية الذين تجمعوا فيما سمي وقتها «الجهة الوطنية» : كمال جنبلاط . رشيد كرامي . صائب سلام . عبدالله اليافي . صبري حماده . أحمد الاسعد . سليمان فرنجية . رينيه معوض وغيرهم . . . كانوا يتدافعون إلى بلاط السلطان ، ومعهم بعض الصحافيين الذين استمالهم السراج ومن بينهم سعيد فريجة . نسيب المتنبى . وسليم اللوزي . . . تدفع فواتير اقاماتهم ويتقاضون الجعالات من أموال المكلف السوري التي كانت استخبارات السراج تستولي عليها من ميزانية الدولة .

السلاح الذي هُرب إلى لبنان في صيف الدم عام ١٩٥٨ كان سلاحا سوريا ، دفع المواطن السوري ثمنه ليرفعه في وجه الاسرائيليين ، فاذا بعبد الحميد السراج يسربه من الثكن ، يوزعه على أعوانه ومريديه الذين كانوا يؤمنون بـ «قيادته الرشيدة» وبـ «نزاهته الوطنية» وبـ «عرويته الصادقة» ! فيبيعونه ويتاجرون به عند من يستطيع رفعه في وجه النظام اللبناني . . . الذي ساء السراج ان يكون على رأسه سياسي أريب مثل كميل شمعون يوالي بغداد والاردن ويعارض المد الناصري . . .

لما بدأ عبد الحميد السراج يعد العدة للفتنة في لبنان . أرسل اكرم الصفدي [يملك اليوم في القاهرة مدينة للملاهي اسمها «غرناطة» . . .] وزمرة لاغتيال الصحافي نسيب المتني ، صاحب جريدة «التلغراف» . فنفذوا . أطلق عليه النار أمام منزله في الثامن من ايار (مايو) ١٩٥٨ .

لقد اختار السراج نسيب المتني لأسباب عديدة منها ، ان صاحب «التلغراف» معارض لكميل شمعون ومحسوب على الشام . وبذلك تبتعد الشبهات عن

«السلطان الأحمر»، ذلك انه كيف يعقل ان يقدم على تصفية صحافي كان يواليه ويحاييه؟ ثم ان نسيب المتني مسيحي وقتله في ذروة الهياج الطوائفي يشعل البيت اللبناني. وما مهد له اتباع السراج في بيروت تمّ. فما ان انتشر خبر اغتيال المتني، حتى سارعت «الجبهة الوطنية» التي كان يدعمها السراج بالمال والعتاد والرجال... إلى إلقاء تبعة القتل على حكومة سامي الصلح. أضربت بيروت. تبلور الاحتجاج الى ثورة مسلحة لفت بيروت ودارت على طرابلس وصيدا والشوف. هاجم أعوان عبد الحميد السراج مخفر المصنع على الحدود اللبنانية - السورية. قتلوا حراسه. فقدت الحكومة اللبنانية سيطرتها على الحدود الشرقية. و... بدأ صيف الدم يحصد القتلى ويوزع الخراب.

وقد استند عبد الحميد السراج في مساندته لـ «الثوار» اللبنانيين على سببين: الاول، منع لبنان ان يكون مركزا للتآمر على الشام [وتلك معزوفة ألفها اللبنانيون والسوريون معا كلما غاب عهد وأطل آخر على دمشق] بينما الذين أحلوا دمه وتآمروا عليه في لبنان كانوا من المضامين من جوره واضطهاده وعسفه، وما كان السوريون واللبنانيون الذين عقدوا العزم على التخلص منه يحاولون ملكا في الشام، بل كانوا يستهدفونه شخصا لأنه استباح كراماتهم واحرق الرطب واليابس في زرعهم وشردهم تحت كل كوكب وهتك بهم وبنسائهم. سجن احرارهم وحرارهم سنوات طويلة، تجرعوا علقمها وقساوتها فما استلأنوا خشونة السجن إلا للليل منه. اما أن يكون الوازع القومي قد تحرك في صدر عبد الحميد السراج فأزر «الثوار» لمنع كميل شمعون من تجديد ولايته سنوات ست أخرى [كانت ستبدأ مع خواتيم الولاية الاولى في صيف ١٩٥٨]، والمرتبطة بالغرب ويمصالحه الاستعمارية، فذلك بعد مرور السنوات الطويلة ما زال يثير علامات الاستفهام:

هل حقيقة كان كميل شمعون أكثر قربا من واشنطن ولندن من جمال عبدالناصر وعبد الحميد السراج؟

ألم يكن انقلاب الثالث والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٢ الذي أطاح بعرش فاروق، نصرا لواشنطن في صراعها مع لندن؟ لقد كانت واشنطن ترغب في التعاطي مع رجل واحد في العالم العربي فأزاحت محمد نجيب واختارت جمال عبدالناصر، الذي لم يفقد مودتها حتى بعدما أمم القناة فجاء دوايت ايزنهاور لنجدته بعدما كاد الغزو الثلاثي يقضي على حكمه الطري.

لقد كان كميل شمعون أقرب الى الانكليز من عبدالناصر. وكان عبدالناصر أقرب الى الأميركيين من شمعون. واما فؤاد شهاب الذي ناصره صاحب مصر فقد سعى الأميركيون لمجيئه على سدة الرئاسة اللبنانية.

هل حقيقة ان عبد الحميد السراج كان ذلك «الوطني» الصادق و«العروبي» الوفي

[الذي لا زلت أؤمن بأنه يعرف من قتل عدنان المالكي حتى لا اتهمه بأنه قتل غسان جديد في بيروت] حتى يصطفيه صاحب مصر من بين ستة ملايين سوري في اواسط الخمسينات ليكون نائبا عنه ووليا على بر الشام فيما بقية رجال الحكم والسياسة والعقائد والافكار في الجانب الآخر غير الوطني؟

هل كان جمال عبدالناصر يفكر بعمق وحكمة يوم اختاره صفيا ونديا، يزوره في دمشق وبلودان ويغدق عليه نعمه ويسبغ دعمه ورعايته وحنوه، ثم يتركه يسوس الشعب بالسوط، يمعن في تجويعه وتخويفه وتسليط المحاسيب والجواسيس عليه وتحويل البلاد الى حبس كبير لا يجرؤ اي مواطن على الاعتراض أو الشكوى؟

اذكر فيما اذكر، ان وفدا من رجال الاعمال، كان بينهم الشقيقان محمد وموفق الميداني، قصد القاهرة للتظلم لدى عبدالناصر من أذى وجور سلطان دمشق الأحمر. ولأن الشكوى ممنوعة في حضرة صاحب مصر، فقد استبدل الوفد الشكوى بابداء «الملاحظات» حول الحال وسوء المآل في دمشق والفوضى في وزارات الاقليم الشمالي وهيمنة المحاسيب والازلام على مقدرات العباد.

سمع «الرئيس» . اكتسى وجهه بامارات الاستهجان . لا يرضى الظلم في الرعية . ما اكتفى بابداء الاهتمام . أوما الى من كان معه من معاونيه ان يسجل تلك الملاحظات ويرفعها الى الاجهزة المختصة للتحقيق بها . ظن من كان في الوفد ان كلام «الرئيس» سيصل الى أسماع «السلطان الأحمر» فيرعوي ويعدل في الرعية . خرجوا من قصر «القبة» ، بعضهم اتقى الله في عبادته وعاد الى دمشق ، وبعضهم الآخر خاف . . .

ولا شيء تغير أو تبدل . حاول موفق الميداني طرق باب عبدالحميد السراج ، فسد في وجهه . فقصد وزير الاقتصاد اكرم الديري في مكتبه يعترض على عدم توقيع «سيادة» الوزير على رخصة استيراد جهاز تكييف لقصره في دمر . فما كان من اكرم الديري الا ان انهال على موفق الميداني بالشتم ، ويخبر من سمع عمن حضر ان اكرم الديري اوسع موفق الميداني ضربا مبرحا حتى كاد يغمى عليه . فأمر أحد مساعديه برميهِ خارج المكتب .

موفق الميداني صار في السنوات الاخيرة ثريا سعوديا مرموقا قبل وفاته في خريف ١٩٩١ واكرم الديري هو الذي أصبح مديرا لاعماله . !

★ ★ ★

. . . واعتقل عبدالحميد السراج في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ . اقتادوه الى سجن «المزة» الذي أذاق فيه السوريين طعم الموت .

صدرت «الاهرام» بعدها بأيام مطرزة بمقال كبير كتبه محمد حسنين هيكل طرح فيه تساؤلات مرة عن اسلوب «السلطان الأحمر» في السلطة وممارسته الحكم .

تساءل هيكل لماذا كان عبدالحميد السراج يوعز إلى أعوانه بمراقبة الخارجين والداخلين الى الفنادق . لماذا كان يتنصت على المكالمات الهاتفية؟ لماذا حول الشام إلى حبس كبير، ففرض على السوريين تأشيرة الخروج التي تمنع المواطن من ممارسة حقه الطبيعي بالسفر من بلاده والعودة اليها متى رغب وساعة يشاء . لماذا ابتكر لهم «ادارة المحفوظات» التي كانت لا تسمح لأي مواطن ان يغادر بلاده إلا بعد أن يعرض جواز سفره عليها فتقول رأيها فيه سلبا ام ايجابا .

كان محمد حسنين هيكل في مقاله الطويل يحمل عبدالحميد السراج مسؤولية الانفصال، كأنه كان يريد أن يقول انه لولا ذاك الغيم الاسود الداكن لما كان ذلك المطر الغزير.

هل كان هيكل كتب بها كتب لو لم يأذن «الرئيس»؟ وإذا كان «الرئيس» يعرف كل ما كتبه هيكل وعدده من تجاوزات وسياسات خرقاء مارسها عبدالحميد السراج، لماذا سكنت والشعب في الاقليم الشمالي في جمهوريته المترامية الأطراف يثن من وجع التنكيل والاضطهاد والتعذيب ؟ إلا إذا كان عبدالحميد السراج صوت سيده و... سيفه .

عبد الحميد الرابع في حديقته بقرية وادي
١٩٠٨/١٩٠٩



الفصل الحادي عشر

بداية النهاية



- ١ -

لَفَت جسدها النحيل بمعطف سميك. سترت رأسها بشال صوفي تراخى منسدلاً على كتفيها. اندست في الصف الطويل وإلى جانبها ابنتها. أمامهن وخلفهن مئات النسوة اللاتي جئن لزيارة المساجين في «سجن القلعة». فيوم الثلاثاء من كل أسبوع هو دور النساء والجمعة للرجال وحدهم . . .

شتاء دمشق يزني بالبرد. رذاذ المطر يسكب في الاجساد برودة تتمدد على أطراف الاصابع وتنام في الركبتين تشلها. مزاريب التوتياء التي تمد لسانها الطويل على حيطان المحلات القديمة في «سوق العسرونية»، كانت تحول الدرب إلى برك تغمر الأرجل بالمياه الوسخة.

مدت بصرها، فاذا بالصف الطويل يتحرك. ضغطت أصابعها على حقيبة جلدية حشرت فيها بعض الملابس. مسكتها ابنتها من ذراعها. نبهتها إلى فجوة وسط الدرب. ارتعشت لما بدت لها بوابات الدخول الحديدية. بعد لحظات سترى ابنها. سيرمي رأسه على كتفها. ستمرر أصابع يدها المعروقة المدبوجة على شعره. على وجهه. على ما بقي من آثار الحزن والألم الشديدين . . .

علاً صراخ، انتشلها من رعتها اللذيذة. تدافع الحرس على المدخل. هدد واحد منهم أجهد النفس بقتل شاربیه وبتلوين وجهه بالحزم والشدة، باغلاق الابواب وترك الزائرات تحت المظن الذي اشتد وسخا، ان هن لم يتمهلن على رجاله الذين كانوا يغمسون أيديهم في الحقائب يفتشونها. يبحثون عن الممنوع والمحظور. وصل دورها. نتر الحارس الحقيبة الجلدية من يدها. رماها أمامه على الطاولة. حاولت ابنتها ان تشرح له ما فيها. فرمى عليها نظرة حمق من عينين محمرتين. تناول الحقيبة بيديه المعضلتين وقلبها على الطاولة. تعجل في بعثرة ما احتوته ثم . . . قال:

- من عندك في القلعة؟

حررت رأسها من الشال الصوفي وكشفت عن شعر امتد المشيب فيه:

- ابني . . . أنا أم عصام المحايري، وهذي أخته.

امتلات نظرتة بالغضب . تغيرت ملامح وجهه . جمع في صوته نبرات لثيمة .
حرك عصا في يده اليمنى . اشار بها الى سهام شقيقة عصام المحاييري ان تعيد حشر
ما بعثه على الطاولة في الحقبة الجلدية .

تغلبت على دمة كادت تسيل من عينيها . أمسكت بيد ابنتها تتوكأ عليها
ومشت ، نزلت الى سرداب طويل ومنه الى سلم ثم الى باب ثالث وتفتيش آخر واوامر
وصراخ . . . قبل الوصول الى قاووش نتن تفوح منه روائح الدم والقيح ، كان يضم
ابنها وعشرات آخرين من أحرار الامة الذين ذاقوا الامرين داخل الحيطان السميكة
لقلعة تباهى صلاح الدين الايوبي بتجديدها قبل ٨٠٠ عام ليجعلها قصر حكم
وقلعة ملك ، خرجت منها راياته لترد هجمة الاوروبيين على الشرق القديم . . .
فحول السراج قاعاتها الفسيحة الى معتقل رهيب تأنف حتى خيول ركن الدين
الظهر ببيرس من السكنى فيها والاقامة .

كان قد مضى على الصحافي والمحامي والنائب السابق عصام المحاييري [رئيس
الحزب السوري القومي الاجتماعي - الطوارىء في الاسر خمس سنوات متنقلا بين
سجن «المزة» العسكري وسجن «القلعة» المدني . ذاق خلالها الامرين ومورست
عليه صنوف الضغط النفساني والمادي وتناوب الجلادون عليه في كل موقع ا



امتلات عينا أم عصام المحاييري بشيء اشبه بالدموع . سال نظري على قسبات
وجهها التي ما انسحب الوقار والعزم منها ، وهي المضامة حسرة على ولدها . كانت
تتكلم بهدوء وباعتداد في نفس ما وهنت على الرغم من الآلام التي تكبدتها منذ ان
سلخوا ابنها عنها .

كانت تصلني كلماتها وفي نفسي ينزّ جرح مقيم . فعلى قدر ما كان يغضبني ان
تربطني نسابة مع حاكم مستبد جائر مثل عبد الحميد السراج ، على قدر ما
كان يؤلني ان يظن الناس ان لي دالة على «السلطان الاحمر» وان تواسطوني عنده لقيوا
مرادهم .

فلقد ظنت والدة عصام المحاييري عندما زارتني يومها ، انني قادر على فعل شيء
ما ، قد لا يكون بالضرورة اطلاق سراح ابنها فهذا أمر دونه خرط القتاد ، لكنني قد
أقدر اذا سعت لدى السلطان على تحسين عيشه خلف أسوار السجن الرهيب . او

حتى على نقل السيدة جوليات المير [قرينة انطون سعاد] من القاوش
الجماعي الذي كان يضمها والمؤسسات والشاذات الى قاوش انفرادي . . .

تملكني الانقباض. قفز أمامي وجه عبد الحميد السراج . تمايلت الافكار في
رأسي حيرى . ماذا أقول لتلك السيدة الوقورة المضامة بابنها؟ كيف أرد لها طلبا؟
كيف أشرح لها عن علاقتي بـ«العديل»؟

أبصرت ضيقا في وجهها . تنتظر الكلام المطمئن مني . ارتجف الكلام على طرف
لساني . رددته مرات الى حلقي . تمايلت على فنجان القهوة . كاني ابحث عن لحظة
استجمع فيها الكلام من جديد . ابتلعت ما تبقى فيه بسرعة . شرحت لها صعوبة
الامر . واني جربت من قبل ان افاتح مَلَكَ زوجة السراج بأمر قرينة انطون سعاد ،
فلم ألق منها الصدود وعدم الاهتمام فقط ، انما الاصرار على اعتبار زوجة سعاد
«مجرمة» تستحق العقاب ، وأن القوميين هم «عملاء» تحالفوا مع العالم كله ضد
سورية ! ولا أظن اليوم ان الرأي تبدل عنده وعندها و«السلطان الاحمر» في أوج مجده
وتسلطه وتحكمه بالبلاد والعباد .

تنبّهت وانسا أسهب في الكلام ان شيئا غريبا لاح في نظرات والدّة عصام
المحائري . قاطعتني بلهفة من وجد شيئا ثميناً لا يريد اضاعته :
«ماذا لو سألت زوجة السراج عن موعد لي فازورها . . . فلربما وهي الام تتفهم
شعور أم محرومة من ابنها ، لا تراه الا لساعة مرة في الاسبوع» .
بدت على وجهها امارات الحزن . احسست في داخلي بشيء غامض لا أفهمه .
هل تقبل مَلَكَ بمقابلتها؟
وجدت نفسي أرد بتلقائية :

— سأجرب . . . سأجرب ، وان فشلت فسأحاول أن ألح عليها ربما استلان قلبها
القاسي .

طاف ارتياح غريب على وجهها . أفسحت لايتهامة خجلى مرت خطفا على
شفتيها . هزّت برأسها علامة الرضى . ضغطت على كتف المقعد تهم بالوقوف .
رفعت رأسها على مهل . ألحت في الكلام ان أفعل ما استطعت من أجل زوجة
انطون سعاد . مرقت دمعة على عينيها :

«ابني رجل كان في الحزب يحمل مسؤولية ، وهو قادر على تحمل العذاب والأسر
اكثر من الذي تحمله حتى الآن . أما زوجة سعاد فلا شأن لها بكل ذلك ، حتى
الجاهل يعرف وضعها الرمزي في المؤسسة الحزبية ، فضلا عن انها امرأة ثكلى ،
فقدت زوجها وتركت خلفها ثلاث بنات بلا معيل ، بحاجة الى حنانها ورعايتها» .

لم أنم ليلتها.

صرفت الليل انتظر النهار ومعه ديبب أشعة الشمس على شباك الغرفة.
ماجت الصور في رأسي، ترسم أمامي خيوطا مع الدخان الرمادي المنبعث من
السجائر التي كنت أشعلها. أمتصها ثم ألقمها بحركة لا شعورية صحن الدخان
المتخم بالاعقاب والرماد. تمنيت مرارا لو حدث اي شيء ينقذني من الذهاب الى
منزل السراج. يرحمني من استجداء عطف واهتمام امرأة متغطسة، لا يهتمها في
الدنيا كلها سوى ان تبقى زوجة «سيادة النائب» يشار اليها بالبنان وتلوى ازاءها
الرقاب. تتحول الى لبوة شرسة اذا كان مسّ ولو في الظن أحدهم منصب زوجها.
حاولت ان اريح ذهني من تراكم الافكار. قلبت باصابعي كتابا عن سيرة حياة
الموسيقيار الفرنسي كلود دوبوسي Claude Debussy أبعد عني انقباضا تكمش في
دائلي. غفوت. زحفت الشمس. سالت أشعتها على الشباك. سيرة حياة دوبوسي
كانت كتابا مفتوحا على صدري.

★ ★ ★

ما ارتاحت ساعة الهاتف من أذنها وفمها حتى انهمكت في توزيع الاوامر على
الخادمة المصرية. وكأنها عرفت انني بدأت أتضايق من تصرفاتها. أخذت تنتحل
الاعداد وبدأت تحدثني عن انهاكها في الاعداد لحفلة عشاء يحضرها جمع من
السياسيين والسفراء. قاطعتها بحدة:
- أنا هنا لأمر مهم.

فتحت عينيها على اتساعهما. فسألتها:

- هل سبق لك ومررت يوم الثلاثاء بسوق العصرية؟

تولاها التعجب. أزاحت ابتسامة على شفثيها. قطبت. فأكملت:

- هناك أم تذهب مع ابنتها كل يوم ثلاثاء وتقف تحت المطر في صف طويل يصل
الى «سجن القلعة»، لتزور ابنها عصام المحاييري الذي طواه السجن الرهيب منذ
سنوات خمس. وخلف اسوار السجن أم تركت خلفها بنات ثلاث بلا معيل...
ثقل كلامي على صدرها. أخذت نفسا طويلا. رمت على وجهي نظرة تجمع فيها
غضب مقيم. فتحت فمها. أكملت:

«أنا هنا لا لأطلب اطلاق سراحهما. انما على الاقل نقل تلك السيدة الى
الانفراد. فليس من قدر جوليات الميروهي سيدة فاضلة بريئة ان ترمى مع المومسات
والشاذات. أما عصام المحاييري فعلى الاقل التخفيف من شظف عيشه خلف
جدران السجن الرهيب... واظنك وانت صرت اليوم اما لطفلين تعرفين مقدار
حنان الام وحاجة أطفالها اليها...»

لم تدعني أكمل . دارت عينها في محجريها دورة غريبة . وأفلت منها الكلام :
- ما زلت تحدثني عن زوجة انطون سعاد . . . وعن القوميين . جولييات المير
تستحق السجن . . . ثم مالك ولعصام المحاييري وأمه واخته . اترك أمرهم للزمان .
فلا أحد فيه خير أو معروف . التفت الى نفسك فقط . . . لعلك تصبح كما أصبح
زوجي رجلا مهما .

لم أعد اذكر ماذا اجبتها . كل ما زلت أذكره انني جرحت رجلي بمنضدة الدخان
عندما ارتطمت بها وأنا أزيحها من أمامي منفعلا و . . . أخرج .
واعترف بعد كثة السنوات الطويلة . انني شعرت بحزن عميق لأنني لم أستطع ان
أعود الى ام عصام المحاييري وشقيقته سهام بما يبرد قلوبهما . ولكنني لم أصب بخيبة
امل من زوجة السراج ، فلقد كنت أعرف انها من أجل زوجها تخرج المعجزات ،
فما كانت لتزعجه أو تقلقه أو ترجوه أمرا يعتبره مصيريا مرتبطا بوجوده على رأس
السلطة . فان هو اعطى عصام المحاييري وغيره من المعتقلين بعض التسهيلات ،
ونخفف عنهم شظف الحياة خلف جدران السجن ، قامت قيامة من هم حوله
وحواليه من خصوم القوميين الاجتماعيين من شيوعيين واشتراكيين ومرترقة ، وهو
ليس على استعداد لمجابهة هؤلاء فيخسر سلطته وسلطانه للتخفيف عن من رماهم
في السجن من أجل ان يقبض على اعنة الحكم .
فرجل مثل عبدالحميد السراج يستبيح كل المحرمات في سبيل السلطة
والسلطان .

لم تياس . سألتني عن موعد خروج عبدالحميد السراج من بيته صباحا .
اجبتها . لم تدعني استفسر أكثر . قالت :
- سأعترضه بنفسه . سأحمل له رسالة مكتوبة ان رفض الاستماع الي .
ولم أشأ ان أضيف بكلمة . تركت ملامح وجهي المتعجبة تعطيها الجواب .
وقفت قبالة منزله في شارع الجاحظ تنتظره . رأت حركة غريبة . سيارة المرسيدس
السوداء تتقدم على مهل . تسد مدخل المبنى . ينزل أربعة يطوقون السيارة وخامس
يفتح بابها الخلفي . ما ان اطل السراج وهم بدخول السيارة حتى ركضت مخترقة
الحراس . صرخت :

- عبدالحميد بك . . . عبدالحميد بك .

سحب جسده من السيارة . لحق بعينه مصدر الصوت . توقف . تفرس في وجه
والدة عصام المحاييري . تغاصبت ابتسامة بليدة على شفثيه :
- نعم . . . نعم ماذا تريدان ؟ .

ردت بسرعة :

- أنا أم عصام المحاييري . أنا أم اسيرك عصام المحاييري .
تلفت يمنة ويسرة . انعقد الغضب بين حاجبيه . زَمَّ شفتيه وقال بصوت
خفيض :

- أعرفه . . أعرفه . ماذا تريدان ؟ .

جمعت كلماتها بلهفة :

- ابني يا سيادة الوزير يعاني الأمرين ، وبعد خمس سنوات أصبح بحاجة الى
بعض تعديل في ظروف اعتقاله .

لم يدعها تكمل . ادار ظهره . مشى الى السيارة . لحقت به تحاول ان تشرح له
وتزيد . دخل السيارة . اغلق الباب بعصبية . رفع زجاج الشباك وهو يقول :

- هذه قصة طويلة . . . لعلك تقدمين فيها رسالة .

كان ما يزال يرفع زجاج شباك السيارة عندما اجابته :

- لقد كتبت . . لقد كتبت هذه هي . . . هذه . . .

مد يده . خطف الرسالة من يدها بحركة عصبية . أوما الى سائقه حسن
بالانطلاق . غرست السيارة دواليبها في الاسمنت . دارت بسرعة . تطاير الحصى
والغبار تحتها . ظلت والدته عصام المحاييري ترقب بنظرها السيارة وهي تختفي في
الشارع .

بعد ذلك اليوم . . بقي عصام المحاييري في السجن ثماني سنوات .

- ٣ -

في ذلك الوقت . كان الزمان يضحك للسراج . جمال عبدالناصر ولآه على برّ الشام
فتحكم بالبلاد والعباد . نفوذه وتسلطه اللذان سبقا الوحدة غير الطبيعية بين
دمشق والقاهرة ، يكمنان في كونه بقي ذئبا وحيدا في فلولات براري الشام وسط
ذئاب أخرى تتناثش السلطة وتتصارع من أجلها . فلا ارتبط بتنظيم سياسي ولا والى
اي حزب على حساب آخر . حابى البعثيين ولم يكن منهم . تقرب من الشيوعيين ولم
ينخرط في صفوفهم ولا أيد في مرات كثيرة سياستهم ، حتى اذا ما تمكن انقض
عليهم . ارتقى على عبدالناصر ساعة وجد ان بيد صاحب مصر وسيدها مفاتيح
السلطة ، وعندما خطفها واستحوذ عليها تصرف بها على هواه ، بينما كان الضباط
الذين شاركوه السلطة والسلطان أقرب منه الى الفئات السياسية .

فلحزب «البعث العربي الاشتراكي» في تلك الاعوام السحيفة مؤيدون ومحاربون
تعاطفوا معه في الجيش ، من بينهم كان عبدالغني قنوت وبشير صادق وحسن حدة
وجمال الصوفي ، الا ان أبرز المؤيدين لقادة «البعث» التاريخيين [ميشال عفلق .
صلاح الدين البيطار . أكرم الحوراني] كان مصطفى حمدون [المقيم حاليا في رومة]

وصلات القريبى التي كانت تربطه بالخوراني جعلته يصبح وزيرا للاصلاح الزراعي على زمن «الوحدة» فاذا به يتحول من ضابط يفقه حمل السلاح الى مشرع يسن قوانين فرضت على الشام ما سمي بـ «الاصلاح الزراعي» بدعة مصرية طبقها حمدون بحقد طبقي وانتقام اجتماعي عاكسا كل ما اختزنه قريبه اكرم الخوراني من تعاليم الصراع مع ملاكي الاراضي في منطقة حماه وريفها الكبير.

وكان السراج يراقب بحذر نمو جناح مستقل مقابل للبعثيين على رأسه أمين النفوري، الذي ارتبط بأواصر متينة مع أديب الشيشكلي. وقد أطلق النفوري على تجمعه اسم «جماعة التحريريين» نسبة الى «حزب التحرير العربي» الذي كان أسسه اديب الشيشكلي بعد خلافه مع جورج عبدالمسيح رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كان الشيشكلي ينتمي اليه فكان اول قومي اجتماعي يصل الى الحكم منذ تأسيس الحزب عام ١٩٣٢.

كان مع امين النفوري في تجمع «التحريريين» جادو عزالدين. احمد عبدالكريم. حسين حدة [شقيق حسن حدة البعثي] فطالبوا وهم عزل من أي موقف سياسي وانتهاء حزبي واضح بـ «حصتهم» في السلطة. ففي ذلك الزمان كانت السلطة توزع بالخصص ويستقوي عليها من يستطيع ويغتم بها الأقدر على التهديد بالدبابة والمدفع.

عبدالحميد السراج على الرغم من نشأته الفقيرة في حماة كان يحاول دوما الاقتراب من الاقطاع السياسي الذي كان يتزعمه «الثري الاحمر» خالد العظم الذي ارتبط بحلف دفاعي - هجومي مع الزعيم الشيوعي خالد بكداش، الذي صار نائبا في البرلمان مفسحا بوجوده للاتحاد النبوفياتي (الراحل) وللحركة الشيوعية السورية ان تتواجد في البلاد وبشكل غير رسمي. فراح السراج يستفيد من الشيوعيين ويقترب منهم أكثر من اقترابه من البعثيين. مهدت له ذلك زوجته ملك، التي كانت انتمت الى الحزب الشيوعي ونشطت في خلاياه بدمشق، فلقد كان والدها الزعيم الكردي علي آغا زلفو [مدينة] الذي كان يعطف على خالد بكداش ويحزله خلال سنوات مطاردته الطويلة أثناء الاحتلال الفرنسي وسنوات الحقبة القوتلية، التي رفضت لتأثيرات غربية [فرنسة - بريطانية - اميركانية] ان تترك له مجال العمل والوجود في الجمهورية السورية.

في ظل الصراع على السلطة، قام تنظيم ثالث ضم احمد الحنيدي ابن دير الزور وطعمة عودة الله ابن حوران، كلاهما كانا من ضباط المدرعات وكلاهما نصبا وزيرا في الحكومة التنفيذية على زمن الوحدة. ومثلما اتكأ السراج على الشيوعيين وكسب ود «التحريريين» ودعمه الحنيدي وطعمة عودة الله [الذي ادار دباباته على مبنى الاركان العامة لارغام اللواء توفيق نظام الدين بالغاء قرار نقل «السلطان الاحمر»

الى باريس] مال اليه اكرم الديري [الذي زامله على مقاعد كلية حمص العسكرية] ومعه جماعة ترأسها وتشكلت من ضباط دمشق. واذا ما برز عفيف البرزي عام ١٩٥٧ كرئيس للأركان العامة فقد كان شيوعياً وجد نفسه منساقاً الى التطويل والتزمير في عرس حكم «السلطان الاحمر» . . .

لقد كان هؤلاء الضباط كالسحالي يبدلون ويغيرون ألوان ولاءاتهم. سيطروا على الحكم بالبنادق، والدبابات، لا رؤية سياسية تجمع بينهم ولا كلمة سواء. وقد تمكن عبدالحميد السراج بقدرته الفائقة على الصمت واللعب على التناقضات من السيطرة على الاجنحة ولويها تحت قبضته وعندما شعر ان تلك المنازعات قربت الجيش من الهاوية ووضعت البلاد على شفير الانحلال، وان جمال عبدالناصر بات الوحيد القادر على جمع شتات الضباط، مال الى صاحب مصر. فولاه واقطعه الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، فحكم وتحكم.

لم يكتف بـث الجواسيس بين الناس، فقد قاده شكه وعدم ثقته حتى بالمقربين منه الى مراقبة كل اتصالات وزرائه العسكريين والمدنيين.

تسير الديري [شقيق اكرم الديري] الذي كان يملك مطعم «مراكش» على متكأ شارع أبي رمانة، ردد أمامي مرارا شكوى شقيقه من مراقبة أجهزة عبدالحميد السراج لحركاته وتحركاته. وغالباً ما كان يرفع سماعة الهاتف في منزله فيسمع تكتكات آلات التنصت على خط هاتفه.

المحامي الراحل صالح عبود، عدل الضابط والوزير احمد الحنيدى [كان عبود أحد ثلاث نال الحزب السوري القومي الاجتماعي رخصة على اسمهم] روى لي مرات امتعاض عديله الوزير من تصرفات عبدالحميد السراج ومراقبته المستترة له. أحمد الحنيدى، كان وزيراً فاشلاً للاصلاح الزراعي كما كان سلفه مصطفى حمدون، وكما كان بعدهما عبدالكريم الحنيدى.

عساكر بعد عساكر اخرجوها من الشكن الى مقاعد الحكم بلا ثقافة ولا حكمة ولا روية، لتصادر اراضي الناس من أجل توزيعها على «بعض» الناس، فاذا بها وقد صودرت بدافع الحق الطبعي لم توزع الا على نفر انصرفوا الى نوع من الاقطاع الجديد. فبدل ان يعملوا في تحسين الارض استقدموا لها فلاحين غيرهم وتركوها الى المدن يتوظفون في الاستخبارات او حجاباً في الدوائر الرسمية. فأوجد الاصلاح الزراعي افرازات اجتماعية وسياسية واقتصادية شاذة دخلت في صميم الحياة السورية و... أفسدتها.

- ٤ -

- مات شقيق عبدالحميد السراج.

تمشى الخبر من باب الى باب . لاكته السنة الصحف واحناك الناس . تفرغرت به حناجر المذيعين والمذيعات . تنادى القوم لتشيعه .

وشقيق «السلطان الاحمر» ، خباز بسيط يعيش في حماة على الكفاف . ما عرف من الدنيا غير الفرن والعجن والخبز والبيت . ما اهتم بالسياسة والسياسة ولا عفر جبينه الا بعرق العافية ، وما استغل منصب اخيه في دمشق لغاية او منصب ، انها ظل في حماه يعيش عيشة مسكنة وتواضع كما تربى مع اخيه في حي فقير متواضع . عندما ضج بها سمع من امر اخيه سلطان دمشق الاحمر ، وما تقتطفه يداه من رذائل ، عزم على الهجرة فأوقف السراج معاملاته واجبره على البقاء في حماه . أصيب بالسرطان فنقل الى مشفى «المجتهد» في دمشق وبعد أشهر فارق الحياة .

مدت الشمس لسانها الطويل يللمم الفيء . آب اللهاب نثر حره . تتلظى الاجساد تذرف عرقا . على الدرب في اول حماه كان نوبار سائق توفيق الحبوباتي يتمهل بنا . امامه ارتال من السيارات الآتية من كل حدب وصوب الى المدينة التي تنام على ضفاف العاصي .

مد فيصل الدالاتي ، مدير عام معرض دمشق الدولي ، يده من سيارته . لوح بها فهمست في اذن توفيق الحبوباتي :

- ماذا جاء به الى هنا . . . بالامس كان ينهال بالسباب امامي على السراج واعوانه وحكمه .

لكزني . لوى فمه ساخرا :

- مصالح بابا . . . مصالح .

عدّل جلسته . مسح بمنديل جيبات العرق التي طرزت جبينه :

- أو تظن ان هذا الحشد الغفير، جاء على الرغم من الحر الى حماه لأنه على معرفة بالفقيد؟ انهم هنا يا سيدي مرضاة لعبد الحميد لعل برضاه يُرفع راتب وتعلو رتبة .

فيصل الدالاتي الذي ركب سيارة الدولة ذات اللوحة الخضراء مجتازا اكثر من ٢٠٠ كيلومتر ليصل الى حماه فيكون في طليعة المشيعين كان يأمل ان يعيده «سيادة عبد الحميد بك» الى السلك الدبلوماسي الذي جاء منه الى ادارة معرض دمشق الدولي . . . ومثله فعل عشرات من الموظفين والسياسيين السوريين واللبنانيين . . .

مزارع الورد في الاقليم الشمالي قطفت زهورها لتعقد اكاليل وتثر على المشيعين . معامل الثلج من حدود الاردن الى شمالي حلب ، استنفرت بأوامر السراج لارسال كل لوح ثلج تنتجه الى حيث تجمع الآلاف لتشيع جثمان فقيد «الشقيق الكبير» .

و . . . «الشقيق الكبير» لم يذرف دمعة . بقي هامدا . هادئا يستقبل المعزين واحد وراء آخر ، متمتا ، بما لم يفهم من كلام ، وبين الحين والآخر يشير الى شوقي الدقاق راسها علامة استفهام بعينه كأنه كان يستفسر عن وصول بعض الناس . . .

ثم يرمي على الساعة في معصمه نظرة عجلى .
كانت الشمس تتعري وسط السماء . تشلح اشعتها المحرقة . المنتظرون تلسعهم
الحرارة . يتصببون عرقا . كمال جنبلاط بحث عن شجرة وارفة الظل . وقف تحتها .
لف منديله على رقبته . الى جانبه عدد من الاغوان والازلام ، قدموا من لبنان كرمى
لعيني السلطان . ومثلهم فعل كثيرون . . .
وجاء من أسر باذن السراج . أوما الى بعض مساعديه لترتيب الموكب ثم . . . أذن
للمؤذن فأذن .

كنت واحدا من الآلاف الذين مشوا خلف النعش . الى جانبي توفيق الحبوباتي
وامامنا «السيد النائب» . عن يمينه أشقاء زوجته احنف وزهير وخالد ، وعن يساره
جادو عزالدين ، احمد الحنيدي ، اكرم الديري ، طعمة العودة الله ، شوقي الدقاق
واحمد عبدالكريم .

مشى الموكب خبيبا الى هضبة على يمينها المدافن وفي وسطها نصب تذكاري
لشهداء حماه في معركة تحريرها من الفرنسيين عام ١٩٤٥ . وبينما القوم يتمهلون امام
المدافن ، حلقت طائرة مروحية فوق رؤوسهم . ارخت جسمها الثقيل على التراب
وسط الساحة . بقي صوتها يهدر ومراوحها تدور . تثر الغبار على المشيعين . نزل
منها المشير عبدالحكيم عامر ممثلا جمال عبدالناصر . ترك عبدالحكيم السراج الموكب
الى حيث جشت الطائرة . عانق المشير السلطان بحرارة . افسح له الطريق الى سرادق
بسيط أقيم على عجل ليخطب السلطان في الناس مستغلا موت شقيقه لبث اشارات
الى القاهرة . . . من انه باق على العهد على الرغم مما كان بدأ يدور يومها ويحاك ضد
حكمه وحكم صاحب مصر على الشام من خلاله .

تمهل في الكلام . تسمر نظره هنيهات على نعش شقيقه المجلل بالعلم السوري ،
على الرغم من أن تجليل الاعلام لا يصح الا على نعوش الشهداء وذوي المقام
والقيمة . اخذ نفسا طويلا . صرخ في الناس :

«حاولوا يا أخي ان يتسربوا الى من خلالك . حاول الاميركان يا أخي ان
يشتروني عبرك ، فما عرفوا انهم كانوا يحاولون شراء صخرة لا تحول ولا تزول . . . ما
عرفوا ان هذه المدينة التي ولدنا فيها وترعرعنا وشربنا من مائها . . . عصت على
الفاحين والغزاة فما قبلت زغلا في وطنيتها واخلاصها لهذا الوطن . حاولوا يا أخي ان
يرغموك على الهجرة . ان يخذلوا عليك المال ، فأبيت ورفضت بشمم وكبر لانك
ولدت فقيرا وآثرت ان تبقى فقيرا» (. . .) .

الصخرة «التي لا تحول ولا تزول» تدحرجت من عل . لم ينفع تصويره لشقيقه

على انه «بطل قومي» ، وهو خباز ليس له حول ولا طول ، في عزله وسجنه ثم . . . تهريبه .

- ٥ -

جاءني صوت توفيق الحبوباتي مرتبكاً على غير عادة منه . طلب مني ان اكون مستعداً ساعة يمر بي سائقه نوبار للصعود الى «فندق بلودان الكبير» ، الذي كان يستثمره . فهو «الجماعة» بحاجة الى وجودي معهم .

غامت الاشياء في عيني . ارتبكت . قاومت الظنون . فتشت عن تفسير لكلمة «الجماعة» . رددت الكلمة مرات . ترسخت الافكار في رأسي . حاولت استدراجه الى مزيد من التفصيل . تكتم . ازدادت حيرتي . فليس من عادة صاحب «نادي الشرق» التكتم الا في المحن . وعاد صوته الرخيم يلح عليّ بالمجيء

أزحت سماعة الهاتف عن اذني . وضعتها على مهل . كانت زوجتي في تلك الاثناء تستعد للذهاب الى عملها في مبنى التلفزيون الواقع في ساحة الامويين ، غربي دمشق ، فلما اخبرتها عن عزمي الصعود الى بلودان ، احث علي ان اعود مهتماً تأخر بي الوقت لأنها سمعت في اروقة التلفزيون عنعنات وهميات عن تحركات سياسية وعسكرية قد لا تحمد عواقبها .

وعادت كلمة «الجماعة» تقفز الى ذهني . توجست شراً . كتمت قلقي وانا أركب سيارة البويك الخمرية . حاولت مفاتيحة نوبار فأجابني بالالغاز .

على الباب الداخلي لفندق بلودان الكبير كان توفيق الحبوباتي في حركة غير عادية . ما ان رأيته حتى انتحى بي جانباً . اختلس نظرة على الباب ثم قال هامساً :

لا يجب ان تترك عديلك لوحده . الوضع خطير . الازمة مشتدة والاصدقاء من حوله صاروا قلة .

استولى عليّ شعور مزدوج ، فما عدت اعرف أهو اغتباط ام انقباض . تسارعت الكلمات على لساني :

لكننا منذ ثلاثة أيام وتحديدًا يوم التاسع من ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ ذهبنا سوريا اليه ورجوناه اطلاق سراح رجاء الشربجي الذي كان الفريق جمال فيصل قائد ما سمي بالجيش الاول [الجيش السوري] قد اعتقله لأنه قال عنه كلاماً مشيناً فما شعرنا ان في الامر ما ينذر بهبوب عاصفة .

قاطعني الحبوباتي بنبرة عالية :

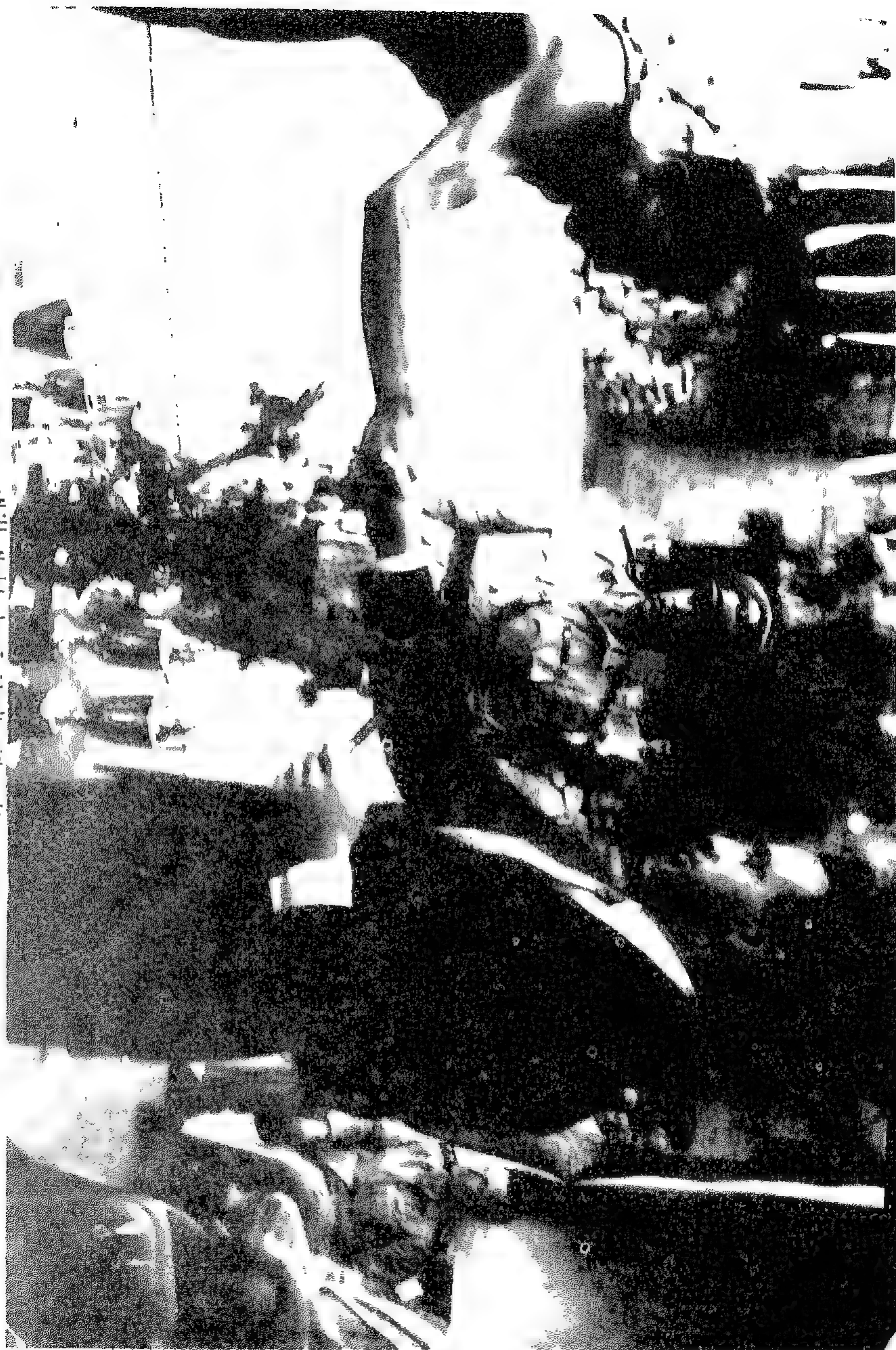
- صحيح . . . صحيح . . . هذا كان منذ ثلاثة أيام . . .

تنبه الى ان صوته بدأ يملأ المكان فعاد الى الهمس :

- اليوم . . . كل شيء تبدل . ان في الاجواء ما ينذر بأوخم العواقب .

تفرست في وجهه . ازداد شغفي لمعرفة الخبر. أهى نهاية السراج؟ أحسست
بالسؤال يكبر في فمي . أفلت مني . علا صوتي :
- اخبرني . . . اخبرني .
بلع ريقا . تجمد في فمه . نظريمنه ويسرة وألقى كلامه خطفا :
- استقال السراج .
حلقت مع نشوتي . سقط عليّ كلامه باردا . حاولت ان ابعد عن شفتي ابتسامة
عريضة ممطوطة . غدرتني . فتهاذيت بها حتى الثمالة :
- ماذا؟ ماذا تقول؟ .
ارتعش داخله . عاد يهمس :
- لقد استقال السراج . كنت انتظرك لنذهب الى منزله ونسمع ما يقول عن
استقالته .

... في احد المهرجانات الرياضية بـسلم الجوائز للفائزين ...



الفصل الثاني عشر

السقوط



- ١ -

كانوا يتهايمسون ساعة دخلنا . سحى الليل وبلودان سهرانة ، تطل الاضواء من بيوتها الشتيتة . تشع ، تموج . كأنها ثقب تطرز رداء الليل الاسود . على شرفة الفيلا التي كان يمضي فيها السراج اشهر الصيف ، دارت أحاديثهم .

برهان أدهم كان يغلي ويفور . عبدالوهاب الخطيب كان مطرقا بانتباه . شوقي الدقاق يتلهى بورقة امامه يمرر القلم عليها واجماً مقطبا . بهجت مسوقي يرسم بيديه وهو يتكلم شارات عصبية لطمت مرات كتف مروان السباعي الذي جلس الى جانبه . وحده عبدالحميد السراج بقي هادئا . يشرح نظره في المدى ، كأنه يمر بعينه على بيوت بلودان المرتمية أمامه بيتا . . . بيتا . يهز برأسه حيناً . يدور بنظره على وجوه أعوانه الوحيدين الذين بقوا الى جانبه و . . . يصمت .

سمع صوت توفيق الحبوباتي يرمي السلام . توقف برهان أدهم عن الكلام . ساد صمت بليد . رفع عبدالحميد السراج رأسه . استدار ، كأنه قد فوجئ بالصوت فأراد ان يتأكد أنه صوت توفيق الحبوباتي ، صاحبه ، وقف يستقبلنا .

- خير . . . خير يا أبا فراس . ما الخطب ماذا يجري ؟ هل صحيح الذي سمعته . . . أننا هنا غسان وأنا للاستفسار .

انسحب الكلام على لسان الحبوباتي دفعة واحدة . تملأه «السلطان الاحمر» ، فابصرت التحدي في عينيه . تنبه الى وجودي ، فحاول ان يخفي اضطرابا زحف الى وجهه وراء ابتسامة مرّت خجلى على شفتيه :

- ماذا سمعت يا أبا محمد ؟

همس السراج ، ونشر مع كلامه علاقة استفهام حيرى :

- سمعت أنك استقلت !

تمددت على شفتي السلطان ابتسامة . سحبها بسرعة من شفتيه . تملّى في الحبوباتي :

- افكر بذلك . . . كله خير ان شاء الله . يريدني الرئيس أن أصبح تابعا للمشير

عامر، بعدما احتواني بوزارة الداخلية المركزية في القاهرة. لبيت. لكنني لم أجد مكتبا أجلس وراءه، والرئيس لا وقت عنده لاستقبالي. هكذا كانوا يقولون لي كلما طلبت مقابلته. اعوانه من حوله كانوا يتغاضون عني. مللت. تعبت. فعدت في مطلع الشهر.

تدخل برهان أدهم [أبو ابراهيم] التقط خيط الكلام:
- خيراً فعلت بعودتك إلينا ولكن لسنا معك في التفكير بالاستقالة، لن تذهب أنت ويبقى المشير عبدالحكيم عامر يحكم هذا البلد.
علت نبرة أبي ابراهيم. رفع يده محتجاً:
- لن نقبل... الليلة قبل الغد نتفق على ازاحة المشير والوجود المصري الذي أرهقنا وأتعبنا جداً!

قاطعه شوقي الدقاق كأن ثمة من لكزه. انتفض. قال:
- يا ليتهم يسمعون ما يقوله الناس عنهم وعن تصرفات ضباطهم.
حاول برهان أدهم ان يفتح فمه، فتعجل عبدالوهاب الخطيب الكلام:
- لا تخف... لا تخف تصلهم تقارير كافية تجعلهم يعرفون الشاردة والواردة.
بقي عبد الحميد السراج صامتا. تنحنح توفيق الحبوباتي، علامة الامتعاض والخرج. رشف بهجت مسوقي ما تبقى من فنجان القهوة دفعة واحدة. عب مروان السباعي دخان سيكارته. دخلت زوجته وخلفها فوزية الخادمة المصرية تحمل صينية القهوة تدور بها على الحضور. رمت مَلَكَ نظرة مستفسرة اهتز لها الحبوباتي فاعادته من نزهته في عيون الضباط الخمسة:
- ما رأيك يا أبا محمد بالذي يجري. عبد الحميد ينوي على الاستقالة والشباب لا يريدونه ان يُقدم عليها... واذا جاراهم فلا بد من الاطاحة بالمشير عامر واخراجه من البلاد.

انتظرت ان يفقي الحبوباتي بالامر. ان يقول كلمة يبدد حيرتها وقلقها وخوفها من ان يفقد «السلطان» جبروته. فهي كانت تثق بالحبوباتي كما كان زوجها يأمن جانبه ومحابيه. تملل توفيق الحبوباتي في جلسته. تمشت على ملامحه حيرة ممضة. تملص من الجواب الذي كانت تنتظره:

- إني على ثقة ان أبا فراس سيتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ونحن هنا لنقف الى جانبه كما وقفنا من قبل.

حبس الحبوباتي طرف فنجان القهوة بين شفثيه. ارتاحت اساريره. انتظرت مَلَكُ ان يضيف. سكت الحبوباتي، بقي نظرها يتزحلق على وجهه. نفضت رأسها وهي تمرر اصابعها بين خصلات شعرها. تنبه عبد الحميد السراج الى ان كل العيون قد تجمعت على وجهه:

مصريا . ما هكذا ظنتنا . صار كل ما أنجزناه وعملنا له وحققناه انتاجا مصريا لا فضل لنا به ، في حين ان المصريين لا يفقهون من أصول الاحوال المدنية شيئا . لا يعرفون ماذا تعني تذكرة الهوية . منذ قيام الوحدة دللناهم على الطريق . علمناهم تنظيم حتى سجلات القيد . هم استفادوا منا . نحن أعطينا وما أخذنا شيئا . وفي النهاية حولوا «الوحدة» الى احتلال . هذا امر لا نقبل به
انتشى عبدالحميد السراج بكلامه . كأنه فرغ من خطبة عصماء . طاف بنظره على وجوهنا . تركنا وعاد الى الشرفة وحيدا . . .

- ٢ -

صار بيته في شارع الجاحظ بدمشق ، يعج بالناس ، بعدما كان مقتصرا على قلة مختارة . لم يبق معه الا «القوميون العرب» . البعثيون تخلوا عنه . انتحوا جانبا . وزراؤه العسكريون [اكرم الديري . طعمة عودة الله . جادو عزالدين . جمال الصوفي واحمد الحنيدى] اختلفوا معه واحتكموا الى المشير عبدالحكيم عامر اولا ثم الى جمال عبدالناصر .

كانت الاجتماعات تتواصل في بيته ليل نهار . يحضرها ممدوح رحمون ، ثابت المهاني ، هاني الهندي ، محمد خليفة ، جهاد ضاحي وغيرهم . . . من دعاة «القومية العربية» ، الى جانب من بقي يواليه من الضباط والاعوان ، القابضين على جهاز امه . حاول هؤلاء ثني عبدالحميد السراج عن الاستقالة واقناعه بمقابلة جمال عبدالناصر برفقة المشير عبدالحكيم عامر وفض خلفه مع المشير .

رضخ السراج . فالخيارات امامه كانت قليلة ، وقد شعر ان جمال عبدالناصر بدأ يضيق ذرعا به والمشير يوغر صدر الرئيس ضده .

ليلتها . كنا زوجتي وأنا ، في زيارة السراج ، لما أخبرنا عن قبوله السفر الى القاهرة برفقة المشير عامر والوزراء العسكريين الخمسة للاجتماع بالرئيس جمال عبدالناصر . بدأ الوجوم على وجه مَلَك . تكمش الخوف بصوتها . خرجت الكلمات سريعة من فمها :

- ماذا لو قتلوك؟

اعادته كلماتها الى صوابه . اهتز حنقا :

- لن يفعلوا . . . لن يفعلوا .

هيمن الامتعاض على قسماط وجهه . ضيَّع نظرة حق في أعمدة جديدة تَمَلَّك صفحاتها بين أصابعه . التفتت اليه :

- لماذا لا . . . انهم اولا واخيرا ضباط استخبارات .

تمهلت . وقفت . مشيت الى حيث كنت اجلس . ربتت على كتفي :

- خذ غسان معك .

ارتاحت . ظنت انها وجدت ضالتها . امتقع وجهي . رددت كلمة أحسست انها ستكون بذئثة . تولاني الامتعاض . امتزجت الافكار في رأسي ، قلت في سري : «لم أكن في الاول كي أكون في النهاية» . . . وان كانت رغبتني جامعة لمشاهدة هذا الجلال الاحمر يتلاشى ويتضاءل أمامي .

رميت نظرة عجل على وجه زوجتي . تمرد الكلام على سطوتي على لساني :
- أنا . . . معاذ الله لا أصلح لهذه المهمة . لا دخل لي بها ولا شأن . فليذهب شقيقك أحنف فهو عضو في «الاتحاد القومي» . . . او . . . فليذهب معه شقيقك زهير .

حول نظره عن وجهي لما رأي اتملاه . قلب شفثيه . لم يعط جوابا .

كان الليل الخريفي قد أخفى نجومه خلف الغمامات السود . جثت على مدرج مطار المازة طائرة DC6 فتحت الباب عند خاصرتها . دخلها السراج والمشير عامر والضباط الخمسة .

دارت محركات الطائرة . ارتفع جسمها الثقيل عن الارض رويدا . . . رويدا . طواها الليل خلفه .

بقيت ملك وحدها تنظر الى المدى الاسود ، كأنها كانت تعرف ان ليلتها كانت نهاية الحقبة السراجية في بلاد الشام .

- ٣ -

كان «الرئيس» يثق به . سلمه مسؤولية وزارة الداخلية منذ اليوم الاول لقيام «الوحدة» . فاستغل عبدالحميد السراج ثقة صاحب مصر ليتمكن من الاستئثار بالحكم .

ولقد وجد السراج نفسه ، في التشكيلتين الحكوميتين الاولى والثانية ، محاصرا بعناصر تنتمي الى قواعد واتجاهات حزبية لم يتم يوما اليها . فأخذ في الخفاء يعمل على التصدي لها ، وتأليب عبدالناصر ضدها ، فاذا ماتصدي له الرئيس استفاد «السلطان الاحمر» وعزز مواقعه وبقي خارج صراعها مع عبدالناصر مع انه هو محركه والساعي اليه .

وقد برع عبدالحميد السراج في أداء هذا الدور حتى في تشكيله لجهاز المباحث والاستخبارات . اذ ضم اليهما عناصر من الانتهاآت السياسية كافة ، وعاد بعد ذلك الى احكام سيطرته على تلك العناصر وتطويعها لارادته ورغباته بطرق ملتوية . فالشيوعي عبدالوهاب الخطيب ، الذي كان تعيينه في الاصل لارضاء الشيوعيين ، تحول الى اداة طيعة بين أصابع السراج بعدما أخذ عليه مستمسكاً وهو تورطه [كما مر معنا] في تصفية فرج الله الحلو .

عبد الحكيم . حوله السراج الى جلاد امين يأمره فيطيع ينهره فيرعوي ويسكت .
فلقد سبق له عبد الحكيم ان اتهم بالاعتداء على الاعراض في مدينة حمص فحفظ
السراج ملف القضية واستعمله سلاحا كان يهدده به باستمرار ان هو خالف
وعصى . . .

ولم يكن وضع فوزي شعبي افضل من وضع عبد الحكيم ، فلقد كان شعبي
متهما بفض بكاره احدى الفتيات اليافعات ، أحيل على التحقيق . ضغط السراج
على المحافظ عبد المجيد تجار . طوي ملف التحقيق . وقع فوزي في قبضة
السلطان . استزلم له .

بعدهما استحكم السراج . بجهاز الامن ، مد سلطته وسلطانه على ما سمي بـ
«الاتحاد القومي» الذي شكل في حزيران (يونيو) ١٩٦٠ . فعين سكرتيرا عاما للاتحاد
على مستوى الجمهورية العربية المتحدة ورئيسا له في الاقليم الشمالي . فشكل جهازه
من عناصر تواليه وتنفذ مآربه وسياسته . واستعان بجهاز الاستخبارات لترسيخ تلك
السيطرة . يعتقل من يعترض ويعصى ويتمرد ويهدد كل من لا يوالي ويقر ويعترف .
بسلطة السلطان .

ومن أساليب السراج في تسلطه على «الاتحاد القومي» ، انه كان يعتمد الى تشكيل
وحدات او قيادات «سرية» غير الوحدات المنتخبة او المعنية رسميا . فكان يقوم
بتوجيه تلك الوحدات السرية لتنفيذ ما يخالف الذي كان يصدر عن الوحدات
المنتخبة او المعنية وما يرضي ويشبع نهمه وطموحاته في ان يكون الحاكم المطلق في
الشام .

فما توانى ، فيما بعد ، عن استعمال تلك التنظيمات السرية في خلافه مع المشير
عبد الحكيم عامر . ثم ضد جمال عبدالناصر نفسه ، عندما وجد ان الرئيس قد قلص
سلطاته ونصب عليه المشير عامر رقبيا وحسبيا . فحرض على تنظيم التظاهرات في
شوارع دمشق تهتف بحياته وتغمر بحجارة بعبدالناصر والمشير عامر .

وتم للسراج الانفراد بالسلطة في الشام . فامسك بقبضته الحديدية بالاجهزة
الامنية والادارية والسياسية والاقتصادية . . . فهو وزير الداخلية القابض على
جهازى الاستخبارات والشرطة ويده مفاتيح المحافظات وبه ترتبط اجهزة الاعلام
المسموعة والمقروءة والمرئية [صحافة . اذاعة . تلفزيون] فضة عن «الاتحاد القومي»
الذي كان بمثابة «الجهاز السياسي» الذي تتمحور حوله سياسة الدولة . وفي ١٦
ايلول (سبتمبر) ١٩٦٠ أصبح رئيسا للمؤسسة الاقتصادية التي أمت وقضت على
البقية الباقية من البنى الاقتصادية في سورية .

وقد تبين لي ، بعد تلك السنوات الطويلة ، ان السراج ما تمكن من ذلك لولا انه
لم يحكم الطوق حول عنق عبدالناصر . فهو كان على دراية بحكم رئاسته للمكتب

الثاني [الاستخبارات] بكثير مما كان يحاك ضد «الوحدة» وممسكا ، بلا ريب ، ببعض خيوطها . فناور وراوغ بهذه المعلومات ولم يعط صاحب مصر منها الا قدرا ضئيلا واخفى عنه الكثير . فاذا استجاب الرئيس لرغباته كشف هذه المؤامرات وانقض على أصحابها . كما فعل يوم الكشف عن «المؤامرة العراقية» ، وعن «المؤامرة السعودية» ! واذا ما تمنع عبدالناصر واعرض أو ماطل في الاستجابة لنزوات السلطان ، ترك الحبل على غاربهِ ، فيجد عبدالناصر نفسه في وضع العاجز عن السيطرة ، فيعود الرئيس يلبي .

وأميل هنا الى رأي صديق [متع الله بالعافية ورد غربته ، ابقى اسمه في الذاكرة] بأن عبدالحميد السراج ، عندما استقال كان يملك معلومات عن تحركات عبدالكريم النحلاوي وصحبه الذين خططوا للانفصال ونفذوه و... نجحوا . فأخفاها عن جمال عبدالناصر ، بعدما عرف ان نجمه في سماء صاحب مصر قد أفل .

- ٤ -

المعمورة [الاسكندرية] آب (اغسطس) ١٩٦١ .

بيته كان يغمس رجله بالبحر . أحب زواياه على قلبه ، الشرفة التي تفتح ذراعها للبحر.. على الطاولة أمامه ملفات كانت تلتهم الاوراق ولا تشبع فبدت متخمة . كان يفتحها بين الحين والآخر ينتزع ورقة . يقرأها من وجهه . يقلبها بين أصابعه . يعود يدفنها في الملف . يتناول أخرى . يضعها جانبا . ثم ينقل نظره في الجالسين من حوله . عبدالحكيم عامر عن يساره وعبدالحميد السراج عن يمينه ومن حولهم اكرم الديري ، جمال الصوفي . جادو عزالدين ، طعمة عودة الله واحمد الحنيدي . فقد استدعاهم الرئيس للاجتماع به بعدما استفحل الخلاف بين السراج وضباطه الوزراء وبعدها أخذ السراج يعرقل مساعي المشير في ضبط الاوضاع في دمشق .

فلقد بدأ التذمر من مسلك أجهزة السراج يصل مكتب المشير . وبدأ التمللمل الشعبي يحدث شرخا بين السراج وضباطه الخمسة ، الذين استجاروا بالمشير ضد السلطان ورفعوا مطالب عدة انحصرت بعدم حصر السلطات في يد «السلطان الاحمر» وبفصل الجهاز الاداري عن السياسي والاقتصادي . وفي اطار الامن الفصل بين الاستخبارات وأجهزة وزارة الداخلية وتوحيد استخبارات الاقليمين الشمالي والجنوبي تحت مظلة رئيس الجمهورية . وتبعاً لذلك كف يد السراج عن أجهزة الاعلام وجعلها تابعة لوزير اعلام اقليمي او تنظيم الاعلام على مستوى الجمهورية العربية المتحدة يتولاه وزير واحد . . .

امتص سيكارة . عب دخانها . نفثه في فضاء الغرفة . تتبع بعينه تموج الدخان

الرمادي . شعر بالضيق . أطعم صحن الدخان السيكرة . قطع على اكرم الديري
استرساله :

- منذ ثلاثة ايام ونحن نجتمع . سمعت ما يكفي ، وبات عليكم التضامن
والتكاتف لايجاد حلول مرضية لمشكلات دمشق .

سكت عبدالناصر . فهم عبدالحكيم عامر . أخذ الكلام عن الرئيس :
- عليكم ان تتدارسوا ما طرحه كل واحد منكم خلال الايام الثلاثة الاخيرة ثم
تتفقوا فيما بينكم على حل تعرضونه على الرئيس .

ساد صمت . تلاقت العيون . طوى احمد الحندي ورقة صغيرة دفنها في جيبه
سترة الداخلية . قطع الصمت همس السراج :

- أنا أفرغت جعبتي وليس عندي ما أضيفه . لقد بت أشعر اني متهم .
تغيرت ملامح جمال عبدالناصر . مشى الحنق اليها . قطب . ضرب كفه على
رجله :

- الجلسة انتهت . . . الجلسة انتهت .
انتصب واقفا . مرّ بعينه على الوجوه المندهشة من حركته العصبية ؛
- ارجعوا الى قصر انطونيادس . اتفقوا على حل . عودوا الى هنا الساعة السابعة
مساء ، فاذا لم تتفقوا على رأي ، فسأفرض عليكم الحل الذي أراه .
دخلوا عليه . وجدوه متجههم الوجه . رمى نظرة متثاقلة على وجوههم . تمهل .
تأثّق في مخارج الكلام :

- لقد وصلني نبأ مقتل هزاع المجالي تحت انقاض مبنى مجلس الوزراء الاردني . .
سكت . . مرّ على العيون . انتظر ردود الفعل . ارتسمت علامات الاستفهام .
دارت حيرى على الوجوه . أكمل الرئيس :

- هناك احتمال ان يقوم الملك حسين باستغلال حادث الاغتيال فيلصق التهم
بالجمهورية العربية المتحدة . وقد يشير بالاصابع الى الاستخبارات السورية .
تجمعت العيون على السراج . بقي صامتا . ارتاح عبدالناصر على أريكة وثيرة .
سرح نظره في فضاء الغرفة . أخذ نفسا طويلا . عاد الى الحديث :

- لقد تشاورت مع عامر . وقرأينا على تعيين عبدالحميد للمجلس التنفيذي في
دمشق . وابقاء الوزراء في مناصبهم ما عدا جادو عزالدين الذي ينتقل من وزارة
شؤون رئاسة الاقليم الشمالي الى الاشغال العامة .

تعجل في كلامه . فهم الجميع أن الجلسة قد انتهت . خرج «السلطان الاحمر»
من بيت الرئيس منتشيا بالنصر ، فلقد اعاد الرئيس له الاعتبار ودعم موقفه تجاه
الضباط الخمسة وولاه على بر الشام من جديد . فلقد كان مقتل هزاع المجالي
العامل الاساسي في تغيير موقف عبدالناصر منه . فلقد كان يعرف ان السراج دبر

الجاذب فما أراد عزله وتقليص صلاحياته مخافة ان تثار الشكوك حوله ، فيسقط معه لقمة سائغة في فم الحسين . وكان الغاء وزارة شؤون رئاسة الاقليم الشمالي ، يعني ابعاد المشير عن دمشق ونزع صلاحيات رئيس الجمهورية عنه مرضاة للسراج . وعاد «السلطان الأحمر» الى دمشق ليحكم ويتعبر من جديد .

- ٥ -

لما وصل عبدالحكيم عامر الى الشام خريف عام ١٩٥٩ كان الخلاف بين البعثيين وصاحب مصر يهدد الحكم بالاقليم الشمالي . اما يضرب البعث واما تطلق يده في حكم الشام . ولقد لعب السراج دورا بارزا في تشويه صورة البعثيين في ذهن عبدالناصر وأوغر صدره ضد قياداتهم التاريخية .

منذ البداية كان السراج يبيت للمشير المكائد في الخفاء ، في حين اظهر له في العلن كل الود والتعاون . فهو كان يعرف ان «البعث» لن يطيل اقامته في الحكم ففضل ان يكون خارج الصراع الدائر بين اكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار وميشال عفلق وبين جمال عبدالناصر .

... واستقال وزراء «البعث» في دمشق والقاهرة . فوجد السراج ان المشير بدا كأنه احكام المطلق والمراقب المتشدد ، الامر الذي نغص عليه امانيه وقضى على شهوته في التفرد بالسلطة ، فأعد العدة للتخلص من المشير . تقرب من عبدالناصر . حاول ان يظهر بمظهر الامين على تطبيق توجيهاته وبين الحين والآخر كان يبدي له امتعاضاً من تصرفات المشير موغراً صدر الرئيس ضده ، شارحاً له ان اخطاء عامر سببها انه لا يتفهم دواخل الامور في سورية . وطفق يحرك تنظيماته السرية في «الاتحاد القومي» لذر الرماد في عيون المشير ونشر النعرات الاقليمية محرضاً على التظاهرات في شوارع الشام للتنديد حتى بسياسة عبدالناصر تجاه الاقليم الشمالي .

والخلاف الذي كان مستترا ظهر الى العلن وبدأ يزعج عبدالناصر . . . لكنه كان يسكت على مضض وفي روعه ان السكوت ينقلد «الوحدة» على أمل ترتيب البيت السوري . . .

في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ بعد مرور اربعة اشهر على تسلم السراج المسؤولية «الكاملة» في الشام . استدعاه عبدالناصر . احتل به ساعات طويلة في بيته في منشية البكري . تسرب ان الرئيس انحى عليه باللائمة لتكاثر التدمير والفوضى في ادارة شؤون الاقليم الشمالي . وقد ظن الرئيس ان السراج متى عاد الى دمشق فانه سيغير من أسلوب حكمه . الا ان السلطان اخذ يعزز سيطرته على كل الاجهزة الادارية في دمشق والمحافظات . عطل «الاتحاد القومي» واستخدم سلطته على المؤسسة الاقتصادية ليمعن في ضرب الاقتصاد .

انقل هنا عن سمع ممن حضر اجتماع المجلسين التنفيذيين للاقليمين الشمالي والجنوبي، الذي انعقد في القاهرة في اوائل عام ١٩٦١ برئاسة جمال عبدالناصر، وخصص لعرض انجازات الوزراء، ان عبدالناصر استدعى السراج ووزراءه العسكريين بحضور المشير عامر، وقد بدا الامتعاض على وجهه مستاء من صمت السراج الطويل عندما جرى عرض فكرة تأميم المصارف في الشام اسوة بالقاهرة. فبينما اعترض حسني الصواف [وكان وزيرا للاقتصاد] واستقال. ووقف نور الدين كحالة موقف المعارض يأخذ عبدالوهاب حومد بيده... بقي السراج عندما سئل رأيه يلف ويحور ويدور ويقول كلاما غير واضح يتأرجح بين الموافقة والرفض. نظر اليه عبدالناصر. نهره بقسوة:

- عاوز أعملك إيه علشان ترضى. عاوز أعرف ايه اللي يرضيك. ما تقول وتخلصنا... انا قاعد مفتح وداني وعيني لكل همسة في مجلس الوزراء وانت ولا انت هنا... هي الامور ما تهيكش ولا ايه؟. امتقع وجه السراج. لم ينبس ببنت شفة. خرج عبدالناصر غاضبا، لحق به المشير عامر. وبقي السراج في القاعة وحيدا.

- ٦ -

وشكلت الحكومة الواحدة، بعد ثلاث سنوات على زواج الشام من القاهرة. صدر القرار الجمهوري بتشكيلها في ١٦ آب (اغسطس) ١٩٦١. أصبح السراج وزيرا للداخلية. أبعده عن الشام. جعل مقامه القاهرة. شعر عبدالحميد السراج وهو في القاهرة بضيق. فهو كان محاصرا قياساً لما كان يتمتع به في الشام. اقتصر عمله على تلقي التقارير فما عاد على تواصل مع أجهزة أمنه في الشام وابتعد عن الخلق من أعوانه وجلاديه! ضاق ذرعاً. اشتاق الى السلطة. عاد الى دمشق. وبدأ يخطط لاحداث القلاقل ضد حكم المشير في الشام. فاثار بين مؤيديه ان الحكومة الجديدة تهدف الى ابعاده لاحكام السيطرة المصرية على الشام. وانه وحده صمام الامان لمنع تلك الهيمنة. وحرص ضباط الاستخبارات على عصيان الاوامر التي أصدرها جمال عبدالناصر بنقل بعضهم الى القاهرة، بعدما كان تم دمج جهازي الاستخبارات في الاقليمين. فقد فسر السراج لهؤلاء قرار عبدالناصر بأنه توطئة لتسريحهم ثم احوالهم على المحاكم العسكرية، فما كان من عبدالناصر الا أن أرسل المشير عبدالحكيم عامر ليوقف على حقيقة التمرد.

كانت تنتظر عامر في الشام موجة استنكار عارمة نظمها اعوان السراج. وبدأ التنظيم السري في «الاتحاد القومي» يحرك الشارع ضد عبدالناصر، ثم ينظم

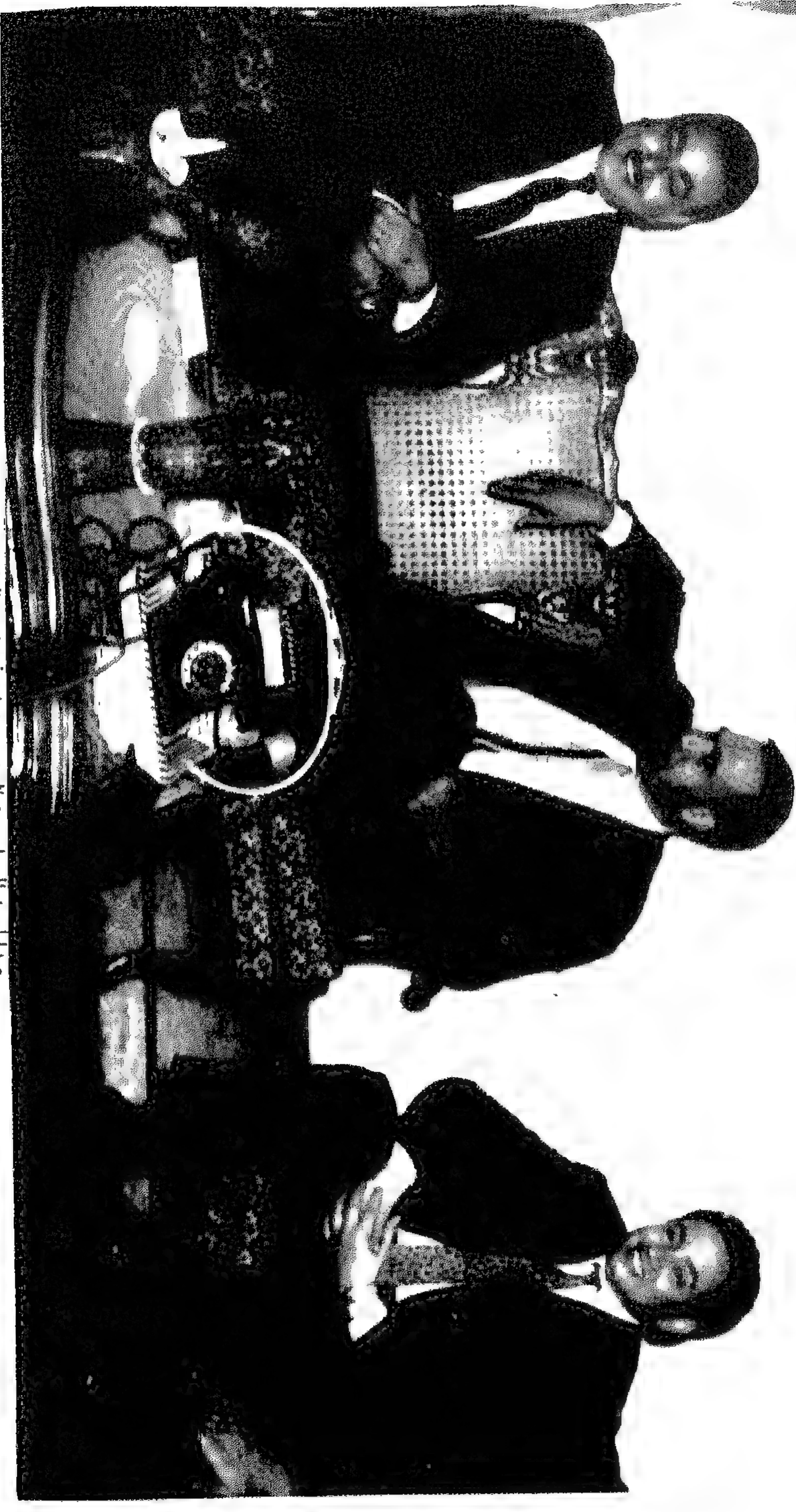
الاضرابات المفتوحة في غير مرفق من مرافق دمشق الاقتصادية الحيوية .
حاول المشير ان يثني «السلطان الاحمر» عن غيّه . لكن السراج اظهر تمنعا في
بادىء الامر، ثم لجأ الى الحيلة وسياسة المراوغة والمساومة التي برع بها . فآخذ يتنصل
امام المشير مما حدث في دمشق والمحافظات من بلبلة وفوضى وتخريب واضرابات .
ثم أخذ يدافع عن تمرد ضباط الاستخبارات الذين ظنوا ان نقلهم يعني تسريحهم
ومحاكمتهم . ثم عرض على المشير عدة مطالب، ولما وجد ان عامر ليس بوارد
الانصياع والمساومة عاد الى تحريك الاتباع والاعوان ونشر الفوضى والبلبلة في
الشارع الدمشقي .

وما كان من المشير الا ان اعطى الاوامر لوححدات من الجيش السوري تواليه ،
فاغلقت مقر «الاتحاد القومي» ثم أمر باعتقال الضباط المتمردين . فانصاع بعضهم
بينما فر بعضهم الآخر الى لبنان مثل عبدالوهاب الخطيب ومروان السباعي . . .
كان السراج يتكل في تصلبه ومقارعة وتصديه لعبدالعناصر ، على الجيش . ظن
ان شيئا قد يحدث في وحداته . انتظر ان تتحرك الدبابات . ان تصوب البواريد الى
صدر المشير . وبينما اعتبر ان سكوته على تحركات النحلاوي وصحبه ، التي كان على
دراية بها ، قد تفيده فيتحرك الجيش لانقاذه . . . ظلت الثكن هادئة . . . وساعة
الصفير أجلت . فانصاع السراج . وغادر دمشق بصحبة المشير الى القاهرة في ١٧
أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ .

- ٧ -

كان المشير ثالثهما . بقي عبدالناصر مقظبا طوال الجلسة . مقتضبا في كلامه .
أخذ في بادىء الامر يستوضح من السراج عن أسباب تحريكه للشارع الدمشقي
وتأليه ضده . تلمص السراج . انتحل الاعذار . انكر وادعى . قال : ان لا دخل له
بالتدمير الذي عم دمشق والمحافظات ، انما ما جرى كان «عفوياً» نتيجة نقله الى
القاهرة . اما مناقلات الضباط فقد اعتبر أنها موجهة ضده شخصيا ، لأنه كان
المسؤول عن هؤلاء الضباط . وطلب من الرئيس الغاء قرار النقل . رفض
عبدالناصر . تمسك بقراره . خاف السراج ان بدأت محاكمة ضباطه أن تنكشف
مؤامراته وتصرفاته وجوره وعسفه .

قدم استقالته . قبلها عبدالناصر فوراً . أعلنت في ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ .
استأذن الرئيس بمغادرة القاهرة فأذن له .
بعد ستة ايام . . . وقع الانفصال .



عبد الحميد السراج بين اثنين من زواره في دارته بالقاهرة

الفصل الثامن عشر

المزوب



٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ . بعيد منتصف الليل .

كان الضياء بدأ يخون الليل في سماء دمشق التي غقت على أمل نهار آخر . يداعب وجنتيها نسيم بارد فيه رائحة الخريف ، كان وحده يثرثر في الشوارع الغافية يلطم الحيطان العمياء من كل بصر الا الشبايك . يندس بين أوراق الشجر ، فتغنج له في انحناءات رفيقة تسمع حففتها . ثمة أصوات اقتحمت فجأة الصمت البليد المتمدد في الشوارع والأزقة . في البعيد رجع هدير محركات ، أعقبه إطلاق نار متفرق ، بدأ يتسع . الرصاص ينهمر من حيثما كان على حيثما كان .

انتفضت في فراشي . فتشت باصابعي المرتبكة عن الساعة بين الاشياء المكومة على الطاولة قرب السرير . لم أعرف كيف أدت المصباح الكهربائي وأنا أردد اسم زوجتي همسا أحاول ايقاظها . تولتني رعدة دعر . أحسست بانقباض تكمش في ملامح وجهي . وبحركة لا شعورية وجدت نفسي امام النافذة وخلفي زوجتي . مدت يدها الى الستارة تحسرها عن زجاج النافذة . رحت بعيني ارسم مساحة الشارع المقابل شبرا . . . شبرا . ثم أعلق نظري على المباني انزل عليها طابقا . . . طابقا علني استكشف ما يدور لحظات . أصبحت انوار المصابيح المنبعثة من الشبايك عناوين خوف في المدى الاسود . والعيون خلف الشبايك تغرس في الزجاج بنظرات مستفسرة . مضطربة . خائفة . أزيز الرصاص يخدش . الصمت يتطاير . شرره .

أزحت نظري عن الشارع . رميته على وجه زوجتي فصدمني الشحوب الذي مشى على قسائتها ، فهي مثلي علقت عينيها على نهاية الشارع المقابل لشارعنا حيث منزل شقيقتها ملك وصهرها «السلطان الاحمر» . غاص قلبها . عرفت ان ايام العز التي تطللت بها بمظلة أختها قد آلت الى زوال ، وهو أمر أراه في هذه الايام صعبا عليها ، لأنها وان لم تصبح ما أرادته في تلفزيون دمشق ، فبقيت فيه مذيعة لبرامج تافهة سخيفة لكتاب تافهين وسخفاء ، فيما كان طموحها ان تتحول الى منصب سبقتها اليه نادية الغزي ، قرينة المحامي نزار بقدونس ، التي استقطبت

اهتمام المثقفين السوريين والعرب لرفعة مستوى المواضيع التي تناولتها في برامجها . . .
هزني رنين الهاتف . خطفني من تلك الافكار المختلطة في رأسي . رفعت
سماعته . تلعثمت . طلع صوتي رخيا . كان صوت مَلَكٍ مزيجاً من الارتباك
والهدوء :

- هل سمعتم . . . هل سمعتم ؟ ماذا يجري . . . ماذا يجري ؟
فأجاني صوتها . اختلطت نبراتي مع دخان السيكرة التي كنت أمتص آخرها :
- سمعنا . . . سمعنا هل انتم بخير ؟
ارتعش صوتها . تسَّرت بنبرات هادئة :
- بخير . . . بخير . . . لكنني . . .
تمهلت . شعرت بالغىظ يتكشمش بمخارج كلامها :
- لقد أطللت من نافذة الغرفة على الحرس فما وجدت من الاربعين رجلاً الا
ثلاثة أحدهم رئيسهم الرقيب فاروق !
تلاطمت الافكار في رأسي . تكاثرت الاسئلة : ترى ماذا يجري ؟ أين حرس
«السلطان» الذين كانوا يمشون خلف ظله ، كلهم عيون عليه وعلى الناظرين اليه .
مسنونة تحرس والى الشام من شر مستطير او من غدر حتى ذوي القربى من ضباط
وأعوان ومناصرين ؟ لماذا تخلوا عنه ؟
ارجعني صوتها الى صوابي :
- هل أحنف [شقيقتها] عندكم ؟
- لا . . . لم نره الليلة ؟
تغيَّر صوتها ، انتابه قلق لفَّ نبراته :
- حاول ان تصل الى بيت والدي الأغا وجثني بدريد وصفوان وجوان [أشقاؤها
الصغار] أريدكم الى جانبي . . . حاول المستحيل حاول .
انتزعت زوجتي سماعه الهاتف . غرقت في حديث هامس مع شقيقتها . ارتجف
شيء في داخلي كان مزيجاً من الانقباض والراحة . تمتمت وأنا أسوي من ربطة
عنقي : لقد دنت الساعة التي كنت انتظرها . . . لقد دنت ساعة «السلطان
الأحمر» .

- ٢ -

لم يكن بيت الأغا علي زلفو بعيداً عن بيتي وبيت «السلطان الأحمر» . كان من
أملاك هاني الجلاد ، أحد رجال الصناعة السوريين الذين قارعوا الاستعمار الفرنسي
منخرطاً في صفوف «الكتلة الوطنية» . فاذا بجزائه ، انني وقد نجحت في اصلاح ذات
البين بين عبد الحميد السراج والأغا عمه قام «السلطان الأحمر» ارضاء للأغا

باجبار هاني الجلاد على تخفيض بدل ايجار البيت الكبير الضخم، من ستين الف ليرة سورية الى ستة آلاف فقط، وعلى اعطاء الآغا عقد ايجار مدى الحياة غير قابل للالغاء الامر الذي عانى منه هاني الجلاد ونجلاه فايز من بعده على مدى السنوات الثلاثين الماضية، الامر الذي جعله موضوع دعوى قضائية بين ورثة الاب والابن وبين آل زلفو.

لما سلّمت نفسي للشارع، كنت أمد الخطى مسرعا وأزيز الرصاص المتقطع يلف البيوت. قلة تجاسرت ونزلت الى الشارع. فالدمشقيون الذين اعتادوا على اطلاق الرصاص المفاجيء في العاصمة، يعرفون انه حين يتغير الحكم بين العسكر عليهم باخفاء رؤوسهم كي تبقى على أكتافهم...

كان الآغا يستر جسده الفارع بعباءة بنية اللون مقصبة عند الصدر بخيطان ذهبية. يحتسي فنجان قهوة مرة ويدير باصابعه الغليظة ابرة جهاز الراديو يحاول ان يلتقط من حنجرة المذيعين ما يمكن ان يرى فيه تفسيراً لما يجري في الخارج. ساعة لمحني استدار. وضع فنجان القهوة على منضدة امامه. سألني بعينه قبل فمه:

.. ماذا عرفت؟ لماذا أنت هنا؟ ماذا يجري؟

للمت اسئلته بهدوء. هونت عليه. عرفت ماذا يشغله. قلت له ان ملك مثله ومثلي لا تعرف ماذا يجري وانها طلبت مني الحضور لاصطحب صفوان وجوان ودريد اليها.

ارتاحت قسبات وجهه التي زحف العمر المديد اليها وترك على الجلد خطوطاً تجمعت تحت العينين وعلى الجبين والخدين.

عاد الى جهاز الراديو يدير ابرته من جديد، بينما كانت الخادمة تسرع في الباس الاولاد الثلاثة.

«مسكين الآغا»... لا أعرف لماذا تمت هذه الكلمات وأنا أغلق الباب خلفي. لم يغادر غيظي طوال الطريق. تنبّهت الى ان اذاعة دمشق لم تدع أي خبر عن أسباب اطلاق النار، وقد مضى عليه اكثر من ساعتين!

انسحب صوت نقيب المحامين والسفير السابق فؤاد القضباني هادئاً من فمه وهو يناديني لما مررت تحت شرفة منزله. وقفت. كان ابنه المهندس وليد القضباني اكثر ارتباكاً وقلقاً. طمرني بالاسئلة... كان يظن أنني أعرف ما لا يعرفه غيري. والسؤال خلف السؤال: هل دوي الرصاص له صلة بـ «عديلي» السراج من قريب أو بعيد؟ هل «هو» أم ليس «هو»؟ وهذا يعني في ذلك الزمان: هل كان عبد الحميد السراج يحاول ملكاً أو يموت فيعذر؟!

لعلع الرصاص. انقذني من أسئلة وليد القضباني ووالده السفير. أومات لهما.

هرولت مسرعا الى بيت عبد الحميد السراج ، مارا بقصر خالد العظم الابيض
ويمتزل الشهيد عدنان المالكي بمحاذاته ، ولم ترتج اعصابي الا لما رايت عن بعد
فاروق ، رئيس حرس السلطان ، يتأبط رشاشا خفيفا ، يزرع بخطوات ثابتة الدرب
امام باب المبنى . . . رميت نظرة عجل على الساعة في معصمي . كانت الرابعة
صباحا . افترت شفتا فاروق عن ابتسامة متطفلة . بادلتها مثلها . . . دخلت
المبنى .

- صباح الخير . . .

- أي خير . . . أي خير هذا . . ماذا يجري ؟

لَمْتُ مَلَكٌ شعرها بأناملها بحركة عصبية . دار نظري على الصالون أفتش عنه .
فاذا به جالس بهدوء على مقعد في صدره يمتص سيكارة يرافق بعينه دخانها الرمادي
الذي يفرج عنه من بين شفثيه . هز برأسه ساعة رأي . غدرتني ابتسامة لثيمة
انتصبت على شفثي . ثم عادت مَلَكٌ تشد انتباهي . اندفعت باستلها الى آخر
مدى :

- هل سمعت شيئا . . . من هم مطلقو النار . أضباط عبد الحميد ؟ هل ابو
ابراهيم [برهان ادهم] معهم ؟ أم أنهم فئة ثالثة تحاول الثار منا ؟
كادت عروق رقبتها تنفرو وهي تتكلم . عيناها تتسعان ، تكادان تقفزان من
عجزيهما . تملكني زهو وأنا أرى نملك المرأة تتحرق :

- لا أدري . . . لا أدري . . . لقد سمعت من ال القضبان ان بعض أصدقائهم
في شارع عدنان المالكي قد شاهدوا مع طلوع الفجر جنود البادية يلفون رؤوسهم
بكوفيات حمراء مرقطة . يهزجون ويصرخون . يمتطون مصفحات BTR يطلقون
نيرانها على مبنى الاركان العامة التي صارت وزارة الدفاع ، فيما بعضهم ضرب خيمة
في مواجهة المبنى . لعلهم جعلوا منها موقعا لقيادتهم . . .

كنت أشعر وأنا أتكلم ان أحنف زلفو كان يلتقط بانتباه كل كلمة اقولها بينها بقي
خالد يتلهى بطي ورقة صغيرة بين أصابعه .

وقف الصنم . تحرك . مشى نحوي . هَمَذَ . دار بعينه على وجوهنا . تملأنا .
اطلق سراح سيكارتته من حبس شفثيه . هوى بها الى صحن الدخان . عصرها
مرات . نطق الصنم :

- عملها أبو راكان . . . عملها أبو راكان .

نزلت علامات الاستفهام من عيوننا . تجمعت على وجه عبد الحميد السراج .

من يكون «أبو راكان» كدت أسأله فسبقتني مَلَكٌ .

سالت نظرة تهكمية من عينيه على وجه مَلَكٌ قال همسا :

- تعرفين الرجل جيدا . . . انه حيدر الكزبري .
ارتخت مَلَك على المقعد . انفرجت اساريرها . اطلق احنف ضحكة عريضة
وشت عن ارتياح ظاهر . وقف خالد أمام الشرفة . ازاح بيده الستارة واستدار يعلن
علينا :

- اذا كان الرصاص انقلابا فهو انقلابنا .
لقد كانوا يظنون ان المقدم حيدر الكزبري قائد قوات البادية هو في جيب
«السلطان الاحمر» .

شاركه احنف الرأي . ضجوا بالسعادة ، تمايلت مَلَك على مقعدها .
وحده بقي عبد الحميد السراج صامتا .



قرأت مجدك في الصحف وفي الكتاب
شام ما المجد أنت المجد لم يرغب

استبدلوا المارشات العسكرية بصوت فيروز . تركوا صوتهما يرتل قوافي سعيد
عقل . وليس أحب من صوت فيروز على الدمشقيين . فكيف اذا كان النغم سيالا
والشعر وهاجا يعيد الى السوريين شعورهم بالعزة القومية والكرامة الوطنية بعدما
غابت عنهم طوال سنوات «الوحدة» الممضة التي فرضها بعض سكان الجبال
والسهول الشامية على مراكز السكان وتجمعاتهم السياسية - الاقتصادية - الثقافية في
المدن الكبرى ، الذين تحولوا بفعل «الروبل» السوفياتي و«الدولار» الاميركاني وتعاليم
ماركس التي عرّبت ، وصيحات الثأر التي اعتبروها صفة للعروبة ، الى أسياد
وجلادين استأثروا بالحكم وتحكموا . هتكوا وعاثوا بالبلاد خرابا .

الشام استفاقت من النوم على صوت فيروز . هزها الحنين الى الحرية . ليس من
يعرف قيمة الحرية الا من عاش خارج دائرتها .

نزلوا الى الشوارع . حملوا البيارق . غسلوا وجوههم بأول أشعة الشمس . كانت
التهنئات تزويج في الشوارع والازقة للحرية والاستقلال الذي افتقدوه يوم قضت
مصالح موسكو وواشنطن وطموحات عبد الحميد السراج في الحكم والسيطرة
وشهوات حفنة من زملائه الضباط للتحكم ببلاد الشام وجعلها رهينة ما سمي
«وحدة» هي في الاصل مصطنعة غير علمية لا قدرة لها على الحياة والنمو
والاستمرار .

كانت الساعات تمر بطيئة . بليدة . بين طلوع الفجر وانتصاف النهار . كنت مشدودا الى المقعد يضج في داخلي شعور غريب . بعضه غبطة وبعضه قلق وارتباك . لم أزع سمعي عن جهاز الراديو . كل من حولي في صمت جنائزي . وخدها فيروز كان لها سطوة الكلام . مَلَكَ حاولت ان تبدد ارتباكها بتوزيع الاوامر على خادمتيها . خالد عاد الى الورقة الصغيرة يعلكها بين اصابعه حيناً ويتركها على المنضدة حيناً آخر . أحنف كان يرمي سماعة الهاتف من يده بعصبية كلما عصت خطوط الهاتف عليه . بينما بقي عبدالحميد السراج هادئاً . صامتاً . لا يتحرك من مقعده في صدر الصالون ، يكتفي بنقل عينيه على وجوهنا ما أن يعصر سيكارة في صحن الدخان حتى يتناول أخرى من علبة السكاير في جيبه .

أرجعت فنجان القهوة عن شفتي . بعد الفنجان الخامس يصبح مذاق البن علقماً . أحسست بانقباض لم أعرف تفسيراً له . سكتت فيروز . اعطت الكلام لمذيع تأنق في مخارج الكلام وهو يذيع البلاغ التاسع . . . فاذا ما جاء فيه يعيدنا الى نقطة الصفر ، فلا ندري وعبدالحميد السراج أولنا حقيقة ما كان يجري . . . فيها الاشاعات التي نقلها الينا محمود اليوسف ممثل شركة «التابلين» [شركة خط الانابيب الاميركانية عبر البلاد العربية] تؤكد بأن حيدر الكزبري لم يكن وحيداً في الحركة الانقلابية ، انما كان طرفاً رئيساً فيها كانت أطراف عسكرية أخرى تمارس ضلوعاً وحضوراً ومكانة للاطاحة بالوجود المصري السياسي والاداري وحتى العسكري المحدود . . .

في تلك الساعات الطويلة الحاسمة كنت أرقب عبدالحميد السراج . أراه يتضاءل أمامي . أغرق عيني في عينيه . أحاول في المحنة ان أتبين فيه «رجل الدولة» الذي تقمصه ايام سطوته وقمعه فلا أرى الا الدركي الذي استمرأ الابهة والمناصب فاشتراها بالاستزلام والدهاء والختل والدلس . ويغيب عن ناظري الرجل الرجل الذي لا يهين امام الملهمات ولا تلويه المحن ولا يتورع عن مجاهدتها بعزم وثاب . كنت وأنا أعلق نظري عليه أحاول أن أقرأ في تصرفاته وتحركاته تصرفات وتحركات «القائد» الذي ادعاه وأوهم الناس به على مدى سنوات ست منذ سقوط عدنان المالكي شهيداً على منصة ملعب كرة القدم . فلا أفهم مما أقرأ سوى رجل يجلس في صحن داره حسيماً كليلاً تغيطه الخيبة . صنماً صامتاً . ماهراً بالمكر والخنوع والاستزلام والتآمر والتجسس والجلد والتعذيب والقمع والتسلط ، خائباً في مواقف الرجال الرجال .

ما لوحت الشمس بالمغيب حتى بدأت تتكشف غوامض المحاولة . وما انغلق علينا انفتح امام عيوننا .

فلقد كانت المساومات والمناورات تدور سنجالاً بين الخيمة التي نصبها حيدر

الكزبري أمام مبنى الأركان العامة وبين من كان في داخله من «مشير» وكبار ضباط مصريين و«بعض» سوريين أصروا على استمرار رهن بلادهم بثلاثين من فضة .
عبد الكريم النحلاوي الذي كان «الرأس المدبر»، و«العقل الفطن» للحركة التحريرية لا الانفصالية كما تسمى خطأ، نسجل له محاولته كما نسجل عليه أنه وبمجموعة ضباطه الدمشقيين قد وهنوا وضعفوا في ساعات انتصارهم الأولى على الاحتلال المصري، فإذا بهم يؤخذون بـ «هبة» عبد الحكيم عامر، الذي أصبح «مشيرا» وهو لم يخض معركة ولم يقاتل في حرب . . .

تخاذلوا أمام عبد الحكيم عامر. ارتضوا أن يصدروا البلاغ التاسع. قبلوا أن يعيدوا الأمور إلى نصابها. رضخوا لتهديدات جمال عبدالناصر التي جاءتهم عبر الهاتف. هرعوا إلى محطة الإذاعة المواجهة. أعلنوا للسوريين أن الأمر قد سوي وأن «الرئيس» ما زال القائد الأعلى لما سمي بـ «الأقليم الشمالي» في حينه .

إلا أن عبد الكريم النحلاوي لم يكن مسيطرا على الموقع بكامله فانتفض عليه بعض الضباط الرافضين لوجود واحتلال وسيطرة مصر. فما أن عاد إليهم وهم جلوس إلى أجهزة استماعهم يسمعون البلاغ التاسع، حتى انتفض الضباط فخري عمر واستل مسدسه موجهها فوهته إلى رأسه وصرخ بالنحلاوي والضباط المجتمعين: - إذا لم ننجح في إنهاء الوجود المصري في سورية انهونا واحدا واحدا، فإذا كان هذا هو قراركم فأنا سأطلق النار على رأسي وليسجل التاريخ أن في الشام ضابطا حرا يرفض الاحتلال والذل والعبودية.

ساد الصمت بين المجتمعين . بقي فخري عمر رابط الجأش . لم يزح فوهة مسدسه عن صدغه . نقل نظره الحاد على عشرين وجها من حوله . بدأ الضباط يقفون الواحد بعد الآخر . شكلوا مجلسا عسكريا طرح على التصويت شأن الرضوخ للحاكم المصري أو الاستقلال عنه . فإذا بالأغلبية تنتصر للرأي الأخير، وإذا بالسوريين يسمعون من اذاعتهم البلاغ العاشر الذي أعلن سفر «المشير» عبد الحكيم عامر والضباط الوزراء السوريين الخمسة إلى القاهرة وإغلاق الحدود والمطارات والموانئ والدفع إلى ما يثبت حضور الحركة التحريرية الاستقلالية العسكرية التي قامت و . . . انتصرت .

- ٤ -

بدا لي عبد الحميد السراج وهو يسترد نفسا طويلا إن الزمن قد غافله وسرق شيئا من قدرته وجسارته وسطوته وأنه أصبح وحيدا ، قليلاً . هو الذي كان إذا التفت إلى من حوله من الناس، فإذا الجميع يلوون أزاءه الرقاب وقد وثقوا بكونه لا شريك له، هو الحاكم والوالي المطاع . يرى في بلاطه المريدين والأصحاب والمتزلفين

المنتفعين الطامعين الطامحين في الحصول على رضاه .

كان يبحث في وجوهنا عن الاطمئنان على انه ما زال «السيد» و«السلطان» .
تتعلق نظراته على حفنة من القوميين العرب ، لم يتركوه لحظة .آثر الانكفاء [بينهم هاني
الهندي . جهاد ضاحي . ممدوح رحمون . ثابت المهيايني . مأمون طباع . . .]
يستنجد بهم على غدرات الزمن . يستغلهم كما استغلوه . فلقد كان هؤلاء يأملون
ان يكون عبد الحميد السراج لهم موطىء قدم في بلاد الشام على ضحالة فكرهم
وقصر نظرهم ومحدودية حجمهم وضعف امكاناتهم .

الا ان عبد الحميد السراج في قرارة نفسه كان يشعر انه أصبح متروكا . ما عادت
عناصره متسللة الى أصحاب القرار العسكري الجديد في دمشق . ضباط استخباراته
ما عادوا في الجيش . قدرته العسكرية مكلولة معدومة .

مهيّب الهندي . قاد دباباته من معسكرات «قطنا» ليحاصر الاركان العامة
والتلفزيون . حيدر الكزبري دفع بعرباته المدرعة ليحاصر طرفا آخر . موفق
عصاصة سيطر على سلاح الجو ومطاراته وثكنه من جبال طوروس الى حدود الرمتا
الاردنية . كاظم زيتوني احكم قبضته على سلاح البحرية واستعد لمجابهة اية عملية
مصرية على الاراضي السورية . فما خاب ظنه . قام المصريون بمحاولة انزال للقضاء
على الحركة التحريرية فسقط الضابط المصري جلال الهريدي في الاسر مع ٤٠٠
مظلي رمتهم طائرات مصرية فوق الشاطئ السوري . وما كان أمض على «الرئيس»
من أن يشاهد السوريون على شاشات التلفزيون احد قادته يكاد يبكي ويستغيث
بالرحمة والرافة ان يعتق من الاسر مع عسكره لأنه جندي ينفذ أوامر قيادته ليس إلا

★ ★ ★

٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

لم تسمع ملك جلبة الحراس . ما أتاها فاروق ، رئيس الحرس ، بجرائد الصباح
كعادته . دست نظرها في شارع الجاحظ ، فرأته خاليا من الحرس . توجست شرا .
تكتمت . لم ترغب ان يعرف زوجها . انسلت خارج الشقة . نزلت الى المدخل ، فلم
تجد فاروق ولا الحراس الثلاثة الذين بقوا معه . فلقد حملوا بنادقهم وتركوا
«السلطان» وحيدا . . . بلا حراسة .

خافت عليه من الناس . التظاهرات كانت ما تزال تنشر الغضب في الشوارع .
الاشاعات كانت تلف بيت عبد الحميد السراج من ان جمهرة من المضامين من جوره
وعسفه ، ومن الذين اذاقهم خلال تسلطه وسطوته صنوف التعذيب والجلد ،
وكواهم بسياخ النار ولدعهم بالكهرباء حتى الموت ، سيصعدون اليه . سيرمون به
الى الشارع . سيربطون ذراعيه الى سيارة تسجله في شوارع دمشق . واذا ما نجا من
غضبة الناس فانه لن يسلم من قبضة الضباط الذين عانوا الامر من خلال ايام

حكمه . رصاصة واحدة تخرق صدغه . ونعيه خبر صغير في زاوية عمود في جريدة شعبية !

كان عند سماعه هذه الاشاعات يلبس وجهاً آخر . يخفي تحته خوفه ورعده . غرق في الصمت . كان يحكم اغلاق نوافذ غرفته كي لا تصله أصوات الناس . طرحت مَلَكُ الصوت ، تنادى مجلس العائلة الذي ضمها وشقيقها اخنف وشقيقها من ابياها زهير وزوجته اسيمة مالك - [التي كانت ربيبة جلادت بدرخان الزعيم الكردي المشهور الذي كان رائد المطالبة بقيام دولة كردستان في الثلاثينات والاربعينات قبل ان يتوفاه الله تاركاً زوجته روشن التي كانت تزوجت من المهندس عمر مالك فطلقها قبل ان تلد منه ابنتها فرييت البنت اسيمة في منزل زوج أمها الثاني جلادت بدرخان فتشربت منه القومية الكردية وباتت بعد دخولها الحزب الشيوعي تحمل لواء القومية الكردية . وعندما تزوجت زهير زلفو شقيق مَلَكُ اصبحت تدخل بيت السراج وتحظى منه باهتمام وتلقى لديه آذانا صاغية] - وقر الرأي ان يهرب عبدالحميد السراج . ان يترك البيت الذي حكم منه الشام ست سنوات طويلة ، وان يلجأ الى مكان يبقى سرا . لقد دار الزمان دورته . والذي أذاق الناس ذل الهرب والتخفي والتلطي . أصبح شريدا . طريدا . هاربا . مطلوباً من الناس و . . . العسكر .

- ٥ -

هدير العربتين المدرعتين وحشجة محركيهما سبقاهما الى الشارع . كان الصوت المتناقل الذي يقتحم صمت الليل ، يقترب من البيت . مسامير أحذية الجنود كانت تحدث اصواتا غريبة على الاسفلت . والدعسات المتلاحقة كانت تطوق منافذ الشارع . توجهت زوجتي ريبة . قمت الى النافذة امد نظري الى حيث كان الهدير وجلبة العسكر . فاذا بعربتين مدرعتين تقفان امام العمارة ثم ينزل من سيارة سوداء اللون ضابط ضخم الجسم عريض الكتفين لم أتبين ملامحه جيدا ، يخفي شعره الكث تحت عمرة حمراء اللون يعتمرها عادة ضباط الشرطة العسكرية . يأمر الجنود ان يتوزعوا يمنا ويسرة . يدخل العمارة وخلفه ثلاثة جنود يحرسونه . ابتعدت عن النافذة رميت نظرة عجل على وجه زوجتي فاذا بملاحها قد تغيرت وارتعدت أوصالها .

- الشباب وصلوا الينا .

قلت وانتظرت مع دقائق قلبي دقائق الباب .

انتصب أمامي . بانت ملامح وجهه . استجمعتها في ذهني . بانت أليفة . . .
- ماجد برتو . . . ماجد برتو أليس كذلك؟

ملأت الدهشة وجهه . لم يجب . اكتفى بهز رأسه . أمامي شريط صور متسارعة .
هذا الرجل المنتصب أمامي يبرزه العسكرية كان زميلي في الصفوف الابتدائية .
افترقت عنه يوم التحق بالجيش والتحققت انا بالجامعة لدراسة التاريخ . شقيقه
الاصغر كان رفيقي في الحركة السورية القومية الاجتماعية . لكنني وقد باعدت بيننا
الايام ما عدت التقيته . هو كان في موقع السلطة وانا كنت في موقع المعارضة .
وتتابعت الصور . . . ماجد برتو يا الله أليس هو المتهم مع العقيد ابراهيم الحسيني
بقتل العقيد محمد ناصر ، أمر سلاح الجو ، وامضى على زمن اديب الشيشكلي
شهوراً في سجن «المزة» العسكري الى ان ثبتت «براءته» فأعيد الى صفوف الجيش
يتدرج في الرتب من رقيب الى ملازم اول . . ؟

- نعم انا ماجد برتو . .

سحب صوته الرخيم دفع الصور في غيظي :

- ماذا تفعل هنا؟ . . . لقد قالوا لي ان أزور عديل عبد الحميد السراج لاقتش
عنه . . . لو عرفت انك هو لما كنت زرتك بهذه الطريقة . لكنت . . . لكنت اكتفيت
بالاتصال بك هاتفياً

أوما الى الجند فخرجوا .

جلس . تحدثنا . تذكرنا . كنت اعتقد ان ماجد برتو وشقيقه ينتميان الى عائلة
شركسية . فاذا بي بعد تلك السنوات الطويلة اسمع من يقول لي انه ليبي الاصول
والجذور وانه صار ثرياً ورجل أعمال ناجحاً يملك قصراً مهيباً في ماربيا الاندلسية .
سألني عن عبد الحميد السراج . قال ان معلومات الشرطة العسكرية انه ترك
منزله وهرب . وهو مطلوب للتحقيق في الاركان العامة . لم اخفه انني لا اعرف مكان
تواري السراج . دارت نظراته في البيت بسرعة كأنه لم يصدقني . فبادرته طالبا ان
يفتش البيت غرفة . . . غرفة .

رسم على وجهه ابتسامة . ضغط على يدي :

- أصدقك . . . أصدقك . لكن المقدم فخري [عمر] يريد الاجتماع بك على أي
حال . سأمر بك غدا صباحاً لاصطحبك اليه ، وآمل ان يحضر معك خالد زلفو
شقيق زوجتك .

بلعت ريقاً تجمد في حلقي . امتقع وجه زوجتي ، فسترت عن ماجد برتو ارتباكها
بابتسامة تحايلت بها على شفيتها . عب آخر نفس من سيكارتة . عصرها في صحن
الدخان . قام الى الباب ، وهو يضغط على يدي .

ابتسم . . . تلامحت ابتسامة باهتة على شفقي .
- سامر عليك غدا إذن . . . لا نريد ان نتأخر على المقدم «موهيك»؟

(١) - راجع «سجون البحث» .. مجلة «سوراقيا» العدد ٣٧٤ عام ١٩٩٠



عبد الحميد السراج بعد وصوله الى القاهرة في اول مقابلة صحافية له مع جريدة «أخبار اليوم»
تحتها من فترة اعتقاله في سجن «المرزة»

الفصل الرابع عشر

اعتقال السلطان



- ١ -

ردت ستائر الشباك الليل عني . همت بين دفتي كتاب . في العادة اسافر على متن الكتب الى مطارح بعيدة يرسمها كاتب جُن مرة بالحبر، يحدها الكلام شرقا وغربا شمالا وجنوبا، وناسها احرف سود لا تعرف التمييز العنصري والتفرقة والتسلط . الا تلك الليلة . فلقد عصت السطور عليّ . رفضت اعطائي تأشيرة خروج من عالمي المتهالك المليء بالاحقاد والعنف و . . . الموت الى دنياها الخيالية المريحة الواسعة . توسلت . ازحت الكتاب عن عيني . اغمضتهما . شيء ما كان يلكنني ، فأعود اليه . أغرس عيني في صفحاته . نبرات صوت ماجد (برتو) شاكر تطن في أذني . يقفز وجهه أمامي . يزيح السطور . يفتت الحروف السود ليطل منها : «سأمر بك غدا . . . لا نريد أن نتأخر على المقدم موهيك» .

المقدم . . . المقدم . ترى ماذا يريد؟

فخري عمر . قاومت ذاكرتي . غرقت في لحظات مغموسة بالوجوه التي أعرفها . استحضرت وجه فخري عمر من بينها . امسكت به . لن أدعه يفلت الآن . عرفته فلقد كان صديق والدي وعضوا في الجمعية الشركسية التي كنت انتمي اليها ايضا . . . الآن عرفته . بيني وبينه أحاديث ونقاشات وود .

ارتحمت . أخذت نفسا طويلا من سيكارة نسيته برهات تكتوي بنارها في صحن الدخان . فخري عمر . أترأه نسي . أترأه لا يعرف ما كان من أمر عبد الحميد السراج معي حتى يطلب استدعائي؟

ارتعش داخلي فجأة . استولت على فكري الظنون . طافت على لساني كلمات كنت أرددها مرارا : «لا تثق بالعسكر . . . لا تثق بالعسكر» .

في النهاية فخري عمر «عسكري» ، وصل الى السلطة في انقلاب لم يستتب له الاستقرار بعد . السلطة في بلادي تحول الحروف الى ذئب . ثم ان المقدم فخري عمر صار رئيسا للشرطة العسكرية ، وهو المسؤول عن اعتقال الناس والتحقيق معهم قبل رميهم في سجن «المزة» العسكري الرابض فوق الهضبة المشهورة ، منذ

صنع منه الفرنسيون عام ١٩٣٢ حصنا منيعا لاعتقال احرار الامة وحرائرها.
سجن «المزة». مرت امبامي الصور متلاحقة. متلاطمة. سمعت همس
عبد الحميد السراج: اعتقلوا. عذبوا. مداهمات. اعتقالات. غمرتني الاصوات.
عنين السياط التي تصفع الهواء قبل ان تنزل على الاجساد المتورمة المشقوقة. جعير
الجلادين وسبابهم. انين الموجوعين تحت السياط واسياخ النار ولسعات الكهرياء.
وخزة السكين في الجلد والعظم لتقتلع الاظفار. احسست بالتقيوء. طرزت جبيني
حبيبات عرق باردة. شعرت بحاجة الى الزعيق. كتمت صوتي. ضاقت انفاسي
على صدري. قمت الى النافذة. دسست وجهي فيها. لطمني نسيم فيه رائحة
الخريف.

السكون الذي يغمر دمشق اعادني الى صوابي. وحده مواء القطط التي تلتطم،
بتنك الزبالة في الازقة المهجورة يسمع من بعيد. نوم دمشق ثقيل.
ارتحيت على المقعد. تراجعت الافكار السوداء من رأسي. تنبعت الى ان القلق
لم يحاصرني هذه المرة. بدأت رويدا. . . رويدا استرجع الشعور بالراحة والثقة
الذي تملكني منذ فجر الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) ١٩٦١. فلقد كنت
اعتقد انه مع انحسار الهيمنة المصرية وزوال الوجود المصري الاداري والسياسي
وحتى العسكري، انقشعت الغمامات السود التي كانت تعد بهبوب العاصفة.
وانتهى عهد التسلط والارهاب بانتهاء عبد الحميد السراج وأعوانه. . . وبدأ
الانسان السوري يسترد خريته واستقلاله.

ثم إن بعض الذين قاموا بالحركة الانقلاية المسلحة كان من زملاء دراستي
الثانوية:

محمد الموصللي، كان رئيس فريق «الفتوة» لكرة السلة الذي كان في عداده مع
شرف الدين الزعبلوي وننافس في فريق «الوليد» المجاور له بشارع الروضة. مهيب
الهندي كان زميلي في السنة الاولى الاعدادية. هشام عبد ربه [الذي كان لفترات
معاوننا لعبد الحميد السراج] كان يشاركني مقاعد الدراسة الابتدائية وبعض
الثانوية. عبد الكريم النحلاوي يتقدمني في السن ولكنه ما كان يسبقني بغير عام
دراسي واحد في المرحلة الثانوية. موفق عصاصة ما كنت اعرفه ولكن كان لي في تكن
سلاحه الجوي اكثر من صديق وزميل دراسة ورفيق فكر وعقيدة.

لكنني على الرغم من ذلك كله، فاني لم اكن اعرف اين يقف «الشباب» في
حركتهم الانقلاية. فايز الرفاعي، [الذي تملك منذ عشرة اعوام سوبر ماركت في
مونتريال بعدما عينته الحكومة السورية قنصلا فخريا لها في كندا]، كان يصغرن في
السن، لكنه حين ارتدى البزة العسكرية، ووضع على رأسه القبعة الخضراء رمزا
لسلاح المدرعات ضاع عني، ما عدت اعرف عن تطوره الفكري شيئا. فما كنت

اعرفه عنه شغفه بالحركة النازية . فقد كان يكثر الحديث عنها ويطيل عندما كنت التقيه مع شقيقه الاكبر منيب . فهما ، مع وليد الكزبري ، [المهاجر الى كندة هذه الايام] ، ومنذر الميداني وممدوح رحون وبرهان سكري وغيرهم . . . شكلوا ذات يوم شبه حزب نازي ، وقد بلغ فيهم ولعهم بزعيم الرايخ الثالث ادولف هتلر ان حلقوا شعور رؤوسهم على طريقته واخذوا يحبون بعضهم البعض برفع اليد كما كان يفعل الزعيم الالماني .

ضباع فايز الرفاعي عني . اصبحت واحدا من العسكر . وأنا صرت في الجانب المدني . لكنه كان كلما التقاني يرمي السلام علي بود ومحبة محترما أفكارني المناقضة لتسلط العسكر على السياسة والتحكم بالسلطة . ابادله السلام بمثله مع الود والمحبة . فليس سهلا ان تنفك عاطفيا عن عايشتهم وعائشوك نيفا وخمسة عشر عاما .

«أمس ميت في غد مولود» . . . قفزت هذه العبارة الى رأسي : همدت . حاولت ان اتذكر في اي كتاب قرأتها . نسيت . لم أعطها بالأ . شعرت بمزيد من الاطمئنان وأنا أطوي الوجوه في ذاكرتي وبخدر رقيق يدبدب في مفاصلي . استسلمت للكرى بعدما استحكم بي . تولاني . . . فنمت .

- ٢ -

غدرتني الشمس ساعة انسابت أشعتها من قداويح الستارة وتزحلق على وجهي .

يلد لي ان استبق الشمس . اعتر مثل الاديب اللبناني مارون عبود «ساعة يستفيق الديك بعدي» كما كتب مرة ومرات . فليس أحب عندي ان أكون الشاهد على جسم الوردة وهو يستحي تحت أول اشعة الشمس ، وعلى غنج قطرة الندى على الورق الاخضر . . . قبل ان يلحقها لسان الغزالة الطويل .

ساعة انعكس وجهي على المرأة ، ألملم بالشفرة الحادة صابون الحلاقة تيقظ حس غريب في نفسي . مرت الافكار كالومض في رأسي . تماسكت . حاولت ان أعيد ترتيبها . استولت علي فكرة واحدة . علقت في ذهني . تخيلت ان الزمان قد انضج ظرفا معينا لفتح حوار مع المقدم فخري عمر . يكون اول اتصال غير رسمي بين ضابط قيادي في الحركة الانقلابية وقومي اجتماعي . . . سحقت حركته مؤامرة اخطبوطية الرؤوس ، معروف بعضها ، تنقلت بين الشام ومصر ومرت عبر الدولة العبرية وواشنطن وبعض عواصم الرجعة العربية .

لم لا . . . فالرجل صديق منفتح . ثم ان العثور على عبد الحميد السراج اوسؤالي عنه هو امر ثانوي لا يعني . فان كانوا يعرفون - كما قال لي الملازم ماجد شاكر - انه

غادر منزله وتوارى عن الانتظار فلا بد أنهم يعرفون جيداً ان منزلي لا يمكن ان يكون لـ «السلطان الاحمر» الهارب ملجأ ومأوى لألف سبب وسبب، وهم على دراية بعلاقتي الباردة به ويموقفي السياسي المعارض له والرافض لحكمه وإرهابه وعصره ووجوده.

راقتني الفكرة. حلقت مع نشوة عابرة امتلكتني. قلبت آخر قطرة في فنجان القهوة في فمي.

مهمت: سأنتهز الفرصة. سأحاول فتح حوار بين الحركة القومية الاجتماعية وهؤلاء الضباط الانقلابيين الشباب الذين استفزتهم العزة القومية والشعور بالمهانة والضعف والوجود المصري يحرض ويغطي ويتستر على حالات القمع والارهاب التي مارسها عبدالحميد السراج والمستفيدون من حكمه على مدى السنوات الست الماضية...

حطت نظراتي على الشباك المؤدي الى الشارع محمولة بأفكاري:

- تأخر... تأخر. قال سيأتي باكراً.

رطن خالد زلفو ساعة رأي اشبع نظري في التطلع الى الشارع.

رميت نظرة على وجه زوجتي. فاذا بالقلق يتكمش بملاعها. تركت ابتسامة تتمدد على شفثيها كأنها كانت تريد منحي شجاعة لم أكن بحاجة اليها. خطفت من لسانها كلمة كادت تسيل على شفثيها:

- لا تقلقي... لا تقلقي... سنعود باكراً.

وكتمتها كلمات رددتها همسا في نفسي. أرخت رأسها على كتفي. ثم سوت من ربطة عنقي:

- أعرف... أعرف لكن عبدالحميد عديلك. قد يثأرون. قد يجعلون منك رهينة لاجبار عبدالحميد على تسليم نفسه...

- لي بينهم أكثر من صديق... وهم يعرفون علاقتي الفاترة والمضطربة بعبد الحميد.

تملكتها الراحة. طردت كلمة وقفت تنتظر على طرف لساني لحظة سمعت هدير محرك. تعجلت بالنظر من الشباك، فاذا بسيارة «الستوديباكر» السوداء ذاتها تقف امام العمارة بلا عربات مدرعة ولا حرس ولا عسكر وينزل منها الملازم اول ماجد شاكر.

- ٣ -

أمعنت في التطلع الى وجهه. حاد القسبات واسع العينين. دقيق الانف. أجهد النفس في ترتيب شعيرات شاربيه فبانت رفيعة مستقيمة تترك على الوجه انطباعاً بالجدية.

كان وهو يقود السيارة يترك يده اليسرى وهو يتكلم ترسم اشارات خارج النافذة .
استجمع كل ما اختزنه من ذكريات عني . سردها . كأنه كان يحاول ان يهديء من
روعي ونحن نجتاز الشوارع الى مبنى الشرطة العسكرية في حي البرامكة . حاولت
بالمقابل ان افهمه بانه ليس بحاجة الى اجهاد النفس واستحضار ما غاب من الايام ،
فلست قلقا ولا يعتريني الخوف!

عند البوابة الحديدية الكبيرة ، تمهل . رفع الحارس يده بالتحية . هزله رأسه .
مررنا الى الداخل . على يميننا كان الرائد فايز الرفاعي . يوقف سيارته . تواجهنا
بالنظرات . رفع يده مسلما . ثم . . . كأنه تفاجأ بوجودي داخل مبنى الشرطة
العسكرية أوما مستفسرا فصحت به : «جئت ازورككم مهنتا» .
لوح بيده . ترك ابتسامة عريضة تنتشي على شفثيه :
- أهلا . . . أهلا خيلنا نشوفك .

صعدنا درجا ضيقا . انفتح امامنا ممر طويل . مد ماجد شاكر الخطوات امامنا .
يرمي السلام يمنة ويسرة . توقف عند باب في آخر الممر ، أزاحه فانفتح على غرفة
انتظار صغيرة فيها بعض مقاعد ومنضدة خشبية عتيقة ، عليها صحن دخان وبعض
جرائد اصفر ورقها من أشعة الشمس التي تأتي من شباك يتشبث بحائط كلح فما
عدت تعرف لونه . على الحيطان الاخرى ترك انتزاع صور «الرئيس» جمال
عبد الناصر ، مساحات بيضاء كانت تستر على الغبار وتقشر طبقات الالوان المتعددة
التي دهنت بها تلك الجدران .

تركنا الملازم شاكر وحيدين لدقائق . دخل غرفة جانبية . سمعنا طرقة كعب
حذاءه وهو يحبي ضابطا آخر أعلى منه رتبة اعتقدت منذ الوهلة الاولى انه المقدم
فخري عمر .

فجأة فتح الباب . دخل علينا شرطي عسكري ومعه آخر بثياب مدنية يقودان
رجلا اجنبيا طاعنا في السن تتدلى من كتفه آلة تصوير وخلفهم دخلت سيدة في
خريف العمر . شلحت علينا نظرة حمقى . وبدأت تجول بنظرها في الغرفة .
يتكمش الغيظ في ملامحها . اشار الشرطي الى الرجل المسن بالجلوس ففعل . . .
بينما رفضت السيدة . مدت في الغرفة صوتا رخيا . غلفت كلماتها الانكليزية برطنة
اميركانية :

- أما من احد يتحدث الانكليزية هنا؟

استسلمت لسؤالها . رفعت نظري الى وجهها :

- انني اتحدث الانكليزية يا سيدتي . . .

ابتسمت كأنها رمت ثقلا عن كتفها . غيرت نبرات صوتها :

- أخيرا . . . أخيرا .

جلست الى جانبي . سحبت سيكارة من حقيرتها الجلدية . اشعلتها بعصبية
أخذت نفسا طويلا منها . نفثت الدخان تركته يتجمع في فضاء الغرفة .
- هل تسمح وتشرح للشرطي ورجل الاستخبارات معه ، انني القنصل
الاميركانية لدى الدولة السورية . وان هذا الرجل هو زوجي وصل من يومين من
الولايات المتحدة لزيارتي ، وكل ما فعله انه التقط صورا لدبابات كانت متوقفة في
زوايا احد الشوارع . هل هذه جريمة ؟ حتى نقتاد الى هذا المبنى ؟
هممت في الاجابة . شعرت انها لم تكمل الكلام :

- في بلادنا عندما تشترك دبابات الجيش في عرض عسكري تسقط عنها السرية
والعسكرية وتصبح هدفا لكاميرات المصورين . . . فكيف الحال ودبابات الجيش
السوري موجودة في كل شارع في العاصمة منذ حركة الانقلاب الاخيرة ، فأين
السرية في ذلك ؟ كل يوم يمر آلاف السوريين بتلك الدبابات ، وصورها تحتل
الاعمدة العريضة في الصحف والمجلات المحلية والعالمية .

غالبت ابتسامة ثمرت عليّ فتمددت على شفتي . لم أكن أعرف لماذا كنت
أضحك . السخافة الحادثة أم لجهل القنصل الاميركانية لبلد ما تزال تتحكم به
عقلية الاستخبارات التي زرعها عبد الحميد السراج ؟ ملمت غضبها بكلمات هادئة .
حاولت ان أشرح لها ان الوضع ما يزال متوترا وان الامر لم يستتب بعد للانقلابيين .
شعرت انني اقنعتها . ارتاحت قسما وجهها ، فشرحت لزوجها ما قلت همسا .
قطع الملازم ماجد شاكر همسها . لما فتح الباب وهمم بالتحدث اليّ لكنه سكت
عندما شاهد السيدة الاميركانية وزوجها . رسم علامات استفهام رددت عليها
بسرعة معرّفا بالقنصل الاميركانية وزوجها . وأوجزت له سبب وجودهما . رمى على
الشرطي نظرة عجل . أوما . فخرج مع العنصر الاستخباراتي من الغرفة . ارتبك
الملازم . عاد بعدها الى الغرفة . غاب لحظات ، ثم عاد دعاني لمرافقة السيدة وزوجها
لأقوم بالترجمة فلا هو ولا المقدم فخري عمر يجيدان الانكليزية .

★ ★ ★

لا شيء فيه تغير . بعده ذاك الوسيم الانيق . طلته القفقاسية تزيد على بزته
العسكرية هيبه ووقارا . عينان سوداوان تدوران في وجه جميل الملامح دقيقها .
هاديء النبرات . ساعة دخلنا عليه كان يرتب اوراقا مبعثرة على مكتبه . تركه . مشى
من خلف المكتب صافحني بكياسة عرف بها . السيدة الاميركانية ، قدمت له
زوجها . دعانا الى الجلوس جلسا . فضلت ان ابقى واقفا كي أساعد على حل
مشكلتهما بسرعة علّه يحل مشكلتنا بسرعة اكثر .
بذكاء حدثهما . ترجمت . قال معذرا إزاء تصرف رجال الاستخبارات .
فلا عصاب مشدودة بعد الانقلاب .

تركها تحكي . كررت ما قالت لي واعادت اعتراضها . ابتسم لهما . اعتذر قال ان جنوده «يعتبرون كل قطعة عسكرية هي سر عسكري يتعاملون به مع المواطنين والاجانب على هذا الاساس . فاعذروهم واقبلوا اعتذاري الشخصي مع الرجاء الا تستعمل آلة التصوير مرة أخرى يا سيدي كي لا تسبب لكما ازعاجاً» .

مر جندي بصينية نحاسية عليها فناجين قهوة عربية مرة فيها نكهة الهال . شعرت ان الرجل الاميركاني بعد احتساء فنجانہ كتم شعورا بالارتياح . وقفت القنصلة . قبلت اعتذار المقدم . مشى معها الى باب المكتب .

اخذ نفسا طويلا . تملاني . قال :

- اين خالد زلفو . اليس معك ؟

في غرفة الانتظار . . .

عاد الى الباب . فتحه . دعا خالد زلفو للانضمام اليه . بقي واقفا خلف المكتب حتى جلست . فجلس .

حط نظره بعد تيه على الاوراق على مكتبه . استاذن . وقع على ثلاث منها . وضع القلم بهدوء امامه . رفع نظره . نقله في وجهينا :

- لن اسألكما عن العقيد السراج . اعرف جوابكما سلفا . انا مقتنع تماما بجهلكما مكان تواريه . أنتما أدري بما اقترف وفعل وخرب .

تمهل . اقتضب في الكلام :

- رئيس الشعبة الثانية في الجيش يريد التحدث اليكما . سأرسلكما اليه بعد دقائق .

لم يترك مجالا للحوار . ضغط على زر جانبي . دخل جندي . أمر لنا بمرافقة الى مبنى الاركان العامة . وقف . مديده مصافحا . قطع هذا الجسم آمالي في الحوار معه . فالرجل ما كان امكانية حوار بل كان وسيلة تنفيذ . اوحى لي انه يفضل ان يكون رئيس الاستخبارات العسكرية محوري فهو رجل «الفكر» في القوات المسلحة . هو مفكر الجيش الدائم .

- ٤ -

نحلت المسافة من مبنى الشرطة العسكرية الى مبنى الاركان العامة دهرا . كانت الافكار تتلاطم في رأسي . لمت نفسي انني فكرت لحظة واحدة بأمل الحوار . رنت كلمات فخري عمر في رأسي . تلاشى كل شيء امامي . تناثرت افكاري . شعرت وانا أخطو والى جانبي خالد زلفو في الممر الداخلي لمبنى الاركان العامة بأن العيون تتبعنا . حررت ذهني من الظنون ساعة ابتسم لي أحد الجنود ، وهويدعونا الى دخول غرفة انتظار كبيرة ، أنيقة الاثاث . من نافذتها العريضة أطللنا على ساحة الاموين

وعلى الخيمة البدوية التي نصبها المقدم حيدر الكزبري . عشرات الدبابات والعربات المدرعة ومئات الجنود بخوذاتهم الحديدية ، يأخذون الحيطه في زوايا المبنى والشوارع التي توصل اليها ، يحمون الانقلاب الذي لم يغير مجرى التاريخ بقدر ما أعاد لسورية استقلالها وللسوريين الحرية والكرامة بعد سنوات من الذل والمهانة والتبعية .

مضت الساعات بطيئة ونحن ننتظر . الفت أعيننا ما في الغرفة . تسليت مرارا في عد بلاطات الغرفة وزهقت من كثرة التطلع من النافذة ومن الجلوس . بين الفينة والفينة كان يدخل جندي يعرض علينا فناجين القهوة . ثم يدخل آخر يزف الينا بأن المقدم سيستقبلنا بعد دقائق :

والدقائق صارت ساعات . والقهوة صارت علقماً . وصحن الدخان طفع باعقاب السكائر . والانتظار مربك . ممل . مضجر . مقلق . مخيف . يأكل من الاعصاب نتفا .

فتح الباب فمه . أطل منه المقدم محمد الموصلي . صبق لمشاهدتي أدور في أرض الغرفة . صرخ في مرحبا :

- يا هلا . . . ماذا تفعل هنا؟ هل انت هنا لزيارة شرف الدين؟

اندفعت الكلمات عجلي من فمي :

- لا اعرف . . . لا اعرف . الحقيقة لست بغرض زيارة احد . لقد طلب مني المجيء الى هنا .

قطب . ترك مساحة على وجهه لعلامة استفهام حيرى :

- عجيب . . من طلب اليك المجيء الى هنا . . . ثم لماذا؟
بادرته بهدوء :

- المقدم فخري عمر طلب مني المجيء الى هنا . . . اما لماذا فلست أعرف؟
ابصرت ارتباكاً مر على قسماات وجهه . سقطت عيناه على وجهي فأحسست بأنه ارتاب بالامر . أطرق مفكراً ثم قال :

- سارى المقدم الزعبلاري قبل دخولك عليه .

أغلق الباب خلفه . عادت تلك الغرفة الانيقة لتتحول الى زنزانة انتظار . وعدت الى النافذة . الساعة الثالثة بعد الظهر . . . سبع ساعات مرت منذ خروجنا من البيت ، وما زلت اجهل لماذا استدعيت وماذا يريدون مني؟

بدأ الضيق يعتصرني . كففت عن الحركة . همدت في مكاني . ابتلعت مع ريتي عبارة بذية كادت تتفلت مني . كان خالد زلفو طوال الوقت جالسا يدفن رأسه بين يديه . اثارني صمته .

دعسات كانت تقترب من الباب . دعسات ألفنا سماعها طوال ساعات . فتح

الباب . انتصب جندي امامه . دعانا لمرافقته . اخيرا . . . افرج عنا .
مشينا خلف الجندي وهو يقطع الممر . بخطوات مسرعة . تمهل امام باب . نقر
عليه بهدوء سمعنا صوتا رخيبا . لم نفهم منه شيئا . دخل الجندي . بقي الباب
مفتوحا . أوما . فدخلنا .



انتصب بقامته المربعة خلف مكتبه العريض المزدهم بآلات الهاتف وبالملفات .
امامه وقف ثلاثة ضباط كانوا يتلقون الاوامر منه . وعلى المقاعد في زاوية الغرفة
الكبيرة اربعة ضباط مغرقين في حديث هامس . بينما كان محمد الموصللي يتحدث الى
ضباطين آخرين .

لما رأي مشى من خلف مكتبه نحوي . لا شيء في اللقاء يعادل لقائي بالسراج قبل
خمسة أعوام . مد يده مبتسما . دعانا الى الجلوس . صمت الجميع . طورا احاديثهم .
للم أحد الضباط اوراقا كانت على منضدة الدخان . طلب المقدم الزعبلوي منهم
الخروج . ابتسم البعض . افسحوا مكانا لنا . خرجوا . استبقى محمد الموصللي معنا .
بقي واقفا . كلما كان يريد ان يبدأ الحديث يقطعه رنين الهاتف . فيعود الى
الهمس . وعندما كان ينتبه الى ارتفاع صوته يخفضه . فالرجل كان يتحمل مسؤولية
امن حركة انقلابية قوضت وجود الرئيس جمال عبدالناصر في ما سمي بـ «الاقليم
الشمالى» للجمهورية العربية المتحدة . والانقلاب ، لم يكن مستتبا في كل مكان .
ففي الشمال السوري كانت عساكر عبدالناصر من السوريين تحاول تمردا وعصيانا .
وفي الشرق بعض التمرد والعصيان . وفي الجنوب تملل قرب الحدود الاردنية
والضباط الشباب قليلو الخبرة بعمليات الكروا والفر السياسية . لم يعترفوا بانهم افتقدوا
الى غطاء عربي ودولي ، الى مظلة ضخمة من حجم عبدالناصر . ففي مواجهة
«الرئيس» واطماعه كان عبدالكريم النحلاوي وموفق عصاصة وحيدر الكزبري
وشرف الدين الزعبلوي و . . . فايز الرفاعي .

- أهلا . . . أهلا . فوجئت انك أنت عديل السراج . فلقد مرت سنوات طويلة
لم أرك خلالها وانقطعت عني اخبارك وأحوالك . لذلك عندما اتصل بي المقدم عمر
ليعطيني اسمك على انك عديل العقيد السراج كدت لا اصدق . فطيتك ليست
من عجيبته .

تمايل المقدم شرف الدين الزعبلوي وهو يقول آخر العبارات وانتظر مني جوابا :
- قدره أنه كان عديلي . فلقد ناسبني بعد زواجي بثلاثة أعوام . وكما تعرف ما كنا
على صلات جيدة . . .

هز برأسه :

- مفهوم . . . مفهوم . . .

اكملت بعدما شعرت انني في مكتب صديق قديم وليس خصما او عدوا . ولا هو عسكري حاقدا لثيم .

- لم أكن أقره يوما على افعاله واعماله وتصرفاته حتى لا استرسل وأروي لكم خلافي السياسي والفكري معه . اننا يا صديقي لا نعزف على قيثارة واحدة . قاطعني رافعا يده :

- سنعود الى هذه الامور في جلسة أخرى خارج هذا المكان .

عبّ نفسا من سيكارة حبسها طويلا بين أصابعه ثم قال :

- انا مهتم الآن بالعثور عليه . ليس لما فعل ولما خرب ودمر في الانسان والمجتمع فحسب ، انما لأنه ما زال يتحكم ببعض الشارع الدمشقي وهو قادر على تحريكه لعرقلة حركتنا لصالحه وليس لصالح «الوحدة» كما يظن البعض .

مر وجه عبدالحميد السراج امامي كالومض . ظل واقفا ينفث الدخان الرمادي من فمه فيتكلم ثم يتبعثر في فراغ الغرفة . حانت مني التفاتة الى محمد الموصللي فرأيت يغمس نظره في وجهي متلهفا للجواب :

- آخر مرة رأيت عبدالحميد فجر يوم الانقلاب . بقيت في منزله حتى ظهر التاسع والعشرين من ايلول (سبتمبر) ولما اتصلت بزوجته في اليوم التالي للاطمئنان عليها ، وذهبت لزيارتها فوجدت انه لم يكن في البيت . انه هرب ، توارى . لكنني لا أعرف اين يختبئ ؟

افرج شرف الدين الزعبلاني عن ابتسامة ترحرت على شفثيه :

- اعرف انك لا تعرف اين يتوارى . لن يمضي الوقت الا ويكون العقيد السراج خلف القضبان . سيدفع ثمن ما اقترف وصدقني لو كنا نعرف من عديل السراج من قبل لما كنا جشمناك عناء المجيء الينا . ثق انني سأسعى في وقت قريب الى لقاءك . فأترك لدى مساعدي رقم هاتفك كي اتصل بك فنلتقي .

مد يده . ضغط على يدي مصافحا . رفع المقدم محمد الموصللي يده بالتحية . طلب اليه ان يوفر لنا سيارة تعود بنا الى المنزل .

نفذ محمد الموصللي الامر . اعادتنا سيارة «دودج» رصاصية اللون الى دارتي في رقم ١٤ شارع ابو رمانة .

- ٥ -

ما كدت أدير المفتاح في الباب ، حتى إحتد رنين الهاتف . كان الاعياء قد اخذ مني مأخذا . تهالكت على سبابة الهاتف . ما كدت ارفعها حتى علا صوتها :

- اين أنتما . ماذا حلّ بكما . ماذا فعل بكما هؤلاء الـ (. . .) ؟

تركتها تنهي آخر كلمة بذئبة . . . فأجبتها :

- لقد حصل خير. . لم نصب بسوء. لم يفعلوا بنا اي شيء. مجرد حديث.
عرفت من الحاح السيدة مَلَك ان تأتي اليها شغفها لمعرفة ما دار في مبنى الاركان العامة.

كانت تلوب في صالون المنزل مثل لبوة جريحة. صاحت بي حين شاهدتني :
- هذا الـ (. . .) . حيدر الكزبري اقسم لعبد الحميد حين اصططحبه للاجتماع
بهم في الاركان العامة ان لا يتعرضوا اليه بسوء. ان لا يؤذيه او يعتقله. وقد عرضوا
عليه في الاركان ان يوفرؤا له الحماية والحراسة لو شاء ذلك. فما الذي غير فكرهم
حتى بدأوا يفتشون عنه ويتعرضون الى انسابائه؟
نفرت عروق رقبتها. احمر وجهها حنقا:
- هل تعرضتم للتعذيب. هل ضربتبا؟
سبقني خالد في الكلام:

- زمن التعذيب والضرب بالسياط قد ولى يا مَلَك فعندهم شربنا من القهوة حتى
انتشت عروقنا ودخنا من السكاير ما ضاق له صدرنا. حتى انهم لم يسألوا عن
عبد الحميد السراج بعدما عرفوا ان غسان عديله.
أحسست ان نظراتها تنسج خيوطا حولي. اختنقت بأفكارها. لم ترتج لكلام
خالد.

- لماذا استدعوكما اذن؟
بقيت علامة الاستفهام مرتسمة في عينيها فبددتها:
- لم يعرفوا انني عديل عبد الحميد. ولما عرفوا صدقوا عدم معرفتي بمكان وجوده.
هدأت. عادت قسبات وجهها المشدودة تتمدد على وجهها. سألتها:
- هل جاء حيدر الكزبري الى هنا؟ متى اخذوه الى الاركان؟
قاطعتني. استرسلت بالكلام:
- اخذوه بعد ظهر اليوم الاول للانقلاب. جاء حيدر الكزبري بمصفحة الينا.
صعد الى الدار. عانق عبد الحميد. طلب اليه مرافقته للاركان العامة. فقاد
الانقلاب يرغبون في الاجتماع به. ما غاب طويلا. وقف الكزبري في وسط
الصالون واقسم أمامي ان يدا لن تطل عبد الحميد وانهم اصروا عليه قبول حراسة
للكار ولنا فرفض. فهو تقاعد وانصرف الى شؤون وهموم العائلة.
قطعت عليها تنهدا. سألت:

- لماذا ارسلوا بطلبه اذن؟
ضحكت. لعقت جرحها. تسترت بالزهو:
- استدعوه لاستمالته اليهم. فهو الوحيد بينهم العارف بادر تفصيل النظام
المصري الذي قام في دمشق. لقد أرادوا الافادة من معلوماته لمواجهة عبدالناصر

وعندما رفض عرضهم طلبوا منه عدم تحريك فلول «الاتحاد القومي» ضدهم وبعض الشارع الذي ما يزال يحاييه ويناصره.

انتشت بكلامها. استعادت تكايرها على الخيبة والسقوط. كنت أراها تتضاءل أمامي. مكلومة. تعاند وجع الانكسار. الكل ابتعد عنها تفرق من حولها. هي التي كانت سيدة البلاط. زوجة الوالي. الست ملك. أصبحت تنتظر من يدق بابها. من يفسح لها المجال للتكاثر على الخيبة والسقوط. وهو هارب. يطويه الليل. مكتوب اسمه على لوائح المظلومين في المخافر. تراه كان يشعر بشعور الهارب من ارباب المخابرات؟

تمددت على السرير. انسحب التعب من مفاصلي. تركت الليل يدخل الى الغرفة.

الحقبة السراجية انتهت. كذلك الحقبة الناصرية. وقامت في بلاد الشام حقبة وطنية تحاول ان تعيد للانسان حزيته وكرامته وفكره السليب. تراجعت الافكار من رأسي. انسدت ستارة سوداء امام عيني. نمت.

- ٦ -

«يا فتاح يا رزاق يا عليم». «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم»...

مد صوته في البيت.

- ألم تسمع يا استاذ... ألم تسمع؟

هز أجير اللحام رأسه وهو يضع بين يدي ما كانت طلبته زوجتي من ملحمة حي نوري باشا المتفرع عن حي أبي رمانة. وكأنه حمل الي سبقا صحافيا. قال بزهر ممزوج بالتفجع:

- لقد اعتقلوا عبدالحميد السراج. لقد اعتقلوا عبدالحميد بك!!!

امتلات عينا الاجير بشيء من الدهشة. انتظر ردة فعلي. هزني من كتفي. رمى السلام. تركني في ذهول.

هرعت الى الراديو. ركزت أذنه على اذاعة دمشق. الساعة السابعة والربع. بدأت نشرة الاخبار. أول خبر فيها تصريح لناطق عسكري يعلن على ملايين السوريين ان سلطانهم الاحمر الذي تحكم برقابهم على مدى سنوات ست طويلة. أصبح سجيناً في معتقل المزة الرهيب.

شعرت بحاجة الى الزعيق. الى دق ابواب الدمشقيين بابا... بابا. ان أقف في الساحات. ان أخبر من لم يصله الخبر بعد ان السراج في المزة... في المزة... في المزة.

تولاني شعور ممزوج بالفرح والريبة. السلطان في المزة. اريده ان يذوق العلقم

الذي اذاقه للآلاف طوال سنوات تحكمه وتسلمه. اريده ان يجلد كما جلد. ان يتوجع كما أوجع. ان يجافي جنبه السرير الخشبي المسوس في الزنزانة الرطبة من الضرب المبرح. هزتي زوجتي. منعت عني استرسالي في نشوتي العابرة. طلبت مني ان نذهب الى منزل السراج.

- اخذوه... اخذوه... هؤلاء الـ () اخذوه!

صرخت مَلَك في وجهي. كانت منكوشة الشعر. نظراتها تشع في عينيها تقدح شرراً. ذهبت منذ وصول خبر اعتقاله الى مبنى الاركان العامة. حاولت اقتحام الباب الحديدي الكبير. منعها الحرس. اداروا لها ظهورهم. تركوها تزحف مهددة متوعدة.

والسلطان منذ ان توارى التجأ الى منزل روشن بدرخان والدته اسيمة زوجة زهير زلفو شقيق مَلَك من أبيها. وروشن خانم، كانت تسكن في طابق ارضي بمنطقة الحواكير المطللة على نصب تمثال العقيد الشهيد عدنان المالكى. ولداتها مدخلان واحد رئيسي تنزل اليها منه وآخر فرعي يلامس طريقاً فرعية. فوق دارتها كانت تقطن ابنتها اسيمة. فكان اختيار المكان ذكياً. فمن كان يخطر ببال من يداهم بيت زهير زلفو بحثاً عن السراج ان السلطان الاحمر قد لجأ الى حرم سيدة مسنة تعيش وحيدة، محتمية؟!

وما فعله عسكر الشام ذاك اليوم انهم رصدوا المنطقة بكاملها. راقبوا بيتي وبيت الأغا علي زلفو. وبيت زهير زلفو على مدار الساعة. عرفوا ان في الشقة السفلى لدارة زهير تسكن حماته روشن خانم. فكيف تبقى ستائر الشبايك محكمة الاغلاق دائماً؟ ثم... ان اياماً اربعة قد مرت لم تفتح فيها نافذة او يدخل او يخرج منها انسان. لذلك قرروا ان يداهموا الشقة بعيد منتصف الليل التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ وأوكلوا المهمة الى النقيب هشام عبد ربه الذي كان مساعداً للسراج قبل ان يترك الشعبة الثانية والاستخبارات ويلتحق بحرس الحدود مساعداً لحيدر الكزبري في قوات البادية.

★ ★ ★

خنفوا محركات عرباتهم الـ BTR. توزعوا على المفارق غرسوا بنادقهم بين البيوت المجاورة لبيت زهير زلفو. طوقوا المكان. انتظروا الاوامر. ساورت النقيب هشام عبد ربه فكرة أن يصيح بالسراج من مكبر الصوت كي يسلم نفسه. ان يخرج رافع اليدين الى أعلى. تراجع عن فكرته. أوامر القيادة كانت واضحة: القيام بالعملية من دون ضوضاء.

حمل مسدسه . رافقه جنديان . دق على الباب بمقبض المسدس . صرخ : افتحوا الباب .

فتح الباب . تراجع هشام عبد ربه خطوتين الى الوراء ساعة انتصب عبد الحميد السراج امامه بكامل اناقته . ادى النقيب له التحية . طلب منه ان يخرج رافع اليدين الى اعلى . استسلم السراج . نفذ . فتشه النقيب . مر باصابعه على صدره وخصره ورجليه . لم يجد معه سلاحا . مشى امامه . خلفهما مشى الجنديان الى العربة المصفحة . جلس عبد الحميد السراج واجما . صامتا . اكتفى بطلب السماح له باشعال سيكارة .

قطعت العربة المصفحة المسافة بين منطقة الحواكير في حي المهاجرين والبوابات الحديدية الضخمة لسجن المزة بنصف ساعة .

كانت العصافير تنفض اجنحتها من الليل التشريني والفجر يعد بنهار العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ . رمى «السلطان الاحمر» نظرة حزن تمرغت على بيوت دمشق الشيقة الجاثية تحت اقدام هضبة المزة . وقف برهات كأنه كان يخاطبها كما يخاطبها هرقل امبراطور بيزنطية قبل ثلاثة عشر قرناً . «وداعا دمشق . . . وداعا لا لقاء بعده» .

شده عسكري من ذراعه وغاب في سجن المزة فلم يعد يرى عاصمة الامويين من يومها . ١

الفصل الخامس عشر

في حمى الرئيس



في حمى الرئيس
بعدما ذاق الاعتقال
في «المزة»



- ١ -

امتلات عينا مَلَك بشيء من الحزن، حاولت ان تخفيه عَمَن كان يزورها ويسأل.
كانت تغدرها تنهدات تطلع من صدرها مثقلة. يفضحها ذبول كان بدأ يتكمش
في وجهها. خطوط سود كانت تتجمع تحت عينيها. تحركت دمعة على خدها لما
رأتني. تنبّهت الى ان تلك الدمعة قد جرّحت الكبرياء الذي حاولت التستر خلفه.
محت دمعته بابهامها. تغيّرت تفاصيل وجهها. نشرت عليه ملامح القوة. استعادت
نفسا طويلا. احتويتها بنظرة عطف استرجعتها لما تلاطمت في غيلتي صورها..
تذكرت يوم جثتها التمس للسيدة جوليات المير [زوجة انطون سعاد مؤسس وزعيم
الحزب السوري القومي الاجتماعي] التي كانت تعاني الامرين في سجنها. كيف
اعرضت. كيف تصوّرت ان مَلَك قوة تعطيها الحق في ان تجلس على القمة...
هاجنتي آلاف الوجوه المستغيثة المضرجة بالدماء. رأيتها تضحك. بقي وجه والده
عصام المحايري يتكمش في عيني. لقد جاء دور مَلَك كي تحرق. كي تتلوع.
كي تعرف ما معنى ان يسجن من تحب.

شعرت بأحاساس يدامني. احساس بالتشفي قاومته. تملكنتي الرغبة في ان
أصرخ في وجهها. ان اذكرها وهي في الهاوية اي نوع من النساء كانت وهي في
القمة. نزل نظري عليها. رأيتها في تلك اللحظات تتضاءل. مكلومة. تعض على
الجرح وتتلوى. فالايام التي تلت سجن زوجها لم تكن سهلة عليها. فهي لم تستطع
ان ترى نفسها وحيدة. متروكة. لم تعد زوجة الوالي. لم تعد الست مَلَك التي يزحف
الى بلاطها المريدون والمحاسيب والازلام.

أدارت فنجان القهوة بين أصابعها. ارتجف. دفنت بقاياها في جوفها. امتصت
شفتها السفلى. رمت في عيني نظرة بان فيها ضعفها وارتباكها:
- أود لو تذهب معي غدا لنزور عبد الحميد في... السجن.

تجمعت كل شراستها في العبارة الاخيرة.
غالبت ابتسامة نشوانة حاولت التجدد على شفتي. كتمتها. ولكنني لم استطع

السيطرة على الشعور بالراحة الذي اجتاحني واستولى عليّ. كنت انتظر تلك اللحظة. ان أرى عبدالحميد السراج خلف القضبان. ان أراه ذليلاً. مهاناً. كما ذل وأهان الآلاف.

ظلت تلتفت اليّ لترى تأثير طلبها على وجهي. أحسست بلسع نظراتها فردتني من نشوتي. تسارعت الكلمات على لساني:
- بكل تأكيد... بكل تأكيد...

أوشكت ان أنطق بكلام آخر يشفي غليلي. يُفهمها كم احتقر زوجها. كم أتمنى لو تنهال على ظهره السيّاط تشققه. تغرس في العظم. فيتذوق ما اذاقه للآلاف في غياهب سراديبه وغرف التعذيب. أحسست بالضيق. طفا على وجهي امتعاض شعرت به. فتحت عينيها على اتساعهما. ناس فيهما البريق. ازدادت شراستها. تجمع الكلام في فمها:

- هل سمعت اذاعة «صوت العرب»... هل سمعت ما يقولون عن الـ ()... في الاركان العامة؟!

سكنت حركة يديها. انشغلت في تقليب صفحات جريدة «الاهرام». اصابعها كانت تفتش عن مقالة محمد حسنين هيكل. لم تجدها. نسيت. عادت وتذكرت. ليس اليوم ينشر هيكل مقاله الطويل. علكت الجريدة باصابعها. مسحت الخبر العالق بهما. شعرت برغبة أخرى للكلام.

كانت وهي تتكلم يقفز امامي وجه السراج وتتدافع الافكار في رأسي: فحتى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ كان «انفصاليا» كما درجت تسمية الحركة التحريرية التي قادتها مجموعة من الضباط الشباب. ويوم اعتقل عاد ناصريا وحدويا. وها هي زوجته تتعاطى مع الحركة العسكرية الانقلابية من موقع العودة الى الماضي والتمسك بحمى جمال عبدالناصر وبـ «الوحدة» التي كانت على عجزها وبجرها «مظهرا» عسكريا يواجه «اسرائيل»، لولا ان ضربها السراج قبل ان تقوم وبعدما قامت ويوم دُفع الى الاستقالة التي سببها سوء ادارته وانتهازية وقمعه.

مرت لحظات لم اسمع كلمة واحدة. كنت اكتفي بمراقبة حركات فمها. شغلتنى افكاري عنها. ثملت بفكرة زيارة السلطان في سجن المزة.

لويت عنق السيكرة في صحن الدخان، وقفت. سكنت. فتشت عن الوقت في ساعة معصمها. حركت ابرة جهاز الراديو:

«صوت العرب من القاهرة... أكاذيب وحقائق»...

انتشت. لامس ظهرها ظهر المقعد بثاقل. تولاهما تحفز وضج في عينيها.

طلع صوت احمد سعيد. تركته يكذب عليها كما كذب على الملايين معها...

مشيت.

مر الجندي على وجهي بسرعة . ابتسمت . عبس . ظللت ابتسم . كان الجندي الآخر يغرس أصابعه في سرة الملابس . ثم يحشر أنفه في الاطعمة . وقفت يرقص الغضب في عينيها . لم تنبس بكلمة . تكتمت غيظا . ثملت الجندي جيدا . رافقت حركات يديه بعينيها . ارتاحت ملامح الجندي لما لم يجد ما يفتش عنه . شعر انه تمادى في تصرفاته . للمم الملابس وحشرها في السرة ثم عاد يغطي الاطعمة . ابتعد عن الطاولة . أوما الجندي الآخر . مشى . تبعناه . للمم الخطوات خلفه . أدخلنا غرفة صغيرة في وسطها طاولة خشبية مستطيلة . على جانبيها أربعة كراس . أوما مرة ثانية . اشار الى الكرسي . جلسنا . ابتسمت له . عبس . ظللت ابتسم . خرج . أغلق الباب . تركنا ننتظر .

كفّت مَلَكُ عن سعالها . دارت نظراتها على الغرفة : حيطان مشققة . عارية . علقت نظرها على شريط كهربائي مجدول في آخره لمبة كهربائية كانت تولد ضوءا يكابد ليخرج من زجاجها الوسخ الذي يغطيه الغبار بطبقات سميكة . تمسكت بانفي رائحة عفونة نتنة . شعرت ببرودة عجيبة تسربت الى مفاصلي . وقفت أطردتها من أصابع قدمي . مشيت . بقيت هاملة . مذهولة . فضحت حركة أصابعها على الطاولة عصبيتها . بين الفينة والفينة كان نظرها يتجمع هنيهات على الباب بلهفة . تنتظر ان يفتح . ان يطل منه عليها . ضاقت ذرعا من الانتظار . ثقل نفسها على صدرها . علت وتيرة صوتها . وقفت . همت بفتح الباب . رددتها عنه . فركت الهواء بيديها . عادت الى الكرسي . دفنت رأسها بين كفيها . أحسست بحاجة ملحاجة للخروج من تلك الغرفة . الضوء الشحيح المتسلل من اللمبة بدأ يضغط على اعصابي . فكرت مرارا ان أشق الباب . ان أنادي الجندي . وقفت امام الباب . هيات على شفتي ابتسامة . مددت يدي على مقبض الباب . سمعت حركة غريبة . دعسات تقترب من الباب . تنبهت لها مَلَكُ . رفعت رأسها . حولت نظرها الى الباب . ابتعدت عنه . رجعت خطوات الى الوراء . لم يترك نظري قبضة الباب . رأيته تتحرك على مهل . فتح الباب فمه العريض . دخل ضابط أظنه «ملازم اول» . بعد لحظات دخل عبدالحميد السراج . تبعه عريف . اغلق الباب بحركة عصبية . وقف قبالتها . همدت . شلت حركة قدميها . ابتسم . حول نظره عنها بسرعة . رماه على وجهي . طافت الدهشة على ملامحه . تكلمت فيها . رسم الامتعاض شكلا غريبا في عيني . تحول الى غيظ ، كأنه ادرك فرحي برؤيته في ذلك المعتقل الذي حاول ان يدفن فيه احرار الامة طوال سنوات ست . تيقظ . تلامحت على

شفتيه ابتسامة صفراء . بادلته بمثلها . همس . لم أفهم . سحت بعيني على وجهه .
هوذا السلطان امامي ، آتيا من زنزانته . شاحب الوجه . عيناه تدوران في محجريهما
بعياء ظاهر . الشرايين الدقيقة الحمراء أزاحت بياضهما . ترك عدم النوم مساحة
سوداء حولهما . اخترقت مسام جلد وجتتية شعيرات سوداء اطلت من بينها أخرى
بيضاء . كان ما يزال يرتدي البدلة التي لبسها ليلة اعتقاله من منزل روشن خانم
بدرخان ، تفوح منها رائحة عرق كريهة . قميصه متسخ .

جلس بتكاسل امامها . لم تلح في بعينه اي بارقة حب . حاولت أن افتش في
مساحة وجهه عن امارات الانفعال . عن شعور قد يرتسم على عيائه . فوجدته
شاحبا ، باردا ، بليدا . لم تحركه دمعة حزن طافت في عينيها . ولا هزه حديثها عن
أولاده . بقي هامدا ، ساهيا ، يهز برأسه .

أمسكت وجهه بعيني من جديد ، لم أر فيه ذلك الديكتاتور الذي حكم بالحديد
والنار وبنظام الاقبية والسراديب ستة ملايين سوري على مدى سنوات ست ، بدا
لي خائعا ، هادئا ، مطاطا الرأس . كأنه استسلم للقضاء والقدر ، كما يستسلم له
عادة المؤمن المتدين . هو الذي لم أسمع أنه قرأ من آيات الله البيّنات . او واظب على
صلاة . فالمرات التي أم فيها الجامع للصلاة كانت لشؤون رسمية . صلاة العيدين ،
او صلاة ترافق ضيفا زائرا الى عاصمة الاقليم الشمالي . ولا اذكر اني رأيت في منزله
نسخة من القرآن او الانجيل ، فأخر ما كان بعينه ان يقرأ ويتعظ .

اذكر جيدا ، ان توفيق الحبوباتي ، وقف مرة في صيف عام ١٩٦٠ على شرفة منزله
الصيفي في بلودان والى جانبه عبد الحميد السراج ، وكنت انا ثالثهما . فقال الحبوباتي
بزهو موجهها كلامه الى السلطان الاحمر :

- لقد نورناه يا ابا فراس .

تمهل عبد الحميد السراج ثم همس :

- ماذا نورتم يا ابا محمد ؟

قطب الحبوباتي . رمى كلامه بانزعاج :

- ولو . . . ولويا ابا فراس . الجامع . نورنا الجامع .

وأشار الى لون «نيون» أخضر يشع من مثذنة جامع بلودان . ثم نقل اشارته الى
قبة كنيسة بلودان للروم الارثوذكس واكمل :

- نوروها فنورناه . . .

احتوى عبد الحميد السراج كل حماسة الحبوباتي . علك كلامه علکا :

- آه . . . آه . . . برافو . . . برافويا ابا محمد .

واعطى ظهره للجامع وللكنيسة و... غير الحديث.
لم يعذبوه اذن... تمتت بسري. وأنا أهدهد نظري في ملامح وجهه أبحث
عن اثر لكمة وفي يديه عن عضه سوط... لم يعامل اذن كما عامل اسراه من
القوميين الاجتماعيين والشيوعيين والبعثيين الاشتراكيين والمستقلين الذين سقطوا في
قبضته وتحت آلة تعذيبه الرهيبة. لم «يشبح» الى السقف اياما بلا نوم ولا اكل
وشرب، كما شُبِّحَ عبدالمنعم دُبوسي. لم يغطس عاريا في براميل المازوت بعد حفلة
تعذيب دامية، كما فعل ببديع مخلوف، قبل ان يعدم الاثنين في منطقة ام الشراطيط
القريبة من بلدة سعسع في الجولان.

لم تلسعه تيارات الكهرباء كما لسعت كامل حسان، (عميد الداخلية في الحزب
السوري القومي الاجتماعي)، الذي كان يشكو من مرض الربو في صدره. لم
يضرب بالفلق ليغنى عليه كما فعلوا بفؤاد جديد، (شقيق غسان وصلاح جديد)،
لم يركع ليل نهار في زنزانه مراحضها فيها كذلك الجرذ والفئران. لم تمر سكين الجلاد
على اظفاره تقتلعها، ولا السياط على جلده تشققه: تفسخ الجلد عن اللحم وتكسر
العظم...

وضعوه في زنزانه كبيرة. تركوه يستمع الى الراديو فينقل اليه اخبار الابتهاج والتأييد
بعدها استتب الامن والاطمئنان للحركة الانقلابية التحريرية.

ارجعني صوت مَلَك. سحبني من بثر افكاري. اعطته ما حملته له من ملابس
وماكل. انتشلها العريف عن الطاولة بحركة عصبية.

- خلصت الزيارة...

تغرغر الضابط بعبارته. وقف عبدالحמיד السراج. مشى. بكث. لحقت به الى
الباب. تكلم الصنم قال بثقة:

- بسيطة... بسيطة... فليطمئن قلبك ليست القضية كبيرة...

لسعتني نظرة افلتت من عينيه بغضب. ابتسم:

- خلي بالك...

وسكت. لم يكمل. كأنه ندم انه فتح فمه. بلع الكلام مع ريقه. تجاسرت
ابتسامة ومرت على شفثيه:

- طمن بالك... طمن بالك.

رددت. هز برأسه و... غاب مع الضابط والعريف في البهو الكبير المؤدي الى
زنزانه.

فتحت باب الشرفة . زحفت الاصوات الهادرة في الشارع . انتشت .
- إسمعوا . . . إسمعوا صوت الشعب الهادر .
«ايتها المرأة المنكسرة . انها الحرية التي استردها الشعب . انها الديمقراطية عادت
الى الشام» . . .

تمتت بسري وانا امرجح نظري عليها . اكتفت زوجتي بهز رأسها .
كانت الأيام تمر بطيئة . تحمل كل يوم مزيدا من الديمقراطية للسوريين . ومزيدا
من الحريات التي افتقدوها من يوم اغتيال عدنان المالكي إلى يوم اعتقال عبدالحميد
السراج . لقد أفسح مناخ الحرية والديمقراطية المجال أمام الذين حرّموا من حق
التظاهر والتعبير عن الرأي وحق الرّفص والاعتراض على سلطة الحاكم طوال فترة
حكم السراج . وكانوا من مؤيدي «الوحدة» ومن فلول «الاتحاد القومي» الذين
جندهم السراج ليصبحوا نوابا عن الاقليم الشمالي في القاهرة . إلى النزول إلى
الشوارع والتعبير عن آرائهم .

ردت ملك باب الشرفة . كانت الاصوات ترتطم بزجاجها وترتد . أبصرت ضيقا
في وجهها . حطت نظرة متناقلة على وجهي :

- لقد جاء من اخبرني ان صديقك المحامي عمر الرباط هو المحقق العسكري
الذي كلفته قيادة العسكر التحقيق مع عبدالحميد . . .

سكتت . أخذت نفسا طويلا . طردت دمعات كانت تلتمع في بياض عينيها .
استردت بعض تكابرها . علا صوتها :

- ما رأيكما بزيارته ؟ في النهاية هو صديقكما . . .

سألت . لملت تعجبا مر على وجهي :

- مجرد استفسار . مجرد حديث . أريد أن أعرف ماذا يجري . قد يمكّي لكما بحكم
الصداقة . لقد أوصدوا كل الأبواب في وجهي . وليس عندي من اتكل عليه
سواكما .

ترددت . مشيت نظرة توصل من عيني زوجتي على وجهي . فكرت بسري بسرعة :
«انها قد تكون فرحة لمعرفة حقيقة ما يجري . . . اغتنمها يا رجل» . . .

- في اي شارع مكتبه ؟ . . .

طفت على وجهها علامات الارتياح . انهمكت في التفتيش عن ورقة صغيرة بين
كومة الأوراق المبعثرة على طاولة الدخان . سحبتها . تلعثمت . وضعتها بين يدي .
مكتبه في شارع ضيق متفرع عن شارع النصر خلف قصر العدل . وعمر الرباط
كان يؤدي خدمة العلم ، يعمل في ساعات الصباح ضابط احتياط في الجيش وبعد
الظهر محاميا . . .

استسلمنا للشارع المترنح على أصوات المتظاهرين . اليافطات كانت مرشوشة في كل مكان . زهقت من قراءتها . لكل عهد يافطة . نحن شعب لا يتقن الا كتابة الشعارات على اليافطات . دس أحد المتظاهرين في يدي بيانا كان يوزعه على المارة : «الاتحاد القومي طليعة قوى الشعب العامل» !! هراء . عجنت البيان بين اصابعي . شدت زوجتي على يدي . سككت .

من بين مئات الوجوه ، حط نظري على وجهه . كان على رأس المتظاهرين . يشبك ذراعيه بذراعي نائين سابقين في «الاتحاد القومي» . بدا لي وجهه أليفا . همست لزوجتي :

- أليس هذا عصام الدالاتي؟

هزت برأسها . ارجعني وجهه سنوات الى الوراء . لقد اضاع هذا الرجل بعض ثروته الطائلة على انتهائه وتبعيته لفصيل العسلي التعاوني الاشتراكي ، الذي زرع لسنتين [١٩٤٨ - ١٩٤٩] شوارع دمشق رعبا وارهابا قبل ان يرمي به حسني الزعيم في السجن . كان مناصرو فيصل العسلي يعتدون على الناس اذا لم يخلوا الطريق ليمر موكب «زعيمهم» . كما عاد عصام الدالاتي وأضاع ما تبقى من ثروته على المطربة اللبنانية نجاح سلام ، التي أحبها واحبته . فاخفت اسبوعا كاملا ، قيل يومها ان عصام الدالاتي قد خطفها ليعقد قرانه عليها .

عصام الدالاتي ، التعاوني الاشتراكي ، صار اليوم منفيا في الاسكندرية ، اضطر بعدما قمع فيصل العسلي والغى حزبه وتشتت المناصرون من جوله ، ان يبيع الشلاجات وافران الغاز في شارع الفردوس . جاءني مرارا يتوسلني لاعرفه على السلطان الاحمر ، وعندما عرف ان ملك توثث منزلا صادره زوجها من الثري الكويتي كما صادرت هي اثاث النقيب مصطفى كمال المالكلي [كما مر معنا] وضع ما تحتويه مؤسسته التجارية بتصرف الست ملك ، عليها توصله إلى الوالي صاحب الأمر والنهي ، شأنه في ذلك شأن كل انتهازي اقرب من السراج وكل سراج في كل أوان وعصر ومكان . . .

بقيت هامدا . غاب عني وجهه . شدتني زوجتي من ذراعي . مشينا . تركت خلفي عصام الدالاتي يهتف للوحدة والاشتراكية . . .

★ ★ ★

بيني وبين عمر الرباط مودة . كان محاميا طمحا ، مثقفا ثقافة لا تبرج فيها ولا زيف . يسعى الى بريق شهرة بين اترابه . هادئ الملامح وسيمها . دمث الاخلاق لين العريكة .

عرف لماذا جئنا . ابتسم . قال :

- انتم هنا لسؤالي عن عبد الحميد السراج .

لم اترك له مجالاً ليزيد . كانت لهفتي لمعرفة مصير السلطان الأحمر لا توصف :
- هل سيبقى طويلاً في سجن المزة ؟
جاء سؤالي فأترا . ابتسم . فهم سؤالي على غير محله . على انه حرص على عبد الحميد السراج وخوف :

- اطمئن . . . اطمئن . لا اعتقد أنه سيبقى في المزة طويلاً . . .
نزل كلامه عليّ مثل الصاعقة . أحسست بالامتعاض يتأكل أحشائي . هاجمتني
رغبة فاحشة في الصراخ بوجهه : « لن يبقى طويلاً . . . سيخرج من دون
محاكمة ؟ » .

تصنعت الاهتمام . تابع كلامه . لم أفهم أي كلمة . كان ذهني شاردًا مع
افكاري . شعرت بالخيبة تعتصرني . كنت انتظر ان اسمع من المحقق العسكري
كلاماً آخر ، من نوع ان التحقيق قد انتهى وقرار الاتهام يعد وجلسة المحاكمة الأولى
ستكون بعد اسبوع . بعد اسبوعين . . . كنت اطمح ان يعود القانون يتحكم
بمصير الموقوفين والمعتقلين من أصحاب الرأي والفكر والفعل السياسي . كنت أتوق
إلى يوم تعود فيه سلطة القانون بين الناس . كنت أنام في الليل خلال الحقبة
السراجية وأنا أطلب ان يقرب الله الصبح الذي نسمع تباشيره فلا يخاف فيه مواطن
من التعبير عن رأيه وفكره . ولا سياسي من البوح بمخططة وعقيدته . لحظات
شعرت ان العهد الانقلاهي الجديد لا زال يعتمد أساليب عبد الحميد السراج . لا
زال يوقف الناس بلا مذكرات توقيف . بلا غطاء قانوني يضمن حرياتهم وامنهم .
توجست ريبة . ان شيئاً ما يعد . . . لست أعرفه .

زنت افكاري . ليس السراج من أصحاب الفكر والعقيدة والمبادئ . كان دركياً
يحرس « البحسيتا » ثم عسكرياً انتهازياً . عرف كيف يتسرب عبر تقاطعات الحياة
السورية في خمسينات هذا القرن ، الى مواقع السلطة . فيسخر بعض ضعفاء
النفوس وعبداء المناصب مثله لما ربه فيحكم ويحكمون معه . يقمع الشعب السوري
ويدمر أمنه وثقافته واقتصاده وحرية وديمقراطيته .

لم ادخل عليه يوماً في دارته ووجدت بين يديه كتاباً . لم اسمع زوجته تقول لي انه
معتكف في غرفة مكتبه بمنزله يكتب خطاباً او يرد على رسالة . كان امياً كأكثر عساكر
العالم الثالث . اميته ضيقت افق تفكيره حتى بات واحداً ممن قرعوا بوابات الاحزاب
العقائدية يحتمي بها .

- اليس كذلك . . . يا غسان .

سمعت عمر الرباط يلفظ اسمي . تيقظت ، منع عني صوته الغرق في افكاري .
انتشلتني لحظات . اجبته بسرعة من دون ان افهم السؤال :

- بكل تأكيد . . . صحيح . . . صحيح .

عاد الى الكلام ، وعدت الى التيه .
«يخرج من دون محاكمة ؟ رددت في سري . ذلك الأمي الظالم . تذكرت . مرة
عندما كان ما يزال مرافقا لاديب الشيشكلي التقى عصام المحايري في نادي مطار
المزة . فاقترب منه واسر في اذنه :

- يا استاذ عصام . تعرفت على زعيم حركتكم . خليني . اردت الدخول الى
حزبكم فلم أوفق .

ذكر عصام المحايري السراج بهذه الحادثة أمام اكرم الديري وبهجت مسوتي في
احدى ليالي التحقيق والتعذيب معه في سجن «المزة» . فاذا بالسلطان الاحمر يتنفذ
غضبا . ينهال على عصام المحايري قذفا وقذحا يطلب منه ان يغادر
غرفة التحقيق ويتجه الى بوابة السجن الحديدية الضخمة فيفتحها ويخرج منها الى
الحرية شريطة ان لا يبقى ليلة واحدة في دمشق .

رمقه عصام المحايري بنظرة عجل . ابتسم . ثم حول نظره على وجهي اكرم
الديري وبهجت مسوتي وقال :

- انني هنا في حاكم مرتاح البال . أنا بريء من كل التهم التي ذكرت امامي اثناء
التحقيق . ولا أظن ان الحاجة تستدعي مغادرتكم . . .

سقط السراج في الخيبة . بقي صامتا . لقد كان ينتظر ان يخرج عصام المحايري .
ان يصل الى بوابة السجن الحديدية فيطلق الحراس النار عليه من الخلف . وفي
الصباح يعلن ، كما جرت العادة ، ان عصام المحايري قتل وهو يحاول الهروب من
السجن . . . وهو ما عاد وجرى في لبنان عام ١٩٦٢ حيث قتل ٣١ قويا سوريا
اجتماعيا بحجة «محاولة الهرب» .

التقطت عبارته فجأة وهو يتحدث الى زوجتي :

- انه بريء . بريء من دم سورية . انه لم يسرق . لم يرتكب معصية او أمرا أدا
قاطعته ، تجمع الغضب في كلامي :

- بريء . بريء . السراج بريء من دم سورية والسوريين هكذا تقول .
اذن . . . لماذا حرصتم على تعقبه ؟ لماذا أقيمت القبض عليه ؟ لماذا هو الآن في سجن
المزة العسكري ؟

جاء جوابه بسيطا . ساذجا .

- لنمنعه من تحريك بعض الشارع الدمشقي ضد الحركة الانقلابية . .

الانقلابية . .

التمعت عينا عمر الرباط . انهى حديثه بابتسامة عريضة تركها تترجع بين شفثيه .
طار صوابي . ماذا عن سنوات حكمه الست ؟ ماذا عن سراديبه وأقبية ؟ ماذا عن
تأمرة في صيف الدم اللبناني عام ١٩٥٨ وفي الاردن والعراق ؟ . . بريء . بريء .

لن يبقى طويلا في المزة . لن يدخل محكمة . لن تفتح ملفاته .
مددت له يدي . ضغط عليها . لم انبس بينت شفة . اكتفيت برسم ابتسامة
مجاملة . خرجنا .

- ٤ -

لم أتكلم حتى لا يفضح الكلام ما يعتمر في صدري . تركت زوجتي تشرح لها
وتشرح قلبها . انه سيعود اليها . لم تمسه يد . ظننت ان الكلمات التي كانت تتزاحم
بين شفتي وزوجتي قد دفأت جسدها المرتعش . لكنني وجدتها تزداد ارتعاشا واضطرابا
توتر صوتها :

- انه يكذب . عمر الرباط كذب عليكما . . .
تنهت . فتحت عيني على اتساعهما . اطلقت سؤالا خرج عني :
- يكذب علينا؟ لماذا . . . لم يكذب علي من قبل ثم انه . . .
لم تدعني اكمل . خطفت الكلام مني . ازداد توتر صوتها :
- عبدالحميد السراج لن يخرج من المزة حيا . . . لن يخرج حيا . . .
لطمت خديها . ساد صمت بليد . صدقتها . فهي كانت تعرف خبايا وخفايا
زوجها اكثر مني . انها شريكته في البيت ، كما كانت شريكته في الشأن السياسي .
اسراره عندها . كان ضعيفا امامها او هكذا كان يتظاهر امام الناس وامامنا .
- انهم سيقتلون عبدالحميد . وسيعلمون في اليوم التالي انه انتحر . او انه حاول
الهرب من السجن : انهم يخافون ان يفتح ملفاتهم . ان يكشف اتصالاتهم
وارتباطاتهم الخارجية .

شدني كلامها . اردت الاستزادة ، غمست اصبعي في جرحها . اوجعتها .
سألتها سؤالا سخيلا . انتفضت . حرصتها على الكلام . حكمت :
- ماذا يعرف . . . ماذا يعرف تقول لي . انه يا استاذ يعرف عنهم كل شيء . حيدر
الكزبري عميل للاردن ، عبدالكريم النحلاوي عميل للاميركان . موفق عصاصة
شوهد مرارا يخرج من السفارة البريطانية . كلهم عملاء . ملوثون . اما ملفاتهم
فمعروفة وجاهزة في ادراج عبدالحميد . لذلك لا أثق بما قاله لكما عمر الرباط .
كذب عليكما . اخفي عنكما حقيقة ما يدور . انهم يرتبون خطة لتصفيته .
- البعثيون معه . . .

رمى السؤال على عواهنه . التقطته :
- البعثيون صاروا اجنحة . اكرم الحوراني ايد الانفصال . ميشال عفلق وصلاح
الدين البيطار اعادا اصدار جريدة «البعث» ، ليهاجما الانقلاب والانفصال .
كأني لا اعرف . رميت نظرة على نسخة جريدة «البعث» ، غريب . اصبح ميشال

عفلق يدافع عن الذين حجبوا جريدته ومنعوا عنه الكلام وادعوا انصاره في السجون. وصلاح الدين البيطار اصبح ينكر على الدكتور مأمون الكزبري ، الذي اعاد له الحرية ، الحق بالحكم وبلاستقلال عن الهيمنة المصرية ! لم يحاول البيطار وعفلق مرة واحدة ان يناقشا قيمة الحرية الصحافية والسياسية التي منحها لهما حكم مأمون الكزبري . لم يقولوا للسوريين لماذا فجأة يؤيدان نظاما قمعيا كانا أولى ضحاياه . فجأة غفر عفلق والبيطار ذنوب السراج وخطاياهم . غضا الطرف عن القمع والارهاب والاضطهاد . بررا مع من جاراهم في رومانسيته في البعث ان لا القمع ولا الارهاب ولا التسلط . . . من الاسباب التي يجب ان تقضي على «الوحدة» وتؤدي الى الكيانية السورية . . .

- اذا تخلى عنه الجميع . عبدالناصر لن يتخلى .
عدت اغمس اصبعي في الجرح . أزبدت وأرعدت . انهالت بالشتائم على محمد حسنين هيكل . يومها خصص مقاله «بصراحة» عن عبد الحميد السراج ، لم يتهمه بالقضاء على «الوحدة» فقط ، بل بكل المساوئ والتجاوزات التي ارتكبها في الشام قبل دخول مصر .

لقد كان مقال محمد حسنين هيكل وثيقة اتهام واضحة وصريحة . (" لو قدمت هذه الايام لاية محكمة عرفية او مدنية لادانت عبد الحميد السراج . ولكانت جعلت منه عبرة للمغامرين من عسكر ومدنيين في ان لا يتجاوزوا القانون ويطعنوا الدستور ويقتلوا الحرية ويذبحوا الديمقراطية ويحولوا البلاد الى مزرعة والناس الى عبيد .
فقدت السيطرة على لسانها . انتابها موجة غضب . ما عدت سمعت . تلهيت في قراءة مقال هيكل . هل ما جاء في المقال كان خافيا من قبل على جمال عبدالناصر؟ . ام . . . انه الآن حان زمن نشره؟!
حانت مني التفاتة على وجه ملك . رأيتها تدير بلهفة ابرة الراديو . تفتش عن صوت احمد سعيد في «صوت العرب» تفتش عن . . . عبدالناصر .

- ٥ -

قتلوه . . . قتلوه . . .
اختنق صوت مَلَك بالتأثر . تموجت المشاعر في نفسي . همدت . صعبقت . سمرت عيني عليها . اثارت في الرغبة بالزعيق . تناولتها من ذراعيها . رفعتها عن الكرسي . هزرتها . عادت الى صوابها . رنت كلماتها في اذني : «قتلوه . . . قتلوه» . تلاشت . احتست بقية كوب الماء دفعة واحدة . هزرتها مرة ثانية وانا اسألها :
- ماذا جرى؟ من نقل الخبر اليك؟
استردت انفاسها . تدافعت الكلمات من بين شفثيها :

- هو . . مدير سجن المزة .

- كيف . . . كيف؟

امتصت شفتها السفلى اليابسة . رطبها بريقها :

- حوالي الثالثة صباحا ، اتصل بي شخص اغلب الظن انه مدير السجن . سألتني ان كان عبد الحميد قد لجأ الى البيت . فلقد فر من السجن .

عاد الغضب يزحف الى ملامح وجهها . ضيقت الكلام . استردته :

- لم أعرف بماذا أجبته . تصورت عبد الحميد جثة هامدة امامي . انهلت عليه بالسباب والشتائم . هددته بأن أثير الفضائح في الاركان العامة ان لم يعد عبد الحميد . قتلوه . . لقد قلت لك انهم سيفعلون .

«هرب . . . هرب» شعرت بالضييق . كدت اختنق بافكاري ، ان كان افلت من قبضة الشعب فلن يفلت من قبضة التاريخ . هددت هذه الفكرة في رأسي .

اجتريت الساعة الوقت . مر متاثقلا . بطيئا . بليدا . اذاعة دمشق كانت تكرر في مطلع نشراتها الاخبارية خبر هروب السراج من سجن المزة . في نشرة المساء ذكرت ان الرقيب منصور الرواشدة سهل هربه وفر معه .

من وراء الرواشدة ؟ من هرب السراج ؟

طاقت الاسئلة في رأسي : من له مصلحة بتهريب السراج . قفز عبدالناصر امامي .

«عملها الرئيس» تمتت بسري . فأسرار صاحب مصر في ملفات السراج . فلقد كان السلطان الاحمر ذراعه الضاربة . يوزع له الاوامر على الاعوان والازلام والعملاء والمحاسب داخل الانظمة العربية . بقاء السراج في السجن او حالته على المحكمة يعني فتح ملف عبدالناصر . يعني ان الرئيس سيقف في قفص الاتهام . وبين قادة الانقلاب من كان يواطىء الضباط مع عبد الناصر . فسهل فرار السراج .

★ ★ ★

قبل اسبوع من هربه . وصل مدير الاستخبارات الاردنية بشكل سري الى دمشق . فلقد كان مدير استخبارات الحسين بن طلال ناصري الميول عميلا مزدوجا عند عبدالناصر والسراج . حضر الى دمشق ومعه تعليمات من القاهرة لتحضير هرب السراج . اعد مدير الاستخبارات الاردنية العدة . جند الرقيب منصور الرواشدة ، الذي كان رئيسا للحرس في سجن المزة ، لتنفيذ المهمة . فتمكن من الاتصال بالسراج . وكشف له عن هويته وما يخطط .

في اليوم المحدد . قام منصور الرواشدة بتغيير مناوبته في السجن مع زميل له . احضر بزة عسكرية برتبة رقيب : سربها الى زنزانة السراج كي يرتديها . بعدها صرف العسكري المكلف بالحراسة من امام مكتبه . فتح باب الزنزانة . اخرج السراج

منها، حاملا بطانية تحت ابطه . مشى خلف الرواشدة . فتحت بوابة الحديد الغليظة . تصنع منصور الرواشدة انه يمازح عبدالحميد السراج . ضحك . ضحك «السلطان الاحمر» .

نزع السراج الرتبة العسكرية عن ذراعيه . خلع قبعته . طمرها في حفرة لكي يبعد الشكوك عنه والشبهات ان شاهده احد الحراس وهو برتبة رقيب . فالبة العسكرية العادية لا تثير في العادة تحفز الحرس .

أخذ السراج يرمي البطانية . مشيا عليها . ثم يعود يسحبها من جديد ويرميها أمامها . لاختفاء آثار دعساتها على الدرب الترابية . ظلا هكذا حتى وصلا الى سيارة منصور الرواشدة وكان قد تركها في ساحة قرب السجن .

نهبت دواليب السيارة الطريق نهبا . كان منصور الرواشدة عند الحواجز يفتح نافذة السيارة . يرمي على الحرس كلمة السر ويمشي . اختفيا في سفح جبل المزة . كانت سيارة أخرى تنتظرهما . رتبها الاستخبارات الاردنية . اخترقت بهما الحدود الى . . . لبنان .

كانت الاستخبارات المصرية في بيروت قد اعدت العدة . كمال جنبلاط تلقى مع السفير المصري عبدالحميد غالب رسالة من «الرئيس» لمساعدة السراج على الهرب من لبنان . الزعيم الاشتراكي أخفى السراج في حماه ومعاقلة بيت الدين وفي المختارة، الى ان نقلته باخرة مصرية الى الاسكندرية . فأصبح «السلطان الاحمر» في حمى الرئيس . . .

(١) - راجع نص مقال هيكل في فصل «شهود وشهادات»

شهادات وشهود



الانفصال

ورواية صلاح نصر

منذ البداية كان الانفصال هو القدر المحتوم الذي ستؤول اليه الوحدة بين دمشق والقاهرة .

فقد كانت مولودا غير طبيعي قفز فوق حقائق الجغرافية والتاريخ وعلم السياسة والاجتماع . . لذلك عندما حدث الانفصال في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ لم يكن مفاجئا الا بالنسبة الى «الرومانسيين» الذين كانوا يحكمون على ظواهر الامور دون الغوص في أعماقها وخلفياتها .

بل ان الانفصال لم يكن مفاجئا حتى «للسلطان الاحمر» نفسه .
من كتاب «عبدالناصر وتجربة الوحدة» ترك صلاح نصر، رئيس الاستخبارات المصرية ، والشاهد على الاحداث يروي حكاية الانفصال :

كان تشكيل الحكومة الواحدة في (آب) اغسطس من عام ١٩٦١ ، يهدف الى معالجة الاوضاع المضطربة التي سادت سورية في السنة الاخيرة، والتي بلغت ذروتها عقب اعلان القرارات الاشتراكية، والتي استغلت في سورية لتدعيم الجو المعادي للوحدة، وتصبغ عليها صبغة السيطرة المصرية على سورية، والتي لا تعامل على أساس التكافؤ مع الاقليم المصري .

والواقع ان تشكيل الحكومة هذه لم يساعد على ما كان يهدف اليه، ذلك لأن غالبية الاعضاء السوريين في هذه الحكومة، لم يكونوا مرتاحين لوضعهم في التشكيل الجديد، فمعظمهم كانوا يتصورون ان العملية تحوي عناصر كي تقلص سلطتهم، وتهمي لانخراجهم من الحكم .

وكان السراج اكثر الافراد شعورا بهذا التصور، لذلك كان الوزراء السوريون

وخاصة العسكريون، يعلنون في سورية سخطهم على أوضاعهم، وعلى هذا التشكيل الذي أجرتة القاهرة.

كانت أجواء سورية مهيأة لمثل هذا المناخ، كما كانت القوى العديدة المتحركة ضد الوحدة ترحب بما يعبر عنه أعضاء الحكومة من عدم الرضا.

وخلال شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٦١، عاد السراج من القاهرة الى دمشق وحرص ضباطه على الامتناع عن تنفيذ أوامر نقلهم الى القاهرة وقامت تشكيلات الاتحاد القومي بإيعاز من السراج باطلاق موجات من التذمر من القاهرة ومن مسلكها مع سورية، حتى ان هذه الاجهزة تناولت عبدالناصر بالذات بالتجريح، واهمته بالتنكر للمخلصين اليه من أمثال السراج.

وكان لا مفر في هذه الفترة من ان يقوم المشير عامر بالرد على تحركات السراج، ومحاولة توضيح الامور لكثير من الاوساط التي تأثرت بالشائعات.

كما انهمكت مخابرات الجيش بالالتفاف على محاولات التشويش التي كانت تغذيها اجهزة السراج والاتحاد القومي السوري. والى معالجة الفوضى السائدة في دمشق نتيجة محاولة اضراب المخابز، واضراب وسائل النقل الداخلي، ومحاولة اثارة بعض فئات العمال، ودفع بعض العناصر للقيام بالمظاهرات. وقد اشترك في هذا النشاط الشيوعيون والسوريون يدعمهم الاتحاد القومي السوري.

والواقع ان هذه الفترة المضطربة كانت فرصة لا تعوض سنحت للتنظيمات السرية القائمة في الجيش، كي تنشط بعيدة عن الرقابة، وتقوم باعداد نفسها لتنفيذ الانفصال.

وحقيقة كانت اجهزة الدولة في سورية في شلل تام. حينما تحركت القوات المسلحة السورية للاستيلاء على السلطة وتنفيذ الانفصال.

على أننا كي نعرف نشاط البعث في تلك الفترة، ينبغي ان نعود الى الوراء، الى اوائل عام ١٩٦٠ بعد استقالة وزراء البعث من حكم الوحدة. حيث تعذرت اللقاءات العلنية في سورية بين البعثيين القدامى الذين كانوا مبعثرين منذ سنوات، فعمدوا الى النشاط السري، حيث بدأ أكرم الحوراني نشاطه السري ضد حكم الوحدة استنادا الى المجموعات القديمة والجديدة التي كانت تؤمن بالولاء له، وتشاطره الآراء، بينما قام البيطار وعفلق بنقد نظام حكم الوحدة، والمطالبة بتجديد الوحدة من الداخل وليس من الخارج.

وفي محاولة لرأب الصدع، تقرر عقد اجتماعات اسبوعية بعد ظهر كل يوم جمعة في بيت الضابط المسرح عبد الغني قنوت، للوصول الى رأي موحد حول الموقف

الجديد من الوحدة ومن نظام عبدالناصر.

ودارت مناقشات مطولة حول دور الحزب ومسؤوليته تجاه الوحدة وتجاه عبدالناصر وتجاه الجماهير، ووفق الطرفان ظاهريا الى صيغة مشتركة تقضي بضرورة اعادة بناء الحزب بشكل سري خشية من رقابة المباحث السورية. لكن الاختلاف حول تجديد الوحدة وحول عبدالناصر استمر قائما بين الزعماء الثلاثة. فبينما كان أكرم الحوراني مقتنعا بضرورة الحفاظ على الشخصية السورية وتوحيد السياسة الخارجية والدفاع فقط، كان رأي عفلق والبيطار عدم فك الوحدة مع مصر، والنضال من أجل اقناع عبد الناصر بضرورة تغيير أساليبه وشكل النظام العام في سورية ومصر بالوسائل السلمية.

على ان اجتماعات يوم الجمعة في بيت عبد الغني قنوت لم تحسم الموقف بين مختلف تيارات البعث. وكان ميشال عفلق قد غادر سورية الى بيروت كاحتجاج على ما وصلت اليه الحال في سورية.

وفي شهر سبتمبر (ايلول) عام ١٩٦١ كانت الوحدة قد دخلت عامها الثالث. وكمحاوله لرأب الصدع والبدء بنشاط الحزب الجديد السري، تقرر عقد اجتماع للقيادة القومية. البعثية في فيللا الصنوبر في مصيف «برمانا» في جبل لبنان وذلك في منتصف شهر سبتمبر (ايلول).

وحضر الاجتماع صلاح البيطار وعبد الغني قنوت ممثلا الحوراني عن سورية، وفيصل الخيزران عن العراق، وغسان شرارة ونخالد يشرطي عن بعث لبنان. وقام المؤتمر بدراسة ما وصلت اليه الحال في سورية وتداولوا فيما بينهم حول افضل الحلول لاصلاح الموقف. وفي أثناء اجتماعاتهم وصل الى برمانا السيد محمد اليوسفي الجزائري مندوبا عن بن بلا الذي عرض عليهم التوسط بينهم وبين عبدالناصر لاعادة توحيد الصفوف والحفاظ على الخط الاشتراكي. وقد رحب المؤتمر بمندوب بن بلا، وظنوا ان هناك تحولا في خط القاهرة، واستبشروا بالوساطة، وعاد اليوسفي الى القاهرة لاتمام مهمته.

لكن تردي الاوضاع داخل سورية كان قد وصل الى نقطة الانفجار. فبينما كان قادة البعث ينتظرون جواب عبدالناصر على وساطة بن بلا، اذ يفاجئون باذاعة دمشق صبيحة الثامن والعشرين من سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ باذاعة البيان رقم واحد معلنا «قيام الانتفاضة المباركة وانهاء حكم الوحدة والتسلط المصري»، وكانت محطة الاذاعة تعزف النشيد الوطني السوري الذي لم يكن قد سمع منذ ثلاث سنوات او اكثر.

في ليلة ٢٨ من (ايلول) سبتمبر عام ١٩٦١ قامت بعض الوحدات العسكرية السورية بالتحرك نحو دمشق لتنفيذ الانفصال، وجرت الاحداث على النحو التالي:

أولاً: تحركت قوات البادية تحت قيادة حيدر الكزبري من منطقة الضمير على طريق الضمير-دوما-حريستا-دمشق، وهدفها استراحة المشير عامر في نهاية شارع المرج (. . .) الموصل الى منطقة المهاجرين، لقتل عبدالحكيم عامر، والقضاء على المقاومة التي تواجه القوة.

ثانياً: تحرك اللواء الاول المتمركز في قطنة وهو أقوى لواء في الجيش السوري حينئذ، وهو لواء محمول ويضم في تشكيله دبابات ومدفعية ميدان مضادة للطائرات، وكان على رأس اللواء المقدم مهيب الهندي رئيس اركان اللواء وهو صهر عبد الكريم النحلاوي.

كان هذا اللواء هو القوة الاساسية لتنفيذ الانفصال، ولذا قام عبد الكريم النحلاوي كاتم الاسرار بتركيز عدد كبير من ضباط الانقلاب به. كانت مهمة هذه القوة الاحاطة بمبنى الاركان ومبنى الاذاعة ومبنى الهاتف الآلي، كذا تأمين بعض مداخل دمشق التي يخشى ان تتحرك منها وحدات معادية لقوة الانقلاب.

ثالثاً: بالنسبة لباقي قطاعات الجيش، كان النحلاوي قد قام بتعيين ضباط موالين له فيها قبل بداية الانقلاب، بحيث ان اي تحركات للقطاعات، كانت ستؤدي الى انقسام فيها يعيق حركتها او تصديها. وهكذا ضمن الى حد ما تجميد الوحدات المعارضة للانقلاب.

رابعاً: أصدر النحلاوي تعليمات بالقبض على الضباط المصريين الذين كانوا يعملون في وحدات الجيش السوري، للحيلولة دون قيامهم بأية مقاومة. ناهيك ان التعليمات الاساسية التي كانت معطاة للضباط المصريين تؤكد على ضرورة طاعتهم لقادة وحداتهم وكانوا جميعهم - من مستوى كتيبة فما فوق - من السوريين، كما ان التعليمات كانت تقضي بعدم التصدي لمثل هذه المواقف التي تبلغ حد التقاتل وبخاصة ان الامر لم يكن محلياً في بداية التحرك، للانقلاب.

خامساً: الطيران السوري تحت قيادة العقيد موفق عصاصة وهو أحد أعوان النحلاوي الاساسيين والذي كان قد أعد الوضع في الطيران بحيث يضمن عدم قدرته على التحرك ضد الانقلاب.

قبل ان تبلغ الوحدات المتحركة دمشق كانت شعبة المخابرات العسكرية بقيادة العقيد السوري محمد الاستنبولي قد علمت بتحرك وحدات الانقلاب، فأخطرت المشير عامر في استراحته، الذي أمر فوراً بالاتصال باللواء جمال فيصل قائد الجيش، ورؤساء شعب الأركان كي يتوجهوا فوراً الى مبنى الأركان.

كذلك أعطى أوامره كي يجري اتصال مع الوزراء العسكريين لينضموا في مبنى الأركان.

وفعلاً وصل الوزراء السوريون العسكريون الى مبنى الأركان بالترتيب التالي: طعمة العودة الله وأحمد حنيدي الساعة الثالثة والنصف صباحاً، جادو عز الدين الساعة الثالثة وأربعين دقيقة صباحاً، أما أكرم ديرى فلم يكن في منزله في تلك الساعة المتأخرة.

وكان المشير عامر وقائد الجيش ورؤساء الشعب قد اجتمعوا في مبنى رئاسة الأركان، حينها وصل الوزراء العسكريون السوريون، أما أكرم ديرى فلم يكن موجوداً في منزله حينها تم الاتصال به الساعة الثالثة صباحاً، وتكرر الاتصال بمنزله، فكانت زوجته تجيب بأنه غير موجود.

وقرابة الساعة الثالثة وخمسة وأربعون دقيقة، سمع تبادل إطلاق النار في استراحة المشير وفي الساعة الرابعة صباحاً وصلت دبابات اللواء الأول السوري المتحرك من قطنة الى مبنى الأركان والاذاعة واحاطت بهما، واتضح حينئذ ان عبد الكريم النحلاوي الذي لم يكن قد حضر الى مبنى الأركان، كان مصاحباً للدبابات التي احاطت بمبنى الأركان، كما كان برفقته مهيب الهندي بوصفه قائداً للقوات المتحركة من اللواء.

وقرابة الساعة الرابعة والنصف اتصل أكرم ديرى هاتفياً بمبنى الأركان واستوضح عن الموضوع وذكر بأنه في طريقه اليه.

وجاء أكرم ديرى الى مبنى الأركان، وعند وصوله اليه، تصدى له حيدر الكزبري، وجرى نقاش بينهما. واستغرب الكزبري عن سبب مجيء أكرم ديرى للمبنى، فالمعروف لديه ان أكرم ديرى كان مع الانقلابيين، ونفى أكرم ديرى علمه بالانقلاب، وتراشقا بالسباب، فما كان من الكزبري - الذي كان ثملاً - الا ان اطلق النار على أكرم، واصابت طلقة ساق أكرم ديرى بجرح طفيف ودخل أكرم بعدها مبنى الأركان.

وقد فسرت هذه العملية بأنها تمثيلية الغرض منها ابعاد الشبهة عن أكرم ديرى، لا سيما بعد تأخره عن الحضور لمبنى الأركان للانضمام مع رفاقه من الوزراء

العسكريين، الامر الذي أثار الشك لدى زملائه، وقد ثبت لديهم انه كان خارج بيته في هذه الساعة المتأخرة، فاعتقدوا انه كان مجتمعاً مع بعض ضباط الانقلاب.

ومع الفجر بدأت الاتصالات بين الانقلابيين وبين المشير عبدالحكيم عامر، فكلف المشير كلا من جاسم علوان قائد اللواء المحاصر لمبنى الاركان - وكان جاسم قد استدعى للاركان من قطة الساعة الواحدة صباحاً من الليلة ذاتها - وجادو عز الدين واكرم ديري، بالاستفسار من النحلاوي والهندي عن أهدافهما، فأجاب النحلاوي بأن الحركة لا تستهدف سوى اجراء بعض الاصلاحات في الجيش بعد ان ساءت الامور الى الحد الذي اقتضى هذا التحرك.

واعلن النحلاوي انه يقوم بهذه الحركة وهو حريص على وحدة الاقليمين في الجمهورية العربية المتحدة، وعلى الاعتراف برئاسة عبدالناصر للجمهورية، وبقيادة عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة في الاقليمين المصري والسوري.

ونفى النحلاوي بأن تكون هذه الحركة هدفها اي غرض آخر أو القيام بعمل انفصالي.

ومن خلال هذه المبادئ اعلن النحلاوي عن رغبته في ان يقابل المشير عامر ويعرض عليه تصوره للاصلاحات التي يرى الجيش ضرورة القيام بها، لتنتهي الحركة وتعود القوات الى ثكناتها.

وقد طلب عبد الحكيم عامر من النحلاوي ان يسحب دباباته بعيداً عن مبنى الاركان لاثبات حسن نيته والواقع ان النحلاوي انصاع لهذا الطلب، وتراجعت الدبابات الى اطراف ساحة الاموين القائمة امام مبنى الاركان، والتي تبعد عنه مسافة صغيرة نسبياً.

وليطمئن النحلاوي على نفسه، طلب ان يوضع خارج مبنى الاركان مع الوحدات المحاصرة له بعض الرهائن، واختار ان تكون الرهائن مكونة من اللواء انور القاضي، والعقيد احمد زكي وهما مصريان، وقد وافق المشير على تأمين النحلاوي، فأمر اللواء القاضي والعميد احمد زكي بالخروج والوقوف مع القوات المتمردة.

وحينما قابل النحلاوي المشير عامر، اكد الاول ان حركته لا تهدف الى اي اغراض انفصالية، وان غرضها اجراء بعض الاصلاحات، منها تخفيف عدد الضباط المصريين في الجيش السوري وبخاصة في رئاسته، كذلك اجراء بعض التنقلات التي عرضها النحلاوي على المشير.

وتيسيرا لانهاء الحركة وسحب القوات الى قواعدهما، اقترح النحلاوي على المشير الموافقة على ترحيل بعض الضباط الى القاهرة وهم اللواء انور القاضي والعقيد احمد علوي ، والعقيد احمد زكي ، والعقيد محمد استنبولي رئيس شعبة المخابرات السورية ، والاخير من أبناء الاقليم السوري .

كذلك اقترح النحلاوي ترحيل الوزراء العسكريين الذي كانوا مجتمعين في الاركان ، وقد رحل الوزراء فعلا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر .

وكان النحلاوي قد اتفق مع المشير على صيغة بيان يعلن بعد اتمام عملية الترحيل هذه . ينهي بموجبه حالة العصيان وتعود الامور الى طبيعتها . وفعلا صدر البيان الذي سمي بالبيان رقم (٩) ، وأذيع من اذاعة دمشق وهذا نصه :

«ان القيادة العربية الثورية للقوات المسلحة تعلن انها لمست عناصر مخربة انتهازية تريد الاساءة لقوميتنا، فقامت بحركتها المباركة قلبية لرغبة الشعب العربي وآماله وأهدافه، وعرضت قضايا الجيش وأهدافه على سيادة المشير نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة الذي تفهم امور الجيش على حقيقتها واتخذ الاجراءات المناسبة لحلها لصالح وحدة القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة . وقد عادت الامور العسكرية الى مجراها الطبيعي اعتمادا على ثقتها بحكمة القائد العام للقوات المسلحة وقائد الجيش الاول اللذين يحققان اهداف القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة» .

وقامت في سورية نتيجة اعلان البيان مظاهرات ابتهاج وفرح لانتهاء الازمة، واعتقد الشعب السوري ان الامور ستعود الى ما كانت عليه .

ولكن النحلاوي وزمرته ما لبثوا ان نكثوا بالعهد، فقد صدر البيان رقم (١٠) يلغي مضمون البيان السابق ويعلن ان المشير عامر لم يوافق على ما جاء بالبيان السالف .

والواقع ان البيان رقم تسعة لم يكن سوى محاولة للمساومة او المناورة لكسب الوقت، وقد طلب الانفصاليون من المشير عامر قائد عام القوات المسلحة والفريق جمال فيصل قائد الجيش السوري - وهما تحت الحراسة - ان يعلننا بيانا بأن الامور قد انتهت . ولكن المشير عامر رفض طلب الانفصاليين، كما رفض جمال فيصل ان يعلن اي شيء، واصبحت حياتهما وحياة من معها معرضة للتضحية والخطر .

وقامت قوة الانقلاب بتفريق المظاهرات بعد اعلان هذا البيان، وعم الوجوم الكثيرين .

وبعد ترحيل الوزراء بما يقرب من الساعتين قام الانفصاليون بترحيل المشير عبد

الحكيم عامر الى القاهرة في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين مساءً، واداعوا بيان بذلك بعد ان استقل الطائرة مباشرة، عسى ان يقوم «اسرائيل» باقتناص طائرته كما حدث عام ١٩٥٦ مع طائرة مرافقي المشير.

على ان ما ينبغي ان نذكره هنا، هو ان النحلاوي بصفته عنصراً عاملاً داخل مبنى الاركان، عمل على تجنيد سرية الحراسة في مبنى الاركان الى جانبه، فحينها اطبقت دبابات الانفصال على مبنى الاركان، قام قائد سرية الحراسة بجمع افراد السرية التي كانت منتشرة في مواقع قتالية على سطح الاركان وفي ساحتها، وادخل أسلحتها الى مخزن الاسلحة، الامر الذي جعل المشير عامر وقيادة الجيش الاول بكاملها مجردة من أي عنصر للدفاع عنها.

وقد مكن ذلك النحلاوي وضباطه من ان يدخلوا أحد أجنحة المبنى ويشغلوه، وان يقيموا حراسة على هذا الجناح من العناصر المتمردة.

وبعد رحيل عبد الحكيم عامر عن دمشق. احس الانفصاليون بأن الامور استقرت لهم، وبدأوا اتصالاتهم الفورية مع القوى السياسية الانفصالية لتشكيل حكومة تطلب الاعتراف بها، تدعيها لموقف سورية.

وبالفعل تم تشكيل هذه الحكومة في الساعة الحادية عشر مساءً يوم ٢٨ من سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ برئاسة مأمون الكزبري الانفصالي العريق بخيائته. وتشكلت الوزارة الانفصالية على النحو التالي:

- مأمون الكزبري - للرئاسة والخارجية والدفاع - محام من دمشق.
- أمين احمد ناظيف - للزراعة والاصلاح الزراعي - مزارع من دمشق.
- احمد محمد سلطان - للاوقاف والعدل - محام من حماه.
- فؤاد العادل - للشؤون الاجتماعية - مدير ادارة في وزارة الشؤون الاجتماعية.
- فرحان الجندلي - للصحة - طبيب من حمص وعمل وزيراً في عهد الشيشكلي.
- ليون زمريه - للمالية والتموين - محام من حلب.
- عدنان القوتلي - للداخلية - محام من دمشق.
- عوض بركات - للاقتصاد والصناعة - نائب حاكم المصرف المركزي.
- عزت النص - للتربية والارشاد القومي - مدرس جامعي وصديق للشيشكلي.
- نعيان ازهري - للتخطيط والشؤون البلدية.
- عبد الرحمن حورية - للاشغال والمواصلات.

وما ان تشكلت هذه الحكومة حتى بادرت الاردن والسعودية والعراق وتركيا بالاعتراف بها، وهذا ما خلق وضعاً معقداً بالنسبة لمعالجة الوضع في سورية من

جانب عبد الناصر.

وطوال يوم ٢٨ من سبتمبر (أيلول) ١٩٦١ كانت جميع مراكز المحافظات السورية تحتاجها المظاهرات المؤيدة للقاهرة، ولم تبق عاصمة من عواصم المحافظات الا وسقط فيها في ذلك اليوم العديد من الشهداء على يد القوات العسكرية الموالية للانفصاليين.

وظل الموقف في كل في حلب واللاذقية متصديا للانفصاليين، وظلت اذاعة حلب تذيع البيانات التي تشجب الانفصال حتى الساعة الحادية عشرة مساء من يوم الانفصال، حتى تم اسكاتها، اذ ان قطاعات حلب كانت معادية للحركة الانفصالية.

غير ان بعض الضباط الانفصاليين مثل جورج محصل اعلن ولاءه لقائد المنطقة الشمالية المعارض للانفصال وكان يدعى العميد حكمت داية، واستأذنه ان يتحرك بوحدة عسكرية من مركز تدريب حلب الى المدينة لترابط في نقاطها الحساسة لتمنع اي عمل قد يقوم به الانفصاليون.

وكان العميد حكمت داية قد اذاع بيانا يستنكر التمرد هذا نصه:

«أيها الاخوة المواطنون في الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة: مما لا شك فيه ان الحركة التي قام بها بعض ضباط الجيش لم تكن ولن تكون باي حال من الاحوال الا دافعا لكم على التمسك والاتحاد وحافزا قويا يحدوكم للتكاتف والوقوف صفا واحدا متراصا للحفاظ على مكاسب القومية العربية والدود عن كيان هذه الجمهورية.

«فالجيش لا شك ولن يشك يوما بان دفاع ابناء هذا الشعب نحو تحقيق الاهداف السامية والغايات النبيلة وكله ثقة بوحدةكم الوطنية التي لا يمكن ان تصدع الاعاصير بناءها المتين، كما يؤمن ايماننا خالصا بتعلقكم بوحدةكم المباركة وجمهوريتكم العربية المتحدة والتفافكم حول رائدكم جمال عبدالناصر، وما دام الحق معكم فلا غالب لكم. والله ينصركم».

غير ان جورج محصل بدلا من ذلك، استخدم الوحدات التي وضعت تحت قيادته والتي تحركت الى المدينة، في تفريق المظاهرات التي كانت تندد بالانفصال وتهتف بالوحدة، واحتل قيادة المنطقة، واعلن تأييده لحركة النحلاوي، وقام باحتلال الاذاعة واعتقل قائد المنطقة.

اما في اللاذقية فقد ظلت حاميتها السورية حتى آخر ضوء ذلك اليوم على ولائها للجمهورية العربية المتحدة، غير ان قيادة الانفصال - خشية منها ان يقوم عبد

الناصر بعمليات انزال في منطقة الساحل - قامت بتحريك وحدات مدرعة ومحمولة من منطقة حمص وتلكلخ الى اللاذقية بحجة تعزيز حاميتهما، وعندما دخلت هذه القوات بقيادة المقدم محمد منصور الى اللاذقية، احاطت بقيادة المنطقة واعلنت ولاءها للانفصاليين، فأعلن كامل زيتونه قائد المنطقة ولاءه للانفصاليين، وهكذا كان زيتونه يلعب على الحبلين، وقد اعلن زيتونه ولاءه للانفصاليين قبل هبوط المظلات المصرية في منطقة الساحل.

وفي دير الزور اعلن محافظ دير الزور ان الشعب العربي في دير الزور يؤكد تمسكه بالوحدة العربية وجمهوريته الغالية، ويعلن استعداداه للبذل والفداء.

هكذا يروي صلاح نصر حكاية الانفصال الذي انهى الوحدة بين دمشق والقاهرة قبل حوالى ثلاثين عاما... كما انهى «الحقبة السراجية» في سورية ولبنان والاردن والعراق، ووضع نقطة النهاية لنفوذ «السلطان الاحمر».

السراج في رأي هيكل



يكتب محمد حسنين هيكل هذا المقال الطويل في «الاهرام» عقب الانفصال، وعبد الحميد السراج يرتعد في سجن «المزة» . . . يحاول هيكل فيه تبيان «لمسات ضوء» في شخصية سلطان دمشق وكلها في نظره «وطنية» و«مروءة» و«أقدام» . . . و«لمسات ظل» يختفي خلفها وجه السراج البوليسي القمعي الخاقد. ويستشهد هيكل على بوليسية حكم «السلطان الاحمر» بحكاية هو بطلها بالطبع . . . عن تجاوزات ضباط المخابرات في دمشق.

وما يستغرب له ان لا يثير هيكل وهو من ندماء رئيس مصر ورئيس اقليمي الجمهورية العربية المتحدة ما لمسه وعاشه أثناء زيارته المتكررة لدمشق من تجاوزات رجال السلطان وجواسيسه . . . فلا يتخذ صاحب القاهرة أي اجراء ردعي بحق نائبه و«عسسه»، الا اذا كان «الرئيس» في تلك المرحلة المحرض على تحكم وتسلط «السلطان» على البلاد والعباد وهو ما يراه كثيرون واقع الحال.

لقد وصلت الآن الى حكاية عبد الحميد السراج في تجربة الوحدة وصلت الى الحكاية على طريق الشوك.

والشوك على طريق هذه الحكاية بالذات أسبابه كثيرة.

* سبب منها، شخصي، بحث، أعترف به في مقدمة هذا الحديث مع تسليمي الكامل، بأن مثل هذا السبب ليس عنصرا له أهميته حين التصدي لمحاولة تحليل الظروف في حادث كبير من أحداث التاريخ.

هذا السبب هو انني أحب عبد الحميد السراج - وما زلت - برغم أخطائه التي لا أغمض عيني عنها - أشعر انه شاب عربي قومي مخلص.

* وسبب منها، ان حكاية عبدالحميد السراج نزل عليها ستار من الظلام الكثيف عقب الانقلاب على الوحدة في سورية، ولست أعرف عبدالحميد السراج الآن، وما هو رأيه فيما حدث؟ كل ما أعرفه ان عبدالحميد السراج معتقل، وأن صاحب الجلالة الملك سعود - بالذات - يطالب برأسه لكي يحمل اليه - حيث يكون - على طبق من ذهب!

* وسبب منها ثالث وأخير، هو ان القراء الذين يتابعون هذه السلسلة من المقالات باهتمام - كرما منهم وحسن ظن - لم يتركوني حتى أنتهي من كتابة حكاية عبدالحميد السراج، وانما سبقوني اليها بمجرد ان أشرت الى ان دور عبد الحميد السراج قد جاء في تجربة الوحدة...

ما كادت هذه الاشارة تظهر في ختام الحديث الماضي، حتى وجدت سيلا من الخطابات يفتحهم مكتبي.

وكان واضحاً من هذا السيل ان هناك تيارين يتنازعان الرأي العام فيما يتعلق بعبدالحميد السراج.

تيار عبر عن نفسه بعبارة في أحد الخطابات التي تلقيتها تقول :
«لا تقل بالله كلمة تسيء الى عبد الحميد السراج، لقد عمل من أجل الوحدة ما لم يعمله غيره، بل لقد جرب الذين قاموا بالانقلاب على الوحدة في دمشق ان يجروه الى التعاون معهم، ولكنه رفض، في حين ان الذين كانوا يناصبونه العداء، هرولوا الى الخضوع للانقلاب ووضع توقيعاتهم بالخط الكبير على بيانات رسمية بتأييده وبالسمع والطاعة له».

وتيار آخر عبر عن نفسه بعبارة مختلفة في خطاب آخر مما تلقيته عن خطابات... جاء فيها:

«ربما دفعتك محنة عبد الحميد السراج الحالية ووجوده في سجن «المزة» الى الدفاع عنه. ان الشعب «العربي» في سورية يمكن ان يغفر كل شيء الا الدفاع عن السراج فهو المسؤول الاول عن هذه النكسة، يكفي انه، وهو يزعم، السيطرة على كل شيء في سورية، لم يعرف بهذا الانقلاب الذي يدبر منذ سنوات ضد الوحدة، أما اذا كان يعرف، ولم يفعل شيئاً فالمصيبة أدهى».

طريق الشوك اذن طريقي الى حكاية عبدالحميد السراج.
من عاطفتي الخاصة له.

من الغموض الذي يحيط به، ويحيط بمصيره.

من موقف الرأي العام نحوه، ويروز تيارين فيه يتصارعان معا ولا يلتقيان أبدا .
ولكن الذي يسهل الامور علي الى حد بعيد هو اقتناعي الكامل بأنني هنا لا
أكتب تاريخا، فان الشرط الاساسي لكتابة التاريخ بصدق وأمانة، هو ان تكون
حوادثه قد ابتعدت طويلا مع السنين، وهدأت فيها حرارة العواطف مهما كان
اتجاهها، وتجردت الوقائع كلها من اي اثر للاتفعال . .
وحكاية عبد الحميد السراج، ما زالت حية .

ولست أدعي لنفسي التجرد، وكل ما أتمنى ان أدعيه لنفسي لو استطعت، هو ان
أكون صادقا مع نفسي في رواية الحوادث بقدر ما أراه بالفعل منها، وليس هذا تجردا،
فان كل انسان يحكمه تكوينه الفكري في نظره الى الحوادث، مهما طلب الصدق
وألح في طلبه، وأنا واحد من الذين يقولون بأنه لا شيء يمكن ان يوجد في فراغ،
حتى الحقيقة ذاتها، ومعنى ذلك ان الحقيقة في تصوري، كالهواء الذي يملأ غرفة
مكتبي، تحدده جدران الحائط وزواياه وارتفاعاته .

ولكني أكاد استطرده الى بحث فلسفي، يبعد بي عن حكاية عبد الحميد السراج !
وإذن أعود الى وقائعها !

من أين تبدأ حكاية عبد الحميد السراج
والرد على هذا السؤال :

انها تبدأ من قبل الوحدة بكثير، بل ان دراسة هذه الحكاية في بدايتها من قبل
الوحدة، اكثر ضرورة لمتابعة استمرار هذه الحكاية - طبيعيا - بعد الوحدة .
لمسات الضوء في صورة عبد الحميد السراج لمعت قبل الوحدة ولمسات الظل في
صورة عبد الحميد السراج لفها الغموض من قبل الوحدة .

لمسات الضوء في صورة عبد الحميد السراج ، في رأيي ثلاث :

١- كان عبد الحميد السراج في الفترة الحرجة، من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٨
ايام ضغط حلف بغداد على سورية، وايام محاولة الحزب الشيوعي للسيطرة على
سورية، واحدا من مجموعة الشباب الوطني في الجيش السوري ، الذين قدروا على
حماية استقلال سورية، وصمدوا لمختلف أنواع المؤامرات، سواء منها التآمر بالاغراء
أو التآمر بالارهاب، اي التآمر بسلاح المال او التآمر بسلاح القتل، كان عبد الحميد
السراج واحدا من هذه المجموعة من الشباب الوطني . . بل كان بحكم عمله في
رئاسة المكتب الثاني - المخابرات - أظهر أفراد هذه المجموعة، فان منصبه يعرضه،

وبفرض عليه بدوره ان يتعرض لمواجهة هذه المؤامرات ، بكشفها وتحطيمها .
٢- كان عبدالحميد السراج ، في اليوم الاول من شهر تشرين الاول (نوفمبر) ١٩٥٦ ، هو الذي أخذ على عاتقه عملية نسف انايب البترول القادمة من العراق عبر سورية الى البحر .

وكان نسف انايب البترول ، وتوقف تدفقه من العراق عبر سورية الى البحر ، خصوصا بعد اغلاق قناة السويس بحكم العمليات العسكرية الهائلة التي دارت خلال معارك العدوان الثلاثي على مصر في تلك الفترة ، عاملا هاما من عوامل النصر الذي أحرزته قوى « القومية » العربية ضد قوى الاستعمار وأدواته التي أرادت في ذلك الوقت توجيه الضربة الساحقة الى قاعدة التحرر العربي في مصر سنة ١٩٥٦ .

ولقد ثارت عليه بسبب ذلك ثائرة الوزارة القائمة بحكم في سورية وقتها واتهمته بتعريض سلامة سورية للخطر .

ولكن ما حدث . . كان قد حدث فعلا . . ولم تصل ثورة الوزارة الى نتيجة ، بحكم الامر الواقع . . وبحكم العجز ايضا .

٣- كان عبدالحميد السراج هو بطل قصة ملايين الملك سعود الشهيرة التي أرادت ان تتأمر على الوحدة في يومها الاول .

وصحيح ان وسطاء الملك سعود حاولوا الاتصال بمجموعة الضباط الوطنيين في الجيش السوري في ذلك الوقت . كلهم ، وصحيح ان هؤلاء جميعا حولوا الموضوع بأكمله الى عبد الحميد السراج بوصفه رئيس المكتب الثاني ليتولى تسجيل المؤامرة وكشفها ولكن عبد الحميد السراج تلقى باسمه مليوناً وسبعمائة وخمسين ألف جنيه استرليني ، ولم يستطع هذا المبلغ الطائل الذي تتحطم أمامه مقاومة كثيرين ، ان يكون بالنسبة لعبد الحميد السراج ، الا دليلا في قضية . . لا اكثر ولا أقل .

لم يفكر عبدالحميد السراج لحظة في قيمة شيكات الملك سعود كأموال .
وانما كان فكره فيها طول الوقت انها مجرد وثائق تدين الملك وتثبت عليه التآمر وتكشف الرجعية العربية أمام الرأي العام العربي .

هذه لمسات الضوء في الصورة ، وفيها دون جدال ومضات باهرة . ثم انتقل الـ لمسات الظل .

لمسات الظل ثلاث أيضا :

١- القوة ، في تقديري هي لمسة الظل الاولى في شخصية عبدالحميد السراج

وأعني بالقوة هنا . . . تجميعها والامساك بها ولم خيوطها جميعا في قبضة يد واحدة .
كان عبد الحميد السراج - ولقد أكون مخطئا - يحب القوة، وحب القوة يحمل في طياته الرغبة في الانفراد بها فان الذي يحب القوة يعتقد ان توزيعها على الايدي الكثيرة ينتقص من احساسه بها في يده .

من هنا . لم يكن عبد الحميد السراج ، وسط الكتل المتصارعة في الجيش السوري قبل الوحدة يمثل كتلة او يقود مجموعة ، كان بعيدا عن كل الكتل والمجموعات ، وكان في نفس الوقت على اتصال بها جميعا ، وان كان سنده الرئيسي هو كتلة الضباط الوطنيين في الجيش .

وحين صدرت سنة ١٩٥٧ حركة تنقلات في الجيش - صدرت بتحريض الملك سعود وضغطه على شكري القوتلي وبمساندة أمين النفوري الذي كان رئيس الشعبة الاولى في الجيش وقتها - وتضمنت هذه الحركة نقل عبد الحميد السراج من منصب رئيس المكتب الثاني - اي المخابرات - كانت كتلة الضباط الوطنيين هي التي هددت باجراء انقلاب اذا لم يبق عبد الحميد السراج في مكانه . . . وبقي .

وليست القوة ظلا ، ولكن الظل يلحق بها اذا كانت القوة غاية ولم تكن وسيلة .
القوة مطلب للثأر لأنها أداة تغيير ثوري والسلطة طاقة دافعة تستطيع ان تفرض الفكرة المثالية على التجربة وتمنحها فرصة الحياة .

وليست القوة غاية في جد ذاتها وليست السلطة رغبة شخصية والا أصبحت مقدمة ضاعت منها نتيجتها والا خطوة تعلق في الهواء دون مقصد او هدف .

٢- وتقودني هذه النقطة الى لمسة الظل الثانية في عبد الحميد السراج .
هذه اللمسة هي ان عبد الحميد السراج لم يكن بطبيعته ، أو بحكم ما أحاط به من ظروف ، ثوريا اجتماعيا .

من هنا فان القوة في يده وصلت الى طريق مسدود .

لقد جمع في يده من السلطات قبل الوحدة ، ما لم يتجمع في يد فرد .

في درج مكتبه كل المفاتيح ، وأصابه على كل الازرار .

ولكن ماذا بعد ذلك ؟

لم تكن القوة في يده الا صراعا على القمة ، من أجل مزيد من السلطة ، ولكن القوة لم تواصل سيرها من يده لتتزل الى الجماهير السورية لتكون أداة مؤثرة وقوة دافعة لنضال الشعب وان كنت هنا لا أقلل من قيمة الدور الذي لعبته القوة التي ركزها عبد الحميد السراج في يده في حماية الاستقلال السوري قبل الوحدة .

٣- من هذه النقطة ايضا جاءت لمسة الظل الثالثة في شخصية عبد الحميد

السراج، وتلك هي ايمانه بالوسائل البوليسية.
كان يريد أن يعرف كل شيء عن كل الناس، لا تفوته حركة، ولا تفلت سمعه
همسة.

وفي الدعايات التي توجه ضد الجمهورية العربية الآن، ما يقال من ان
عبد الحميد السراج كان يراقب جميع تليفونات خصومه، ولكن الذي لم يقله
أحد - وان كان حقيقة - هو ما تبين من ان عبد الحميد السراج كان يضع تليفونات
زملائه في الوزارة أنفسهم تحت الرقابة.

ونتيجة لهذا فان جهاز البوليس تحت اشرافه توغل واستشرى.
هنا أيضا لم يعد جهاز البوليس وسيلة تحمي المجتمع وتخدم القانون..
وانما في بعض الاحيان فلت جهاز البوليس فأصبح فوق المجتمع وفوق القانون
وكانت هذه بالذات.. اعقد المشاكل في سورية.

ولقد كنت اسمع كثيرا عن جهاز عبد الحميد السراج البوليسي ولم أكن أصدق..
حتى جربته بنفسي.. ورأيت به بعيني وجهها لوجه.

في ليلة من ليالي تشرين الاول (أكتوبر) سنة ١٩٥٩ كنت في دمشق.
وكان المشير عبد الحكيم عامر قد وصل اليها منذ أيام في مهمة رسمية.
في تلك الليلة، قابلت في فندق أمية الجديد، الصحافي الأميركي المشهور هاري
ايليس، وكان قد جاء من بيروت بناء على موعد مع المشير عبد الحكيم عامر حدده
المكتب الصحافي لسفارة الجمهورية العربية المتحدة في بيروت.

وقال لي هاري ايليس:

- لقد عدت الان فورا من موعد مع المشير عبد الحكيم عامر..
وجلست مع هاري ايليس في بهو فندق أمية نتحدث معا في قصص وذكريات
وتجارب، واجهناها معا ايام كنا مراسلين حربيين في كورية قبل ما يقرب من عشر
سنوات...

وتركت هاري ايليس وصعدت الى غرفتي في الفندق لانام.
ولم تمض الا بضعة دقائق حتى سمعت طرقة على الباب، وفتحت واذا شاب يقدم
لي نفسه باعتباره من المكتب الثاني... ودهشت.

وقال لي الشاب في رقة وأدب شديدين:

- سيدي... ألم تكن الان مع هذا الصحافي الأميركي... «ايليس»؟

قلت له : نعم .
قال : عرفنا انه قابل المشير الليلة . .
قلت : هكذا سمعت منه .
قال : ألم يقل لك ماذا سمع من المشير؟
وتحولت دهشتي الى ذهول ، وقلت له :
- هل تسمح لي ان أسألك . . لماذا تريد ان تعرف؟
قال ببساطة :
- لأكتبه في التقرير .
قلت :
- تقرير . . لمن سوف تكتب التقرير؟
قال :
- لوزير الداخلية .
قلت :
- لا أظن ان وزير الداخلية - عبد الحميد السراج - يحتاج الى تقرير في هذا الامر ،
ان حديث ايليس دار مع المشير ، ويستطيع وزير الداخلية ان يسأل فيه المشير رأسا .
قال الشاب بحزم :
- سيدي . . ظننتك تستطيع مساعدتي بدل ان أسأل الرجل الاجنبي نفسه . . .
وأحسست بقلق ، لقد تصورت ما يمكن ان يحدث لو ذهب هذا الضابط الشاب
من المكتب الثاني الى هاري ايليس وسأله عن حديثه مع المشير عبد الحكيم عامر .
ما الذي يمكن ان يفهمه هاري ايليس من هذا الوضع؟
أغلب الظن انه كصحافي مجرب وقديم ، سوف يفهم منه الكثير .
وقررت على الفور ان لا أترك الامر .
سكت لحظة ثم قلت لضابط المكتب الثاني الشاب :
- اسمع . . ما رأيك لو انتظرت الى الصباح ، وأنا أعطيك كل ما سمعته من
هاري ايليس عما دار بينه وبين المشير .
قال الضابط الشاب :
- ألا تستطيع ان تفعل ذلك الآن؟
قلت :
- نحن الآن في الواحدة من الصباح ، ولقد كنت على وشك أن أنام كما ترى ،
والمسألة كلها بضع ساعات .

قال الضابط الشاب :

- في الصباح الباكر . . حتى أكتب تقريرى قبل ان تفتح الدوائر الحكومية .
قلت : في الساعة صباحا سوف أكون تحت أمرك .

وأقلت الباب وأنا أفكر كيف أتصرف في الامر بهدوء ، كان همى كله ان لا تبدو الجمهورية العربية المتحدة امام صحافى اجنبى غريب في صورة تثير فضوله ومن يدري ماذا يمكن ان تثيره بعد الفضول ، ثم وصلت الى حل ، ورفعت سماعة التليفون وطلبت هارى ايليس وكان ينزل في نفس الفندق وقلت له :
- هارى . . يبدو ان صحافيا آخر حصل على حديث من المشير . وفي رأيى ان لا ننتظر للغد حتى تبرق بحديثك معه ويسبقك الصحافى الآخر .
انك لن تجد مكتب البرق مفتوحا في دمشق الآن ، لهذا فاني أقترح عليك ان تترك سيارتك فورا الى بيروت وتبرق بحديثك مع المشير قبل الفجر وتسبق به غيرك .

واعتبرها الصديق الطيب جميلا أسديته اليه تطوعا ووفاء .
وظللت بعدها أشعر بوخزة الضمير . . ولكن المهم ان هارى ايليس خرج من دمشق ووصل الى بيروت قبل الصباح .

ودق جرس التليفون بجوار سريري في الساعة السابعة صباحا .
وكان المتحدث هو ضابط المكتب الثانى الشاب يذكرني بموعده معى وقلت له :
- متأسف . . هل تتركنى لأنام ؟
قال :

- ولو . . أما وعدتني ان تحكى لي ما قاله لك ايليس من حديث المشير معه ؟
قلت له ببساطة :

- لم يقل لي شيئا في هذا الموضوع .
قال بحدة :

- شوها الحكى .

قلت بهدوء :

- هذا ما حدث . .

واقفل التليفون غاضبا ، ولكن الصمت في الحجرة بعد بضع دقائق تمزق وتبدد من طرقات عنيفة عل الباب ، وقمت لأفتح ، وكان هو بنفسه ضابط المكتب الثانى

الشاب . . . جاء ثائرا غاضبا بعد ان عرف ان هاري ايليس نفسه غادر الفندق في الفجر وانطلق على طريق بيروت .

ولقد أطلت في هذه الحكاية عن عمد . . . فهي في رأيي ترسم صورة عشتها بنفسي ورأيته .

وهذا أول مرة أسمح لنفسي ان أرويه ، وان كانت قد أثارت في عديد من المناسبات أسئلة كثيرة في خاطري .

* مثلاً . . . هل يعرف عبد الحميد السراج ما كان يفعله ضابطه الشاب ؟ .

* مثلاً . . . هل يمكن ان تصل الامور الى هذا المدى بغير علمه ؟

* مثلاً . . . اذا كان هذا يمكن ان يحدث معي - وأنا صحافي - يملك ان يكتب وان يتكلم ، فما الذي يمكن ان يحدث مع غيري ممن لا يملك وسيلة للكتابة او للكلام ؟

* ومثلاً . . . وهذا هو الهم . . . انني أجيء الى دمشق زائراً ثلاث مرات او اربعاً في السنة . . . فما الذي يحدث للذين يعيشون فيها طول السنة ؟

ولست أريد ان أقسو على عبد الحميد السراج ، فلقد يكون فيها جرى ، لغيري ولي ، كثير لا يعلمه . . . ولكن المشكلة ان الاجهزة البوليسية اذا تركت من غير حدود تقف عندها فانها تكتسب طبيعة سرطانية قاسية ومدمرة .

كانت هذه لمسات الضوء ولمسات الظل في صورة عبد الحميد السراج قبل الوحدة .

وفي عهد الوحدة كبر عبد الحميد السراج .

لم يعد رئيس المكتب الثاني . . . وانما وصل حتى أصبح نائباً لرئيس الجمهورية . . .

وكانت لمسات الضوء فيه من قبل الوحدة نقطة انطلاقه الى مكانته البارزة في النظام الجديد .

كان ديدبان الحراسة ضد المؤامرات في الفترة الخرجة .

كان منظم عملية نسف خط أنابيب البترول .

كان ممثل دور البطل في الدراما العنيفة التي ظهر فيها الملك سعود في دور قوى الشر الرجعية التي حاولت بالمال وبالغواية ان تفسد وان تحطم .

ومن هذه الانطلاقة أصبح لعبد الحميد السراج وضع خاص في تجربة الوحدة .

وكانت لهذا الوضع الخاص احتمالاته . . وخطاره .

أولا - أصبح عبد الحميد السراج بالنسبة لكل الذين يكرهون الوحدة هدفا يسهل التركيز عليه .

ان ظروف الحوادث نفسها وضعت موضع البطل في مواجهة قوى الشر . . . ولما بدأت قوى الشر تضرب انتقاما لنفسها كان محتما ان تكون بعض ضرباتها موجهة له .

هكذا اخذته الرياض وعمان وبغداد تحت الحكم الهاشمي - وبعده لسوء الحظ - هدفا مكشوقا لحمالاتها ، وأخذته قوى الاستعمار ايضا وراء هؤلاء ، وفي ذيل الجميع بطبيعة منطق الحوادث . . . أخذته ايضا «اسرائيل» .

ثانيا - أصبح عبد الحميد السراج بالنسبة لعدد كبير من سياسة سورية القدامى ، حتى اولئك الذين انساقوا منهم في صدر تيار الوحدة ، خطرا داهما ، بحكم ما يعرفه عنهم . . . وقد كان عبد الحميد السراج يعرف عنهم الكثير ويبقيه تحت يده ، ومن هنا فاني لا اتصور ان حكومة الانقلاب في دمشق سوف تحاكم عبد الحميد السراج . . . فلو أعطيت له فرصة للمحاكمة وتكلم لاستطاع وهو في قفص الاتهام ان يضع الحبل حول رؤوس الذين يدعون عليه بالاتهام ، ولتمكن منهم قبل ان يتمكنوا منه . وطوال سني الوحدة . . كان عبد الحميد السراج هدفا لحمالات الكراهية المنظمة والهمس المسموم .

ثالثا - زاد على ذلك كله ، وضع آخر ، يختلف في طبيعته .

ذلك هو علاقة عبد الحميد السراج بغيره من كتلة الضباط الوطنيين في الجيش . . هؤلاء الذين كانوا يسندونه فيما مضى ، ثم وجدوه فجأة يكبر عليهم ويتقدمهم في الشوط بكثير .

هنا مشكلة انسانية بحتة ، سمعت واحدا من الضباط الوطنيين يعبر عنها مرة في صدق وطيبة بقوله :

- لقد كانت لعبد الحميد السراج في حمل الجمل قشة ، ولكنه بالقشة أخذ الجمل بما حمل .

ولقد كان يمكن ان يتحسن الموقف لو ان لمسات الظل في شخصية عبد الحميد السراج توارت أمام لمسات الضوء ، ونبت بعد انطلاقة عبد الحميد السراج الكبرى

بعد الوحدة الى آفاق النجوم .
لكن لمسات الظل ، حتى في آفاق النجوم ، بقيت في مكانها .
* القوة . . . حب القوة .
* القوة كغاية . . . وليس كوسيلة لتغيير ثوري .
* الفكرة البوليسية .

ومن القوة ، من حب القوة ، كانت المشاكل التي تعرض لها عبد الحميد السراج ، وعرض لها الجمهورية العربية المتحدة كلها ، لكي تكون كلمته في النهاية هي الكلمة في سورية .
وكان عبد الحميد السراج ، قبل اقامة الحكومة الموحدة للجمهورية العربية المتحدة ، في شهر تموز (يوليو) ، من اكثر المتحمسين لتوحيد الحكومة والغاء المجالس التنفيذية .
ولكن الواضح اليوم ، انه كان يتصور وقتها ، ان طبيعة الظروف سوف تتركه نائبا لرئيس الجمهورية في دمشق .
وفي الظروف السائدة في سورية ايامها كان ذلك أمرا يصعب قبوله .
ولربما كانت من هنا حساسية عبد الحميد السراج بعد ان عرف ان منصبه يقتضيه العمل في القاهرة .
كذلك من هنا المشكلة التي ثارت بينه وبين المشير عبد الحكيم عامر الذي كلف بالسفر الى دمشق والبقاء فيها فترة توحيد الحكومة وفترة تطبيق الاجراءات الاشتراكية الثورية . . قوانين (تموز) يوليو سنة ١٩٦١ .

ولو كانت القوة في تصور عبد الحميد السراج وسيلة في يد الثائر لدفع التغيير الثوري ، وليست غاية في حد ذاتها لاختلف تصرفه في المشكلة التي أثارها بسبب مهمة المشير عبد الحكيم عامر في دمشق .
في تلك الفترة الحساسة في اعقاب صدور القوانين الاشتراكية ، وبدء تنفيذها ، عاد عبد الحميد السراج فجأة من القاهرة الى دمشق ، بجمع أوراقه من مكتبه في وزارة الداخلية ويقول : انه لا يريد ان يعمل .
ثم ترك بعض ضباطه المقربين اليه دورهم كحراس للامن وراحوا يتصلون ببعض العناصر لكي تثير الشغب وتحرك القلاقل ليكون الضغط الذي يبقى بعده - عبد الحميد السراج - وحده في سورية .

وكان بعض هؤلاء الضباط في علاقاتهم بالناس قد تركوا اثرا رؤي معه ضرورة ابتعادهم عن دمشق ، وفوتح عبدالحميد السراج في ذلك من قبلها ، وطلب اليه ان ينتدبهم معه للعمل في القاهرة وقبل ، ولكنهم فجأة ت لكأوا في القدوم الى القاهرة وانساقوا في نشاطهم العصبي بحماقة لا يبرها اي قدر من افتراض حسن النية .

ثم جاء ضياع أعصاب عبدالحميد السراج ، هذا الضياع الذي حمله على الاستقالة . . جاء بذلك القرار الذي أصدره المشير عبدالحكيم عامر بتاريخ ١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ والذي نص فيه على ما يلي :

«يمنع توقيف - اعتقال - اي شخص الا بمذكرة من النيابة العامة اي انه لا يجوز لاية سلطة من سلطات الامن توقيف اي مواطن الا اذا كان هذا التوقيف عن طريق السلطة القضائية . اي النيابة العامة» .

وفي نفس اليوم أصدر المشير عبدالحكيم عامر قرارا بتعيين مدير جديد للامن العام بدلا من العقيد مروان السباعي .

وكان العقيد مروان السباعي مشرفا على ما كانوا يسمونه بالمكاتب الخاصة التابعة لوزارة الداخلية تعطي نفسها سلطة اعتقال اي مواطن والتصرف معه كما تشاء ، بحجة دواعي الامن .

ومع ان انهاء الجو البوليسي كان رغبة شعبية في سورية .

ومع ان بعض الذين كانوا يعملون في البوليس في خدمة الامن بدأوا فجأة يعملون ضد الامن بالتحريض على الاثارة وتحريك القلاقل حتى في اوساط العمال وفي داخل الاتحاد القومي ذاته .

مع ذلك كله ، فان عبدالحميد السراج اعتبر القرار الذي صدر بمنع اعتقال اي مواطن عن غير طريق السلطة القضائية ، ويتغير مدير الامن العام ، اعتبره على حد قوله «شرشحة» له .

ومن ثم أصبح الموقف في دمشق بالغ الدقة .

وصدر أمر من القاهرة بأن يركب المشير عبدالحكيم عامر ومعه السيد عبدالحميد السراج طائرة واحدة ويحيثان معا اليها لمقابلة رئيس الجمهورية .

واجتمع الرئيس جمال عبدالناصر بكل منهما في القاهرة ، ثم اجتمع بهما معا ، ثم توالى اجتماعاته مع عبدالحميد السراج يحاول اقناعه بمنطق العقل ان لا ينساق وراء عصبية .

وكان في المشكلة جانبها العاطفي ، وهو ان جمال عبدالناصر يحب عبدالحميد السراج كشاب عربي وطني مخلص ، ولكنه بالتأكيد يحب شعب سورية اكثر منه . كان يحبه وهو يرى الضوء في شخصيته ويرى الظل .

وكان أمله ان يتمكن الضوء يوما من الغلبة على الظلال كلها وتبديدها وفعل جمال عبدالناصر مع عبدالحميد السراج ما لم يفعله مع غيره . . . قابله خمس مرات ، استغرقت ما يقرب من عشرين ساعة . حاول فيها أن يجعله يرى الحقيقة كما هي .

كان بين ما قاله جمال عبدالناصر :

- انني لا استطيع ان افهم تصرفاتك وتصرفات رجالك في دمشق . لقد قابلتكم جميعا - انت وعدد من الوزراء السوريين - في الاسكندرية في شهر تموز (يوليو) الماضي وتحدثت اليكم عن نيتي في توحيد حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، بل ويومها تحدثت اليكم بصراحة ليس بعدها صراحة .

قلت لكم يومها انني لا استطيع ان اترك الاحوال في الاقليم السوري تمضي كما كانت تمضي .

لقد كانت لكل منكم في الاقليم جماعته ومعنى هذه الجماعات المتفرقة ان يتمزق الوطن الواحد . . .

قلت لكم انكم ، وانتم دعاة الوحدة وأنصارها ، قد سببتم لي من المتاعب ما لم يسببه اعداء الوحدة وخصومها وانه لولا ايماني بالجماهير السورية نفسها ، ولولا ثقتي فيها ، لكنت طلبت من شكري القوتلي ان يتسلم رئاسة الجمهورية في سورية ويعفيني منها ، ولكني في سبيل الجماهير السورية وحدها اتحمل ما اتحملة .

ولقد اخترتك نائبا لرئيس الجمهورية واعطيتك اوسع الاختصاصات وطلبت منك قبل سفري الى بلغراد لحضور مؤتمر الدول غير المنحازة ان تتحمل مسؤوليتك الكبيرة على مستوى الجمهورية كله ، ولكني فوجئت بما فعلته بعد ذلك في دمشق ، ثم بالذي فعله بعض رجالك ، واتضح لي ان كل الذي تريده ان تبقى حاكما لسورية . . وأنا أريدك مسؤولا في الجمهورية العربية المتحدة كلها .

ثم من ناحية أخرى أنت تعرف رأيي في كثير من اجراءات البوليس في دمشق ، ولقد قلت لك انها في كثير من الاحيان تضر بسمعة الجمهورية اكثر مما تخدم أمنها . . وأنا أقدر حسن نيتك فيما تفعله وافهم ان الاخلاص للجمهورية هو الذي يدفعك اليه ولكن الأمور لا تحتاج الوصول الى هذا المدى الذي يصل اليه بعض رجالك في بعض الاحيان .

ولم تستطع لمسات الضوء ان تظهر لمسات الظل .
واستقال عبدالحميد السراج .
وهو الآن في سجن «المزة» في دمشق ، وبالرغم من كل شيء ، فاني أشعر ان جزءا
من عواطفني معه وأسأل نفسي :
- ترى ماذا سيكون من اثر المحنة عليه؟
وفي منأى ان يكون الضوء في شخصيته قد انتصر على الظلال ، وصهرها وأذابها .
لا من أجل شيء ، ولكن من أجله هو كشاب عربي وطني مخلص يحمل في
التاريخ المعاصر لـ الأمة العربية كثيرا من المسؤوليات ، ولعب يوما من الايام دور
البطل أمام قوى الشر الرجعية ، وارتفع مرة من المرات الى آفاق النجوم .

التنظيمات السرية داخل الجيش السوري



كشف الانفصال والفترة التي اعقبته انه كان هناك اكثر من تكتل انفصالي داخل الجيش ، كما تكشف ايضا ان عبد الكريم النحلاوي كان على علم وعلى صلة بكل التكتلات الاخرى .

وكان تعاونه معها بحيث يظل هو بتنظيمه قادرا على الاستفادة من باقي التكتلات وعلى ابقائها خاضعة لتنظيمه وتابعة له . وغير قادرة على التمرد عليه . وكانت أهم التنظيمات القائمة في الجيش السوري قبل الانفصال كما يلي :
اولا : تنظيم حيدرالكزبري ، وكان قوام هذا التنظيم وحدات البادية المحمولة ، وبعض الافراد العسكريين المتعاطفين معه والمبعثرين في بعض القطعات القريبة من دمشق .

وكان الكزبري على اتصال بالمخابرات الاردنية منذ سنة سبقت الانفصال ، وكان النحلاوي على اتصال بالكزبري يشجعه ويطلع على كل نشاطه وتحركاته ويعرف حجم قدرته العسكرية التي لم يكن يخشاها النحلاوي ، بل على العكس كان متأكدا دائما بأنها ستكون عند العمل تحت سيطرته ، وستعمل وفقا لمخططه .

كما كان عبد الحميد السراج يلم بنشاط الكزبري وعلى صلة بأفراد تنظيمه . ويعرف كل تحركاته ، وصلته بعبد الكريم النحلاوي ، وبمباركة الاخير للكزبري . وكان عبد الحميد السراج يشجع الكزبري ظنا منه انه سيكون قادرا على ابقائه في نطاق سيطرته ، كما كان يظن ان في قدرته استخدامه في الوقت المناسب لتحقيق مصلحته وتحقيق اطباعه وتطلعاته .

وكانت المعلومات التي يقدمها عبد الحميد السراج لعبد الناصر عن خيوط شبكة الكزبري بالقدر الذي لا يؤول على انه حجب معلومات تمس امن الوحدة السورية - المصرية عن رئيس الجمهورية .

كانت المعلومات التي يقدمها عبد الحميد السراج لعبد الناصر تشير الى ان الوقت لم يكن بعد لالقاء القبض على عناصر هذا التنظيم ، لانه لا يزال في وضع لا يشكل اي تهديد او خطورة .

ثانيا : تنظيم اكرم الديري ، حرص اكرم الديري بعد خروجه من الجيش الى الوزارة ، ان يبقي صلته قائمة بمجموعة من الضباط الدمشقيين او ما يطلق عليهم «الضباط الشوام» على رأسهم محمد منصور وعدنان شيخ فضلي ومأمون قضايني ، بهدف ان يبقى على علم بما يجري في الجيش ، وبخاصة وقد أحس بأن الوضع في الجيش لا يكن اي روح عدائية نحو تكتلات غير حزبية ، مثل تكتل الضباط الشوام .

وكان أكرم الديري يرى في بقاء النحلاوي في رئاسة ادارة كاتم اسرار ضبانا بعدم مس هذه الفئات كما كان أكرم الديري يدرك ان جمال فيصل قائد الجيش لن يقدم على الاضرار بهذه المجموعة حتى لو شعر بتكتلها . لانه كان من طبيعته عدم اقحام نفسه في المشاكل .

وبعد تشكيل الحكومة الواحدة في آب (اغسطس) عام ١٩٦١ ، كان أكرم الديري من العناصر غير الموافقة على تشكيلها ، وغير الراضية عن مناصبهم فيها ، فنشط في اتصالاته العسكرية ، وبدأ يحاول ان يجعل من هذه المجموعة فئة يركز اليها في هذه المرحلة القلقة من حياة الوحدة .

وكان أكرم الديري يعلم خلال هذه المجموعة بتحركات حيدر الكزبري وكانت علاقة اكرم بالكزبري ودية بالذات ، بغرض ابقاء الاتصال معه لاستخدامه اذا ما دعت الضرورة .

وكان اكرم يعرف ايضا من خلال هذه المجموعة ان عبد الكريم النحلاوي متعاطف مع الضباط الدمشقيين ويسهل لهم أمورهم .

ومن خلال أكرم الديري اطلع عبد الحميد السراج على هذا التكتل . ولما كان كل من السراج وديري غير راض عن نظام الحكم الواحد ، فقد بدأ كل منهما يتصل بالآخر للتعاون معا .

ولقد اتصل الاثنان في ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٦١ بجمال فيصل قائد الجيش الاول في بلودان ، وعرضا عليه القيام بحركة بهدف اصلاح الامور في سورية ، بعد ان وصلت - على خد تعبيرهما - الى ما وصلت اليه من سيطرة مصرية تامة على سورية واوحيا اليه انه رجل الساعة في سورية ، الذي يستطيع ان يلعب دورا اصلاحيا هاما .

وقد اخفى عبد الحميد السراج هذا اللقاء عن عبد الناصر ، لانه كان ضالعا بذاته في التآمر هذه المرة .

ثالثا: تنظيم المقدم عبدالله الشيخ عطية.

كانت هذه المجموعة تضم مجموعة من الضباط حريصة على الوحدة، وتحس بهذه الاجواء التي كانت تسود الجيش ومن بلبلة نتيجة الاشاعات الكثيرة التي تروجها الجهات العديدة، سواء مدنية او عسكرية، وفي مقدمتها الحزبيين والمخابرات والمباحث السورية معا.

هذه المجموعة كانت تبحث عن أسلوب تستطيع به طرح هذه المشكلات، والمطالبة بحسم الامور واصلاحها في الجيش. وكان قائد هذه المجموعة تربطه بأحمد حنيدي أواصر رباط اقليمية، فكلاهما من منطقة دير الزور، وقد علم حنيدي بهذا التكتل من خلال هذه الصلة.

وفي الوقت ذاته كانت تربط اكرم ديري وأحمد حنيدي صلات كثيرة من صداقة وزمالة ورفقة دورة تدريب وعضوية في المجلس العسكري، الذي هيأ الظروف للوحدة.

ومن ثم علم كل من حنيدي واكم ديري بالتنظيمين، وبالتفاهم بين الاثنين، طلب أحمد حنيدي من المقدم عبدالله الشيخ عطية ان يفتح عبدالكريم نحلاوي بالامر، بوصفه كاتم أسرار الجيش، ويتعاون معه.

وقد تعاطف نحلاوي في بادئ الامر مع عبدالله الشيخ عطية وطمأنه، ولكن نحلاوي كان في قرارة نفسه غير مطمئن لهذه المجموعة وبخشاها، فعمد، بحكم موقعه الى نقل عبدالله الشيخ عطية من سورية ملحقا عسكريا في الكويت، وقام بتشتيت مجموعته.

ومن ثم اطمأن نحلاوي انه لم يعد هناك في الجيش تنظيم يخرج عن سيطرة تنظيمية.

ومن البديهي ان يعرف عبدالحميد السراج بهذا التنظيم، بعد ان اخذ اكرم ديري علما به، ولكن السراج لم يخطر ايضا عبدالناصر ولا عبدالحكيم عامر بشيء عن هذا.

رابعا تنظيم عبدالكريم النحلاوي.

وهو التنظيم الاقوى بين كل هذه التنظيمات. وكان يضم أكثر التشكيلات العسكرية قوة وتأثيرا، وكان يشمل الوحدات المتمركزة في المنطقة المركزية - قطنة، القابون، الكسوة - بالإضافة الى بعض المناطق الاخرى.

وقد أتاح له منصبه والفترة الطويلة التي قضاها فيه، فضلا عن الجوار الذي ساد رئاسة اركان الجيش، وتأثيره على قائد الجيش، كل هذه الاشياء اتاحت له ان يجري كل التنقلات والتعيينات، داخل الجيش السوري وفقا لما يضمن له النجاح والسيطرة.

على ان نقطة الضعف في التنظيم التي كانت سببا في عدم استمرار النظام بعد الانفصال كانت تكمن في ان تنظيمه ارتكز في قوته على عنصر اقليمي (ضباط دمشق)، مما جعل الجيش ينفر منه وينقلب عليه بعد ان قام بالانفصال.

وكان في مقدمة مجموعة نحلاوي الضباط الآتين:

فايز رفاعي، مهيب هندي، سعيد عاقل، فخري عمر، هشام عبد ربه، شرف الدين زعبلأوي، برهان الدين بولس، تيسير طباع، موفق عصاصة، عبدالغني دهمان.

★ راجع كتاب «عبد الناصر وتجربة الوحدة» لصالح نصر

فہرست مؤلفین

المالكي رياض ١٩ ، ٢٧
 البرازي، محسن ١٧ ، ١٥٠ ، ١٥١
 الكينخيا، رشدي ١٧ ، ١٦٥
 السعيد، توري ١٧ ، ٣٥ ، ٤٦ ، ٨١ ، ٩٦
 ١٠٧ ، ١٥١ ، ١٧٤
 الخوراني، أكرم ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٥٦ ، ٦١
 ١٢٩ ، ١٥٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٥
 ٢٥٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
 الشيشكلي، أديب ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤
 ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٢٤
 ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ١٨٧ ، ٢٢٠
 المير، جولييات ٢٠ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٦٣ ، ١٢٩
 ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٤٣
 المرشد ، مجيب سليمان ٢٦ ، ١٧٢
 الاطرش ، سلطان باشا ١٨ . ٢١
 المالكي، شوكت ١٩
 المالكي ثروت ١٩
 المحاييري عصام ٢٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠
 ٥٠ ، ٥١ ، ٦٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٥١
 المحاييري سهام ١٨٢
 الكينخيا عادل ٢٣
 البيطار، صلاح الدين ٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٣
 ١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
 ٢٦٠ ، ٢٦١
 الحبوباتي، توفيق ٢٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٨٩
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٦
 العسلي صبري ٢٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٧
 ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥
 العسلي، فيصل ١٢٣ ، ١٣٢ ، ٢٤٩
 العسلي شكري
 الخوري، فارس ٢٦ ، ٣٦ ، ٥٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 ابو النور، عبدالمحسن ٥٢
 الهاشمي، طه باشا ٣١

ادهم، برهان ١٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥
 ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٣ ، ١٤٤
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢١٤
 الكزبري حيدر ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٣
 الجابري ، سعد الله ٧ ، ٨
 العلي ، صالح ٧ ، ٨ ، ١٨
 الخطيب ، عبد الوهاب ١٠ ، ٣٨ ، ٥٤ ، ١٠٢
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦
 النحلاوي، عبدالكريم ١١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦
 ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤
 ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥
 الرفاعي، فايز، ١١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩
 ٢٣٣ ، ٢٨٦
 الصلح ، رياض ١٩
 السباعي، مروان ١٠ ، ٣٨ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٩٧
 ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٨٠
 المندي، مهيب ١١ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٦٢
 ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٦
 الاتاسي، هاشم ٧ ، ٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٦٨
 العظيمة يوسف ٩ ، ١٨
 المالكي، عدنان ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٤
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦
 ٣٧ ، ٤٦ ، ٤١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٩ ، ١٣٨
 ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
 ١٧٢ ، ١٧٥
 ابراهيم ، نهاد باشا ١٦
 أبو السعود، رياض ١٦
 الشطي، زهير ١٦
 الزعيم ، حسني ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧
 ٣٠ ، ٩٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧١
 الحناوي ، سامي ١٧ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ١٤٩
 ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٩

الرئيس، واسمة ٦٥، ٦٧، ٧١، ٧٢، ١٣٠	القاوقجي، فوزي ٣١
الرئيس، نجيب ٦٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٠	الشهبندر، عبد الرحمن ٣٣
الدندشي، عبدالكريم دباح ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٨٣	القوتلي، شكري ٣٣، ٨٢، ١١٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣
الدندشي، أميمة ٦٧	٢٨١، ٢٧٣
الالشي، غسان، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٧٤	الحفار، لطفي ٣٣
الالشي، جميل ٦٩	البرزري، عفيف ٣٣، ٣٧، ٥١، ٩٦، ١٨٨
الحسني، تاج الدين ٦٩	الحنيدي، أحمد ٣٣، ٥١، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٩
الخياط، تاج الدين ٧١، ٧٢، ١٦٠	٢٠٢، ٢٦٣، ٢٨٥
الاناسي، عدنان ٧٤، ٨٢	الحلو، فرج الله ٣٥، ٣٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤
العائدي، عدنان ٧٤، ٨٢	الصباغ، صلاح الدين ٣٥
العائدي، عثمان ٧٤	الصباغ، نزار ٣٥، ٤٦، ٤٧
المعظم، هشام ٧٤	الكيلاني، رشيد عالي ٣٥
الاطرش، حسن ٨٢	الديري، اكرم ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٥١، ٧٢، ٧٣، ١٧٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٥١
الاطرش، زيد، ٨٢	٢٦٣، ٢٦٤، ٢٨٤، ٢٨٥
اليان، ميخائيل ٨٢، ٨٧	الجراح محمد ٣٧
الحافظ، أمين ١١	المریان، شبلي ٣٨، ٥٦، ٩٨
المجلاي، منير ٧٤، ٨٢، ١٥٩	السراج ملك ٤٠، ٤١، ٤٥، ٥٦، ٥٧، ٦٩، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨
المجلاي، عادل ٨٢	١١٤، ١١٥، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٥
أنجوق، بيارس ٨٢	٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٣
العمري، صبحي ٨٢	الجابري، نادية ٤١
الاناسي، فيفي ٨٢	ابو منصور، فضل الله ٥٠، ٨٢، ١٥١
المتني، نسيب ٨٦، ٩٩، ١٧٤، ١٧٥	العودة الله، طعمة ٥١، ١٤٢، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٦٣
الصيداوي، وديع ٨٦، ١٣٢	النفوري، عبدالكريم ٥١
الصيداوي، اوغوستين ١٣٢	الصوفي جمال ٥١، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٢
المرادي، بكري ٨٧، ١٣٢	ارسلان، مجيد ٥٤، ٥٥
اليوسف محمود ٨٨	المریان، جميل ٥٦، ٩٤
المعظم، أم الخير ٨٨	الخوري، سامي ٥٦، ٦٣، ٩٣
المهندي، هاني ٨٨، ١٠٠، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥	اليازجي، عبدالله ٦١
٢١٨، ١٩٩	الغانم، وهيب ٦١
الكسم، صالح ٩٣	
أبوزكي، حبيب ٩٤	
الشيخ، حسن ٩٤	
الجدع، كميل ٩٤، ٩٥	
السعدني، محمود ٩٥، ٩٧، ٩٨	
السامرائي، صالح مهدي ٩٦	

الداخستاني، حسان ٩٦	الكيلاقي، رياض ١٥٠
اليافي، عبدالله ١٠، ٩٨، ١٧٤	الدندل، دحام ١٥٩
الحكيم، حدنان ٩٨	الهادي، دقام ١٥٩
الكمكي، محيري هوني ٩٨	البرازي، حسني ١٥٢، ١٥٣
الصفدي، أكرم ١٠، ٩٩، ١٧٣، ١٧٤	ايزنهاور، دوايت ٩٩، ١٣٣، ١٦٨
الدراجي، عبداللطيف ١٠٠	الجابري، مجد الدين ١٥٤
الشواف، عبدالوهاب ١٠٠	اسماعيل، بديع ١٥٨، ١٥٩
الطبيجلي، ناظم ١٠٠	الشريجي، صبحي ١٥٩
الحنكاري، شكر محمود ١٠٠	انطاكلي، رزق الله ١٥٩
الياور، احمد عجيل ١٠٠	الرباط، عمر ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢
الهادي، دقام ١٠٠	العسلي، شكري ١٥٩
أبو شاهين، يوسف ١٠١	المعالي، نزار ١٦٠
المهداوي، فاضل عباس ١٠١	القدسلي، ناظم ١٦٠
انطاكلي، وجيه ٣٥، ٣٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤	الغزي، سعيد ١٦٥
الغدا، عمر ١٠٢	الغزي، نادية
الكيالي، فالح ١٥٧، ١٥٩	الشيشكلي، صلاح ٨٢، ٩٤
الفيصل، عبدالله الامير ١٠٧	الشيشكلي، احسان ١٦٨
الحامض، عباس ١٠، ١٠٧، ١٢٩، ١٣٣	إيدن، أنطوني ١٦٨
ابو نوار، علي ١٠٩، ١١٦، ١١٧، ١٧٤	الجراح، محمد ١٦٨
التهولي، بهجت ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢	الدواليبي، معروف ١٧١، ١٧٢
١١٣	الجهالي، عبدالباقي ١٧٣
الحيارى، علي ١١٣، ١١٦، ١٧٤	الدسوقي، أنور ١٧٣
الكيلاقي، محمد رسول ١١٢	القطب، أنور ١٧٣
العظم، خالد ٢٦، ٤١، ١١٥، ١٢٣، ١٥٩	الحجعا، أنور ١٧٣
١٦٥، ١٨٧	الرباط، عبد الهادي ١٧٣
العظم، ليلى ١١٥	الاسعد، أحمد ١٧٤
المجالي، مزاح ١٠٩، ١١٦، ٢٠٣	الميداني، فاروق ٣٨
المالكلي، مصطفى كمال ١٢٢، ١٢٥	الميداني محمد ٣٨، ١٧٦
الريس، منير ١٢٣، ١٣٢	الميداني، موفق ١٧٦
الحسيني، ابراهيم ١٢٤، ٢٢١	الدالاتي، عصام ٢٤٩
النحلاوي نصوح ١٢٥	الدالاتي، فيصل ١٩٠
المأمون، سيف الدين ١٢٣	المهايني، ثابت ١٠٠، ١٩٩، ٢١٨
الحكيم، نزيه ١٢٩	الكزبري، مأمون ٢٤، ٢٥٣، ٢٦٦
الشايب، فؤاد ١١٤، ١٣١	الموصلي، محمد ٢٢٦، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤
الخطري، عبد الغني ١٣٣	الرفاهي، منيب ٢٢٧

بهلوي، محمد رضا ١٥٥
بولغادين، نيكولاي ١٣٣، ١٦٨
بن غوريون، دايفيد ١٦٩
بلرخان، روشن ١١، ٢٢٠، ٢٣٧
بولس، الرسول ٤٧
بن طلال، حسين الملك ١١١، ١١٢، ١١٣،
١١٦، ١٧٢، ١٧٤، ٢٠٣، ٢٥٤
بن سعود، عبدالعزيز الملك ٣٩، ١١٦، ١٤٥،
٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٧
بقدونس، نزار ٢١١
بلرخان، جلادت ٢١٩
برقو، ماجد ٢٢٠
بن بللا، أحمد ٢٦١
بركات، عوض ٢٦٦
بولس، برهان الدين ٢٨٦

ت

تقي الدين، سعيد ٣٦، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥،
٥٦، ٥٧، ٨١، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١٧٠
تغليبي، نشأت ٨٦
تويقي، غسان ٩٤
تجار، عبدالمجيد ٢٠٢

ج

جمعة، سامي ٣٥، ٦٧، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٨٢،
٨٣، ١٢١، ١٢٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨
جريج، جبران ٥١
جديد، غسان ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٦٣، ٨١،
٩٣، ٩٦، ٩٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥
جمال الدين عبد المجيد ٣٧
جربوع، فضل الله
جنبلط كمال ٩٨، ١٧٤، ١٩٠، ٢٥٥
جمعة، محمد أمين ٦١
جديد، فؤاد ٢٤٧

الكزيري، وليد ٢٢٧
الميداني، منذر ٢٢٧
السادات، انور ٣٨
الطرابلسي، عزت ١١٥
الشقيري، أحمد ١٣٣
الخراط، حسن ١٥٩
الاشقر، اسد ١٧٠
الرزاز، منيف ١٧٤
اللوزي، سليم ١٧٤
الصلح، سامي ١٧٥
النفوري، أمين ١٨٧، ٢٧٣
الشربجي، رجاء ١٩٢
الجلاد، هاني ٢١٢، ٢١٣
الجلاد فايز ٢١٣
الزحبلوي، شرف الدين ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٨٦
الرواشدة، منصور ٢٥٤، ٢٥٥
الحيزران، فيصل ٢٦١
العاذل، فؤاد ٢٦٦
الجندي، فرحان ٢٦٦
القوتلي، عدنان ٢٦٦
النص، عزت ٢٦٦
أزهري، نعيان ٢٦٦
الاستنبولي، محمد ٢٦٣، ٢٦٥
اليوسفي، محمد ٢٦١
القاضي، أنور ٢٦٤، ٢٦٥
الشيخ عطية، عبدالله ٢٨٦
ايليس، هاري ٢٧٤، ٢٧٥

ب

بكداش، خالد ٤١، ٥٦، ٩٩، ١٢٩، ١٥٣،
١٥٨، ١٨٧
برمدا، رشاد ٥٤، ٥٥
بابيل، نصوح ٨٠، ٨٦، ١١٣، ١٣٢
بلخير، عبدالله ١٠٧
بختيار، تيمور ١٥٥

ح

دياب، عبد الحميد ١٧٣
دقاق، شوقي ١٠، ٣٨، ٨٩، ١٨٩، ١٩٠،
١٩٧

دبوسي، كلود ١٨٤
دبوسي، عبد المنعم ٢٤٧
داية، حكمت ٢٦٧
دهمان، عبد الغني ٢٨٦

ر

رياض، محمود ٢٦، ٥٢، ٦٢، ٩٨، ١٦٦،
١٦٧، ١٦٨
رحون، ممدوح ١٠٠، ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٧

ز

زلفو، محمد ٣٣
زلفو، خالد ٤٧، ٤٨، ٥١، ١٩٠، ٢٢٠،
٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٥
زلفو، علي ٧٩، ١٨٧، ٢١٣، ٢١٤
زكريا، وصفي ٦٧، ٢٢٥
زلفو، أحمد ٧٩، ١٩٠، ٢٠٠، ٢١٢، ٢١٤،
٢١٩، ٢١٥
زلفو، جوان ٨٥، ٨٦، ١٢٨، ٢١٢، ٢١٣
زلفو، صفوان ٨٦، ٢١٢، ٢١٣
زلفو، دريد ٨٦، ٢١٢، ٢١٣
زلفو، زهير ١٩٠، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٣٧
زهراء، مولى ٩٣
زيتوني، كاظم ٢١٨
زيتونة، كامل ٢٦٨
زكي، أحمد ٢٦٤، ٢٦٥
زمرية، ليون ٢٦٦

حنون، مصطفى ٣٣، ١٨٧، ١٨٦
حسن، برهان قصاب ٣٣، ٣٧، ٥١، ٧١، ٧٣
حمادة صبري ٣٨، ٩٨، ١٧٤
حدة، حسن ٥١، ١٨٧
حدة، حسين ٥١، ١٨٧
حدة، حسين ١٨٧
حمود، محمد يوسف ٥٧
حكيم، عبده ٨٩، ٢٠٢
حكيم، حسين ٩٤
حاتم، عبد القادر ١٣٠، ١٣١
حصري، عزت ١٣٢
حمود، عبد الوهاب ١٥٧، ١٥٩، ٢٠٥
حشاد، علي ٥٢، ١٦٦
حسين، صداكم ١٧٤
حبش، جورج ١٠٠
حداد، وديع ١٠٠
حورية، عبد الرحمن ٢٦٦

خ

خروتشوف، نيكيتا ١٠٣، ١٠٤
خوري، ميشال ٣٦
خانكان، هند صلاح ٦٧
خليفة، محمد ٩٩، ١٠٠، ١٤٤، ١٧٣، ١٩٩

د

ديان، موشي ٩
دندش، مشهور ٥٣، ٥٤، ٩٤
دروزة، الحكم ٨٨، ١٠٠
دياب، هيفاء ١٢٢
دالاس، جون فوستر ١٥٣

س

سعادة، انطون ١٩، ٢٠، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٥٤، ٦٢، ٩٤، ١٢٩، ١٥١
سلام، صائب ١٠، ٣٨، ٩٨، ١٧٤
سرور، هایل
سعد، أنطون ٩٩
سلطاني، عدنان ١٠١
سكري، برهان ٢٢٧
سيمو بولوس، فرنسيس ١٦
سري، رفعت الحاج ١٠٠
سالم، يوسف ١٥٢
سعادة، عبدالله ١٧٠
سلام، نجاح ٢٤٩
سعيد، أحمد ٢٤٤
سلطان، أحمد محمد ٢٦٦

ش

شفيق، شوكت ٢٤، ١٤٢، ١٧٠، ١٧١ :
شلاش، أمير ٣٠
شمعون، كميل ٥٥، ٦٢، ٩٩، ١٠١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥
شاوي، اسكندر، ٦٣، ١٧٠
شربل، يوسف ٩٤
شقرا، يوسف ٨٢، ٩٦
شهاب، عزيز أحمد ١٠٠
شهاب الدين، فاروق ١٠١
شهادة، عبد الحق ٢١، ٢٢
شاكبر، ماجد ٥١، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠
شومان، عبد المجيد ١١٦
شهاب، فؤاد ١٧٥
شعبي، فوزي ٢٠٢
شرارة، غسان ٢٦١

ص

صديقي، طلعت ٨٠، ٨٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٨
صفا، محمد ٨٢، ٩٤
صفطي، شوكت ٨٢
بشير، صادق ١٨٥

ض

ضاحي، جهاد ١٠٠، ١٩٩، ٢١٨

ظ

طلس، أسعد ١٥٠، ١٥١
طباع، مأمون، ٨٨، ١٠٠، ٢١٨
طباع، تيسير ٢٨٦

ظ

ظاظا، ابراهيم ٤٦

ع

عبد ربه، هشام ١١، ٥٥، ٢٢٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٨٦
عبد الرحيم، يونس ١٥، ٣٢، ٩٤
عجلاني، عبد القادر ١٦
عبد المسيح، جورج ٢٠، ٣٥، ٦٣، ٧٢، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٧
عبد الناصر، جمال ١٨، ٢٠، ٣٨، ٣٩، ٥٧، ٦٢، ٨٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٠٢

١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

عطار ، حسن ٢٣

عفلق ، ميشال ٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

عصاصة ، احمد ٣٣

عصاصة ، موفق ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨٦

عز الدين ، جادو ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٣ ، ٢٠٣

عبدالاله [الوصي على العرش العراقي] ٩٦ ، ١٧٤ ، صمون ، لقاد ٦٢

هلوش ، بدر الدين ٦٣

عبد ، احمد ١٠ ، ٨٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٧٣

عسيران ، سمير ٩٨

عزيز ، محمود ١٠٠

عطفا ، عبدالله ٣٠

عبار ، جهينة ١١٥

عباد ، عزيز ١١٥ ، ١١٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤

حامر ، عبد الحكيم ٨٦ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥

هلوش ، احمد ١٧٣

هناية ، عدنان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١

حمر ، فخري ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩

٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٨٦

عبود ، مارون ٢٢٧

عبد الكريم ، احمد ١٨٧ ، ١٩٠ ، عبود ، صالح ١٨٨ ، عقل ، سعيد ٢١٥ ، علوان ، جاسم ٢٦٤ ، علوي ، احمد ٢٦٥ ، عاقل ، سعيد ٢٨٦

غ

غميان ، لقواد ٢٣

غالب ، عبد الحميد ٩٨ ، ١٩١ ، ٢٥٥ ، غورو ، هنري الجنرال ٨٨

ق

فاروق ، الملك ١٨

فريجة ، سعيد ٢٢ ، ٨٦ ، ١٧٤

فرحات ، صبحي ٢٣

فياض ، جميل

فرنجية ، سليمان ٩٨ ، ١٧٤

فريد ، عبد المجيد ١٠٠ ، ١٤٣

قنصة ، نذير ١٣٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧

فيصل ، الاول الملك ٣٠

فيصل ، جمال ١٩١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٤

فيروز ٢١٥ ، ٢١٦

فضلي ، شيخ عدنان ٢٨٤

ق

قباقي ، آصف ٢٢

قنوت ، عبد الغني ٣٣ ، ١٨٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

قطيفي، راشد ٥٤، ٦٦، ٧٠، ٧١، ١٥٣، ١٥٤
قنيزح، سعد الله ٩٣
قاسم، عبدالكريم ١٠٠
قليلات، ابراهيم ١٠١
قضيائي، فؤاد ١٠٨، ٢١٣
قلمجي، قدري ١٢٩
قضيائي، وليد ١٠٨، ٢١٣
قضيائي، مأمون ٢٨٤

ك

كيسنجر، هنري ٩
كسواني، حنا ٦١، ١٥٧، ١٥٨
كبار، سامي ٧٤، ٨٢
كرامي، رشيد ١٧٤
نرد علي، محمد
نرد علي، عادل

مردم بك، جيل ٣٣، ١٢٤
مراد، عدنان ٣٥
منهل، نجيب ٥٧، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٨٠، ٨١
٨٤، ٨٥، ١١٧
معروف، محمد ٨٢، ٩٤، ١٥١، ١٥٢
موصلي، اياد ٩٣
موصلي، بشير ٩٣
معوض، رينه ٩٨، ١٧٤
مروة، كامل ١٠١، ١١٣
مريود، عصام ١٥١
ماثير، غولدا ٩، ١٦٩
ملوحي، عدنان ١٧٣
مبارك، حسني ٣٨
ميسر، عدنان ١٥٥
مالك، اسيمه ٢١٩
مخلوف، بديع ٢٤٧
محصل، جورج ٢٦٧
متصور، محمد ٢٨٤

گیسنجر، هنری ۹
کسوانی، حنا ۶۱، ۱۵۷، ۱۵۸
کبار، سامی ۷۴، ۸۲
کرامی، رشید ۱۷۴
کرد علی، محمد
کرد علی، هادل
کمال، واصف ۱۱۶
کوبلانڈ، مایلز ۱۵۸
کمالہ، نورالدین ۲۰۵
کامل، حسان ۲۴۷

الحام، زهير ٨٠

مسوتی، پہجت ۱۰، ۳۸، ۱۹۷، ۲۵۱
 موس، جیمس ۱۶
 مشاققہ، انطون ۱۶
 محسن، عبداللہ ۲۳، ۵۰، ۶۳
 میسر، نجیب ۲۳

نجيب، محمد ١٨، ٢٠
نظام الدين، زكي ٢١، ٢٢، ٣٥، ٦٨، ٨٧،
٨٨، ١٤٩
نظام الدين، توفيق ٣٠، ٣٥، ٦٨، ٨٧، ١٤٢،
١٤٣، ١٥٣، ١٨٧
نظام الدين، عبد الباقي ٦٩، ٨٧
نويلاتي، ياسين ٨٢
نعمه، محمود ٩٤
ناصر، محمد ٢٢٠
نظيف، أمين أحمد ٢٦٦

هـ

هيكل، محمد حسين ١٣٠، ١٧٦، ١٧٧، ٢٤٤
هتلى، أدولف ٢٢٧
هنانو، ابراهيم ٧، ٨

و

وهبة، عبده ٨٢، ٩٤
وايزمان، حايم ١٦٩

ي

يحيى، طاهر، ١٠٠
ياسين، يوسف ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠،
١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥
ياسين، عبد الفتاح ١٣٧، ١٤٠
يشرطى، خالد ٢٦١

الطبعة الأولى

١٩٩١

لندن

كان فراغ «دار أرادوس» للنشر
من صف وتصحيح وطباعة هذا
الكتاب في العاشر من شهر
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١

ARADOS PUBLISHING LTD.

**JNIT F11 LANTERNS COURT, MILLHARBOUR, DOCKLANDS,
LONDON E14**

فهرس الكتاب

إهداء:	٣
شكر وتنويه:	٥
لماذا السلطان هذه الأيام:	٧
تمهيد	١٣
الفصل الأول: حارس «بحسيتا»:	٢٩
الفصل الثاني: الهروب الى الحرية:	٤٣
الفصل الثالث: نطف نجيب منهل:	٥٩
الفصل الرابع: بلاط السلطان:	٧٧
الفصل الخامس: جواسيس السلطان:	٩١
الفصل السادس: في مملكة الحسين:	١٠٥
الفصل السابع: تركيع الصحافة:	١١٩
الفصل الثامن: المؤامرة السعودية:	١٣٥
الفصل التاسع: موت البرلمان:	١٤٧
الفصل العاشر: صوت سيده و... سيفه:	١٦٣
الفصل الحادي عشر: بداية النهاية:	١٧٩
الفصل الثاني عشر: السقوط:	١٩٥
الفصل الثالث عشر: الهروب:	٢٠٩
الفصل الرابع عشر: اعتقال السلطان:	٢٢٣
الفصل الخامس عشر: في حفى الرئيس:	٢٤١
شهادات وشهود:	٢٥٧
التنظيمات السرية داخل الجيش السوري:	٢٨٣
فهرس الاعلام:	٢٨٧

